شفيق حبيب

في مَرايا النَّقد

الكتاب : شفيق حبيب... في مَرايا النّقد
المؤلف : مجموعة من الناقدين والدارسين
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٣
رقم الإيداع : ٢٠١٢/١٤٩٦٣
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 113 - 6

الناشر
شمس للنشر والإعلام
القاهرة : ٨٠٥٣ ش الجامعة الحديثة. الهضبة الوسطى. المقطم
ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

شفيق حبيب

في مَرايا النَّقد

(لمجموعة من الناقدين والدارسين)

شفيق حبيب منارةٌ للشعر
ورمزٌ للوطنيَّةِ المُلتزمة

الدكتور يحيى زكريا الآغا

الدوحة - قطر

▪ يُعَدُّ الشاعر شفيق حبيب من بين جيل الشعراء الذين فتحوا عيونهم على واقعٍ مؤلم، وظلمٍ شديد، فتحوَّلَ الظلمُ الذي يختزنهُ هو وغيرُه من الشعراء إلى بركانٍ تفجّرَ ينابيع لظىً.

▪ بدأت أسلاكُ دولة "الديمقراطيّة" تحيطُ بالشاعر من كلّ جانب بعدَ صدورِ أول مجموعةٍ شعريةٍ له، لكسر قلمِه، فانبرى لهم بصمودهِ ومواقِفِهِ الصَّلبة، وأبى على نفسه أن يكونَ قلمُهُ بمدادٍ إسرائيلي، وفكرُهُ بثقافةٍ صهيونية، فتحوَّلت كلماتهُ في ديوانه "آهِ... يا أسوارَ عكا !!" الذي صدر بعد عمليةِ الإقامةِ الجبريّة التي فرضت عليه، إلى صرخاتٍ مدوِّيةٍ في وجهِ جلاديه.

▪ بدأ بشعرهِ قويًا؛ وما زال، قرأ لعمالقة الشعراء في العصور المختلفة، واطلعَ على الثقافات المتنوعة، وكوَّنَ لنفسهِ ثقافةً خاصة، وأبجديّةً مصدرُها الإحساسُ الفاجعُ بالحياة، فجاءَ شعرُه بصوتٍ مرتفع، وموازنًا في بنية النص الشعري بين حُسْنِ استخدامِ اللفظِ الدَّالّ على المعنى، وعمقِ التجربة، نوَّعَ

في كتابةِ النصِّ الشعريّ، فجاءت القصيدةُ الخليليةُ سليمةً من الأخطاء التي يقعُ فيها الكثيرُ من الشعراء، وهو على يقين بأن الشاعر إذا لم يكتب على هذا النسق فليس بشاعر مهما علا، وانتقل إلى قصيدة الشعر الحُرّ، ليواكبَ التطوُّرَ في بنية القصيدةِ شكلاً ومضمونًا.

▪ يكتبُ الشعرَ الملتصقَ بالوطن، ويمزجُ الموضوعاتِ البطوليةَ بمشاعرهِ الصَّادقة، وما يحيطُ بقضيتهِ الرئيسية فلسطين من مخاطر، فأصبح شعرهُ جزءًا من الوطن.

▪ كتب عنه الشعراءُ والنقادُ الكثير، ومن يقرأ العددَ التكريميَّ لمجلة الشرق (العدد الثالث/المجلد ٣٢/٢٠٠٢)، يقرأ جزءًا من كتابات النقاد والشعراء والأدباء عنه، وهذا يدلُّ على المكانة الكبيرة التي وصل إليها الشاعر والتي تجاوزت حدود الوطن فلسطين إلى دول أخرى.

▪ وعندما يُكرِّمُ شعراءُ المثلث والجليل الشاعر شفيق حبيب من خلال العدد الخاص لمجلة "الشرق" التي صدرت مؤخرًا في الوطن فلسطين، مصدِّرةً على غلافها صورة له، مع عنوان معبّر يقول: "الشاعر شفيق حبيب – شاعرُ القرن الضِّلّيل"، وهو مقتبسٌ عن عنوان لديوانٍ له بعنوان "مأساةُ القرن الضِّلّيل" فإنَّ هذا يدلُّ على تقدير الشعراء وأسرة التحرير في المجلة لهذا الشاعر.

▪ ولقد كان لي شرف التعرُّف على الشاعر من خلال دواوينه الأربعةَ عشرَ والتي تعتبرُ منهاجًا في الوطنية ومنهلاً لكل من أراد أن يرسمَ ملامحَ النضال بالكلمة ضدَّ المحتل، فهو شاعرٌ بما يحملُ من معنىً وحروفه لظىً، تضرمُ النارَ في الذئاب، ويُحطمُ بكل ما يملكُ من قوةِ الكلمة، الظلمَ على نفسه وشعبه، تعرَض لمحاولاتٍ متعددة لطمس الحقيقة، لكنه امتدَّ بشعره فوق الأرض الفلسطينية، فتمدَّدَت قصائدهُ في أنحاء الوطن الأسير والوطنِ العربيّ وصولاً إلى نخيل العراق، بل وتجاوزت إلى دُولٍ أخرى، تُرجمت قصائدهُ إلى الإنكليزية والفرنسية، السويدية والعبرية وغيرها، فأصبح صوته وطنًا في القصيدة وقصيدتهُ بركانًا ثائرًا يعيش بين وجيبه، فتفاعل اللفظُ والمعنى، وكوَّنا جسدًا هو القصيدة التي تحملُ الصِّدقَ والواقعية.

▪ منذ صدور ديوانه الأول "قناديل... وغربان" عام ١٩٧٢، إلى الديوان الرابعَ عشرَ "صارخٌ في البرِّية" الصادر عام ٢٠٠١ يبرزُ التزامُ الشاعر إزاء قضيته الأساسية التي ناضل وما زال من أجلها، فكل من يقرأ له، يشهد بما له من التميز والإبداع، ويخلص إلى نتيجةٍ مفادُها بأن الخريطة الأدبية في الوطن العربيّ لا يمكنها تجاوز هذا الشاعر، وبالتالي فإن تكريمَه الخاص من خلال هذا العدد من مجلة "الشرق" يمثلُ كلَّ الشعراء وتكريمًا للغة البيان التي امتلك ناصيتها، لتصبحَ طوْعَ قلمهِ ولسانه، فيقذف بها في وجه جلاديه وقتما يشاء، ويفتحُ من خلالها نافذةَ الأمل بالنصر.

▪ يُعتبرُ الشاعر شفيق حبيب واحدًا من الشعراء الفلسطينيين في المثلث والجليل الذين تشهد لهم قصائدُهم بصدق انتمائهم، وقدسية القضية التي يدافعون عنها، لأن هدفهم واحد، وعدوَّهم مشترك، وأرضهم مغتصبة.

فتحيةً لكل شعراء فلسطين الذين يضيئون شمعةً ويرسمون حدودَ الوطن بأحرفٍ ممزوجةٍ بدماء الشهداء، وتحية لكل شعراء الوطن العربيّ الذين ينسجون من أجسادهم حروفًا صادقةً من أجل فلسطين.

صحيفة "الشرق" القطرية

٢٦ / ٢ / ٢٠٠٣م

الشاعر شفيق حبيب
طائرُ الفينيق المنبعثُ بركانًا من رماد
ورمزٌ للتحدِّي والنصر
وديوانه : "العودة إلى الآتـي" ، وقصائدُ مختارة

مقتطفات من كتاب : "إضاءات في الشعر الفلسطينيّ المعاصر"
(الجزء الثاني ١٩٩٨)
تأليف الناقد والكاتب الفلسطيني : الدكتور يحيى زكريا الآغا

إذا أردنا أن نقرأ لقلمٍ لم ولن يُقهر، ولسانٍ لم يُلجم، وفكرٍ لم يُسجن، ووجدانٍ لم يهتز، فعلينا بالشاعر شفيق حبيب، صاحب الاثني عشر ديوانًا، تجاوز بها حدودَ الزمان والمكان، وأسقط معادلاتٍ وأيدولوجياتٍ بشعرٍ ملتزم وصادق، خرج من بوتقة الظلم السياسي الذي دار حوله ظلمًا، أشدَّ عنفوانًا، وتجاوز محنة الإقامة الجبرية في منزله عام ١٩٩٣م بكل إباء، فلم يستسلم لأساليب القمع التي مُورست على جسده وقلمه، وتصدَّى لكل محاولات طمس الهُويّة الفلسطينية، فأصبح صوته جسدًا في وطن، وذاته وطنًا في جسد، فكان الصوتَ المعبرَ عن كل ما يختلج مشاعرَ وأحاسيسَ أبناء فلسطين الرافضين لكل مظاهر القهر والاضطهاد بأنواعه.

لا أريد في هذا المقام أن أتجاوز من خلال الكلمة ذاتَ الكلمة، فعندما نقول بأنه وطنيٌّ، فإننا نعني بذلك، وما دواوينه التي صدرت له إلا شاهدًا حيًّا مازالت تنبض بالحياة، فكم هو عظيمٌ في التزامه وانتمائه ومنهجه وفكره، فقدراته الفكرية متميزة، وأحاسيسُه مرهفة، ولغته ثورية نابضة، وإيحاءاته هادفة، ورمزيته شفافة وقوية، نوّعَ في بنائية النص، وخرج عن دائرة البحور الشعرية الموحدة، إلى الشعر المعاصر، وأبدع في كليهما أيَّما إبداع، لإيمانه بأن المضمونَ يكون الأكثر التصاقًا بالتجربة.

كتب النصَّ؛ كما سنرى؛ ممزوجًا بكل أحاسيسه، وبعرقه، وبدمه، فلم يكتب في هواء، بل كل ما كتبه - حتى الذي أُحرق من قِبل السلطات الإسرائيلية - ما زال محفورًا على أسوار عكا وكنائس فلسطين شاهدًا بفلسطينيته، وبعروبته، وانتمائه للأرض، والوطن والشعب والمستقبل.

إننا لا نتجاوز حدودَنا أمامَ هذا الشاعر، بل نتلمس خطواتنا معه على أمل أن نسبرَ تجربةً، وولادةً جديدةً لنصٍّ جديد.

إذا كان هناك من شاعر يُطلق لنفسه العنان ليقول شعرًا فهو شفيق حبيب، لما يتميز به من موسوعية معجمية متميزة، ونبش في التراث قائم على ربط الماضي بالحاضر من أجل المستقبل، يعتمد فيما يقول على المباشرة، وعلى الإيحاء بالرمز أحيانًا، لتبرز التجربة باعتبارها حالةً من الوجد تجعل المستحيل ممكناً، والممكن واقعًا.

الوطن، الأرض، المدن، القرى، الشهداء، السجون، الحياة... كلها هموم يعيشها مع شعبه، وظواهر تحرِّك فيه ثوراتٍ عارمة، لا تتركه إلا بعد أن يفرغ من تجربته الشعرية، وبعد أن تلتحمَ ذاته بالحدث لتكوِّنَ النصَّ الشعريَّ بصورته التي يريدها.

كلما تعمقنا في دواوينه نجده يؤمن بحقيقة رائده يتخذها منهجًا في بنائية النص، وتتجلى في أن الشعر الصادق والملتزم النابع من رؤية شعورية صادقة، يفرض وجودَه بأي شكلٍ كان، وبأي لغةٍ كانت، لهذا وجدناه يلوِّن في القصيدة الشعرية، فتارةً يسير على النظام التقليدي، وتارةً على نظام الشعر التفعيلي.

وإذا كانت المواجهة في قصائده، عنصرًا بارزًا في النص، فإن الدفاع والتصدي، هي اللغة الأقرب للمواجهة، لأنه لم يشعر في لحظة من لحظات الزمن بضعفه، لهذا نراه دائمًا يصوِّبُ سهامَه دون هوادة، فقصائده ثورة عارمة، وألفاظه ذات معانٍ صافيه، وصُورُه ذات دلالات متميزة، ورموزه تحملُ إيحاءاتٍ عميقة.

دواوين الشاعر التي بدأت بالصدور منذ عام ١٩٧٢، وحتى عام ٢٠٠٥؛ تمثلُ رحلة الشاعر مع الكلمة والحق والثورة والوطن والأرض، فعالمه الفكري الضبابي من جانب الاحتلال، جعله أكثر التزامًا، وقد حال بالكلمة أن يقشع ضباب الفكر، وانتصر، فأشرقت شمس العدل والحق، في زمن غُيِّبت فيه كل القيم والمبادئ، وبزغ شعرُ الشاعر وهو محمَّل بأوجاع وهموم

الوطن، فأضاء خلال مسيرته الشعرية خمسة عشر قنديلاً ومازال، تلك هي نبضات الشاعر، وهويته، ومازال نبض الحياة يبعث رؤى جديدة موضوعية وفنية، ولقد استشعر بوقوع الانتفاضة قبل وقوعها، فنظم العديد من القصائد حول هذا الموضوع، وسُجن جرَّاء إحدى قصائده التي ألقاها في إحدى الندوات الأدبية والتي تنبأ فيها بظاهرة الانتفاضة.

والشاعر أولاً وأخيرًا، وطنيٌّ في نفسه وفي شعره، قوميٌّ في انتمائه، وإنسانيٌّ في فكره، بسيطٌ في قوته، قويٌّ في بساطته، لا يلين له جانب، مهاجم ومدافع عن الحق، لا يخشى في الوطن سجن العدو، ولا الإقامة الجبرية.

هذه رؤية في شاعر لا يلين له جانب، وفي كلمة تصيب ولا تخطئ، وفي بنية فنية متجددة، قادرة على عصرنة اللفظ، لتناسب المرحلة.

وعند قراءتي لدواوين الشاعر كاملة، قررت أن أغيِّر في منهج الكتابة لأسباب، منها أن الشاعر سُجن فترة من الزمن في التسعينيات، فأردتُ أن يتعرف القارئ على الأسباب التي جعلتْ المحكمة العليا في دولة "الديمقراطية" تحكم عليه بهذا الحكم، ثم نتعرف على القصائد التي كانت السبب في سَجنه، وحيث أن عددها قليل، فكان لابد من ديوان آخر، فقررتُ الوقوف على ديوان " آهِ.. يا أسوارَ عكا !!"، ولكن تراءت لي فكرة أخرى

تتمثل في دراسة قصيدة من كل ديوان صدر للشاعر، ليقف القارئ على منهجية الشاعر الموضوعية، متتبعين الترتيبَ الزمنيَّ لدواوينه، وبالتالي نكون قد وقفنا على ما يوازي ديوانًا شعريًا، ولكن من خلال مسيرة حياته الشعرية.

أما ديوان " آهِ.. يا أسوارَ عكا !!" فستتمُّ دراسته في الجزء الثالث الذي سيضمُّ عددًا من شعراء فلسطين.

"في قفص الاتهام"
وقائع معركة حرية التعبير ضد سياسة القمع المنهجي
"العودةُ إلى الآتي"

لا أحد منا ينسى يوم اندلاع شرارة الانتفاضة التي امتدت لتشمل كل فلسطين، سواء مشاركين أو متضامنين، ولا نستغرب بأن يساهم الأدب في إشعال هذه الانتفاضة، وإذكاء لهيبها، خاصة من معظم شعراء فلسطين داخل الخط الأخضر، لتظهر قصائد عديدة، ودواوين مختارة تمثل هذه المرحلة، فكانت الإضاءة الحقيقة التي أضاءت درب الأطفال في عتمة الليل يتصيدون فيها قافلة من الجنود بحجارة من سجيل، ولننظر إلى أحد الشعراء (شفيق حبيب) الذين عاشوا الحدث ببصر وبصيرة، فيقول في قصيدة له بعنوان : "يا قائد الركب..!!"

عامٌ يمرُّ وفي عينيكَ إصرارُ فالمجدُ يعلو جبينًا زانهُ الغارُ
لا تسألوا : من ترى هذا الذي انفجرتْ من راحتيهِ براكينٌ وإعصارُ
هذا الملثمُ لا تدري مناقبهُ إلا سوائبُ جيشٍ راحَ ينهارُ
بوركتَ يا حجرَ الأطفال منطلقًا في وهجِ عزمِكَ أخبارٌ وأسْرارُ
بوركتَ يا حجرَ الأطفالِ مؤتلقًا مثلَ الشهابِ ففيه النورُ والنارُ

الشاعر كما نرى لا يتعصب لقديم أو جديد، ويرى أن الصراع بين المجددين والمحافظين لا طائل منه، لإيمانه المطلق بأن الشاعر الجيد هو القادر على إعمال التأثير المطلوب بأي شكل كان، وقادر على مخاطبة المشاعر والأحاسيس والفكر دون تزييف، أو ترقيق أو تخشين، لهذا رأيناه في الأبيات الخمسة السابقة، أو في رائيته التي أبدعها بعد عام من اندلاع الانتفاضة، يظهر ثلاث مرتكزات أساسية :

المرتكز الأول: الاستمرارية في النضال، والثاني: صورة الطفل الملثم، وقدرته على المواجهة، والثالث : صورة الحجر وهو ينطلق من يد طفل، يحمل معه الأمل والقوة رغم ضعفه.

لقد ربط الشاعر بين الألفاظ ودلالتها برباط وثيق، فعندما ذكر الانتفاضة قال : " الغار، وإعصار" وعندما تعامل مع المحتلين قال : " ينهار "، وعندما قال الحجر ذكر بأنه يحمل "أسرارًا ونارًا". هذا التوافق بين الألفاظ ودلالتها صاحَبه توافقٌ في قافية النص، حيث استخدم الشاعر حرف الراء باعتباره من الحروف البسيطة، وابتعد عن الحروف الخشنة، أو ذات الطنين العالي. هذا التوافق بين مكونات النص صاحَبه تلوين في العاطفة من خلال التنويع في استخدام الكلمات، فتارةً يستخدم الأفعال، وتارةً الأسماء، مع توظيف الصور البلاغية لخدمة الفكرة، من ذلك، أظهر الشاعر اللغة الجديدة للحجر، ودلالته،

ويحق لنا أن نعتبره جزءًا من الأساطير، لأنه حقق معادلة غائبة وغير متوقعة، مقارنة بالبندقية التي لم تحقق أي توازن، ولكن الشاعر هنا أظهر الحجر مع الحق، وهنا كان تأثير الحجر في يد الطفل الفلسطيني مقاومًا ومهاجمًا، دون أن يخشى البندقية، وهذا جمال الإبداع. ووعي الشاعر برز في استخدامه الدلالات المعنوية دون غيرها في هذا الموقف، لأن كل الظروف المحيطة تتطلب هذا الموقف:

يا أيها الغاصبُ المحتلُّ سوف تعي ... أنَّ الديارَ لنا.. والدهرَ دوّارُ
اسجنْ رجالي فما لانت عزائمُنا ... يحدو الرجالَ إلى الساحات إصرارُ
واهدمْ بيوتًا وشرّدنا فإن ... لنا تحت الثرى مهدَ أجدادٍ هنا ثاروا
خطِّطْ لنفي رجالي السُّمر ما خمدتْ ... نارٌ، وإن نُفِيَتْ في الليل أحرارُ
إن الرجالَ إذا ما استشهدوا خَلدت ... أفعالهم أبدًا.. وانداحَ أشرارُ
إنْ مزّقَ الحقدُ طفلاً ننتصبْ شممًا ... فالطفلُ في ليلنا نجمٌ وأقمارُ
إنْ تسألوا كلَّ شبرٍ في مَرابعِنا ... كان الجوابُ لأهلي هذه الدارُ
لو خُيّرَتْ أرضُنا عن ظلمِكم بدلاً ... لكانت الأرضُ للشيطانِ تختارُ

نداءٌ موجَّهٌ للمحتلِّ يُعلن بأن الأرض لنا، وما تواجدكم المؤقت، سوى مرحلة ولابد أن تزول، فهو ينقلنا بوعيه التام إلى أسلوب المحتل "الغاصب" ثم إلى "المحتل" والتي تعني السيطرة بالقوة على الأرض، وهنا يبرز الصوت الأقوى من الشاعر، ليقول: إذا كانت الأرض احتلت واغتصبت، فهذا لا يعني بأن الديار لهم،

فصاحب الأرض لا يغتصب أرضه، ولا يحتلها بالقوة، وهذه دلالة على واقع طارئ ومغلوط، ولابد أن يتحوّل هذا الواقع المؤقت عن مساره، فاستند على القوة، والقوة لا يمكنها الاستمرار مقابل الحق التاريخي والحضاري لأصحاب الأرض، لهذا جاء الشاعر بمرتكز يبرز بأن هذا الوضع مغلوط، فقال :
"الدهرُ دوّارُ "....

إن ولوجَ الشاعر إلى الدهر، أو اعتماده على الزمن، يرجع للواقع العربي في هذا الفترة العاجز عن تغيير الواقع، ولكن في النهاية ستتصحح الأمور، وبالتالي سيتحول الحاضر إلى ماضٍ، والواقع المتمثل في الضعف إلى قوة تغيّر المعادلة.

الشاعر لا يرى في الأفق القريب ما يبشر بخير، ولهذا فتح آفاقًا جديدة أمام الشباب لينهضوا من عثرتهم ويبتعدوا عن الاستكانة:
الأولى : الأساليب القمعية واللا إنسانية التي يمارسها العدو ضد أبناء فلسطين، ويقابلها صورةٌ معنوية تواجه هذه الصورة بكل قوة وحزم، فنحن إذن أمام قوله "اسجن رجالي" والسجن كما نعلم ظاهرة استحدثت منذ استعمار فلسطين، ثمّ نمت وتفاقمت كلما اشتد الصراع مع العدو، فيلجأ المحتل إلى الزج بكل الشرفاء من مدنيين ومثقفين وشعراء وكتاب، وثائرين إلى السجون، ظانًا منه أنه قد تخلص من "شرورهم"، فقد فُتحت سجونٌ جديدة، ومعتقلاتٌ من خيام في صحاري فلسطين الباردة

والحارّة، من أجل استيعاب الأعداد الكبيرة من المعتقلين، لتمارس عليهم صنوف التعذيب المنظم، وغير المنظم، من أجل اعتراف ضمني بمشاركة في ندوة، أو إلقاء حجر، أو نظم قصيدة تحرِّض على الاحتلال، فهل السجن يحطم الإصرار في العزائم؟ ويقيّد الفكر؟ ويقتل الوطنية المتأججة في النفوس؟ ويُنسي الحق في الأرض؟ ليأتي تعبيرُ الشاعر سريعًا وواضحًا، بحيث لم يترك مجالاً لأي لون من ألوان التفكير، "فما لانت عزائمُنا".

- أما الفعل الثاني "اهدم بيوتًا"... وهنا يبرز الشاعر الصورة الأخرى للوجه القبيح للمحتل، والسؤال لماذا هدم البيوت؟ وهل يُسمح لمن هُدم بيته ببناء بيت بديل؟؟؟

هناك سببان ونتيجةٌ لهدم البيوت:

السببُ الأول: إذا ثبت أن صاحب البيت، أو أحدًا من أفراده له صلة بعملية فدائية.

والسبب الثاني: إذا ثبتت مساعدته لأحد من الفدائيين.

والنتيجة هي إلقاء صاحب البيت خارج الوطن، وليكونَ عِبرة لغيره.

وهنا نتساءل، هل الذي يدافع عن أرضه ووطنه، ويقاوم المحتل يكون جزاؤه هذا العمل؟.. ثمّ يأتي الرد سريعًا كما جاء في البيت الأول: "إنَّ لنا.. تحت الثرى مهدَ أجدادٍ هنا ثاروا".

- أما الفعل الثالث "خطط لنفي رجالي" هذه صورة قديمة حديثة، يستخدمها الاستعمار في أنحاء الوطن العربي، حيث ينفي الثوار والشرفاء خارج الوطن، وها هو العدو الصهيوني يمارس هذه الصورة على أبناء فلسطين، في محاولة لتهدئة الأوضاع، باعتبار أن هؤلاء يمثلون الزعماء النشطين للثورة ضد المحتل، ولا أظن بأن هناك قانونًا وضعيًا في العالم يسمح ويقر بنفي المواطن صاحب الأرض عن أرضه، لكن هذا نجده في القوانين الصهيونية الوضعية، ولكن هل النفي يُقابَل بالاستسلام، ويأتي الرد على لسان الشاعر: "ما خمدت نارٌ وإن نُفِيَتْ في الليل أحرارُ ..."

وإذا كانت الشهادة هي الوجهَ المشرقَ في مسيرة المناضل، والإطلالةَ الأكثر إشراقًا في القصيدة، فإنها لن تكون النهاية، بل بداية حياة جديدة، وهذا ما رأيناه في الحلقة الرابعة والأخيرة من حلقات التحدي والمواجهة مع العدو، فما دامت الشهادة معناها الخلود، فهي رسالة إلى كل الشرفاء للمواجهة والتحدي، حتى يتم إزالة العدو عن الأرض.

التتابُع المُوَفق من الشاعر في إبراز مايحدث "السجن - الهدم - النفي - الاستشهاد" كلها ظواهر لبعث الهمم في النفوس، وإلهاب الحماس، وإظهار القوة الكامنة في النفوس.

ويتابع الشاعر في الجزء الأخير من النص إبراز صور جديدة تتصل بهذا الطفل الجديد:

يــا قائــدَ الركــب والأغصــانُ في يــدهِ   ابْــنِ الســلامَ علــى أنقــاض مَــنْ جــاروا
وارفــعْ مــداميكَ بيــتٍ تلــك قلعتنــا   تحوطهــا مــن قلــوب الشــعب أســوارُ
هــذا دمــي، صــارخٌ في وجــه هــادرهِ   في ثــورة الحجــرِ المعطــاءِ هــدّارُ
فالمجــدُ للشــعب مــا أعطــاك يــاوطــني   والخِــزيُ للمــاكر المحتــلّ والعــارُ
إنــي بحقــي وإيمــاني أنــازلهم   هــذا ســلاحي مقــاليعٌ وأشــعارُ

هذه الصور الجديدة، ارتكزت على الصور الاسمية والأساليب البلاغية، ومنها النداء، لاستحضار ما هو معلوم، وما استحضاره في هذا المقام لصورة الطفل، إلا لكونه القائد الحقيقي في هذا الزمن.

إن الشاعر في هذا المقام استطاع أن يبرز الطفل بصورتين، الأولى بأن الطفل داعية سلام، وليس داعية حرب، ولما لم يجد بُدًّا من أن تمتد اليد الأخرى إليه، فلم يجد سوى الحجر والمقلاع.

والصورة الأخيرة ترتكز على الحجر، باعتباره الأكثر تكثيفًا في النص، فأصبح الحجر الناطق الرسمي الجديد والوحيد خلال هذه الفترة، ومادام ذلك فستعلو راية الوطن، وأما المحتل فله

الخزي والعار، وما قتالنا بالمقلاع والحجر، رغم ضعفهما، إلا أن الحق بالأرض، والوجود والحياة الحرة الكريمة وراء قوة هذا الحجر.

هذا العشق الأزلي للفلسطيني لأرضه وحقه، دفع به لمواجهة كل المحاولات لطمس هويته وماضيه وحاضره ومستقبله، فاتخذ من الحجر أداة للمواجهة، فابتعد الشاعر عن لغة البكاء والندم، إلى لغة جديدة تتناسب وعصرية الزمان والحدث.

• • •

ونقلب الديوان، لنقف أمام قصيدة ربما تكون واحدة من القصائد التي تسببت في اعتقاله ومصادرة دواوينه، وهي بعنوان "نشرة إخبارية" حيث يقول في مقدمتها:

(منذ مولد الانتفاضة.. وعلى مدى أربع وعشرين ساعة يوميًا، يتقيأ مذيعو الإذاعة والتلفزيون في آذاننا.. وعلى عيوننا نشرتهم الإخبارية التالية)

أما النصّ فيقول:

سيداتي ! آنساتي ! سادتي !!

نشرةُ الأخباريتلوها غرابْ...

فماذا تقول النشرة التي تحمل إلينا صورة المهزلة العصرية، يخرج علينا المذيع بقوله:

طاردتْ قواتنا الأطفالَ من بابٍ لبابْ

قتلتْ منهم ثلاثهْ...

بعد كرٍّ، بعد فرٍّ، ومجيءٍ وذهابْ

ألقتِ القبضَ على قائدهم "زين الشباب"

عمرُه سبعةُ أعوامٍ، ومازال طليقًا

لم يذق مُرَّ العذابْ...

فنقلناه إلى السجنِ

وعادَ الجيشُ بالنصر المُهابْ

أتساءل هنا:

أين حقوق الطفل الفلسطيني؟! أليس له الحق بأن يعيش حرًّا كريمًا؟!

وكيف يُطارَد هذا الطفل من قوات مدجَّجة بالسلاح ؟! ولماذا يُطارَد ؟ ولماذا يُسجَن ؟!

وإذا كان هناك من قصيدة يمكن أن نطلق عليها القصيدة المتلفزة، فإن هذه القصيدة تمثل هذا الموقف، فالشاعر لم يتخيّل، وإنما يتفاعل مع الحدث، والواقع، وينقله إلينا بأمانة وصدق، أو بمعنى آخر يحوّل الماضي وإرهاصاته، بين يدي طفل بحجر ومقلاع، من أجل غدٍ ربما يكون أكثر إشراقًا.

طفل، جيش، حجر، مقلاع، رصاصة، وتكسير عظام، وبعد كرٍّ وفرٍّ ألقت القبض على قائد المنتفضين، وإذا به في السابعة من عمره، وهذه هي الصورة الجديدة في الشعر الفلسطيني والعربي في زمن عزّ فيه الكثير مما يجب أن يكون عليه الحال.

لكن لماذا كان الطفل هو البطل الحقيقي في معركة الانتفاضة ؟ إن هناك الكثير من الأسباب، لكنها تتمثل في بوتقة واحدة، وهي رفض أطفال فلسطين الذين ولدوا في زمن الاحتلال الإسرائيلي لهذا الاحتلال، حتى تصل حلقة الرفض إلى الكبار والشيوخ، وصولاً لتبليغ رسالة الضمير والإنسانية إلى العالم، بأن هناك أطفالا يتعرضون للموت لأنهم يدافعون عن أوطانهم، فما موقفكم من ذلك؟

وإذا كانت الصورة التلفزيونية فيها حركة، فاستخدم الأفعال لتتوازى مع وقع المطاردة والسجن " طاردت ـ قتلت ـ ألقت ـ لم يذق ـ نقلناه ـ وعاد" هذا ساعد على تنمية الحدث داخل النص، وأبعده عن البطء، وألزمه أيضًا عدم الابتعاد عن

المشهد، لأن الصورة المرئية أقوى من الصورة الخيالية في هذا الموقف.

وبعد فترة يخرج علينا المذيع بخبرٍ جديد يظهر قدراته وإمكانياته في مواجهة الأطفال، فالصورة الأولى حقق النصر بعد اعتقاله، وسجنه الأطفال !، والصورة التالية تقول:

سيداتي! آنساتي! سادتي!!
حين دقّتْ ساعةُ الصِّفرِ التي تدعو
لتسديدِ الحسابْ
هاجمتْ قواتنا في الليل " أوكارَ الذئابْ "
ففقأت أعينَ ستهِ...
قتلت بعضَ "الكلابْ"
ثم عاد الجيش بالنسوة مبهورًا بنصرٍ واستلابْ
فنقلناهنَّ إلى السِّجنِ
وقد أضحى الدّم المسفوحُ منهنّ خضابْ...

لقد أبرز الشاعر أسلوب القمع الهمجي الذي يستخدمه الجنود ضد أطفال فلسطين، ففقأت الأعين، وقتلت البعض، واعتقلت بعض الفتيات، وكأنه حقق النصر العظيم.

الأسلوب الذي يستخدمه الشاعر في هذا المقام، أقرب إلى تحقير الذات العسكرية الإسرائيلية من خلال تصرفاتهم، وكيف

يشعرون بنشوة النصر عندما يحققون بعض "الانتصارات" على الأطفال، ولكن هل الصورة انتهت؟...

وبعد لحظات يخرج علينا المذيع الإسرائيلي ليعرض علينا موقفًا جديدًا، أو مشهدًا مأساويًا جديدًا :

سيداتي! آنساتي! سادتي!!
خرج الشعبُ إلى الساحات سيْلاً
غاضبًا... كالبحر إنْ ثار العُبابْ
لا ترى قواتنا إلا صخورًا وزجاجًا وحرابْ
حصدت قواتنا سبعةَ أفرادٍ وعادتْ
تحملُ الأسرى إلى التحقيقِ يتلوه العذابْ....

يتضمن خروج الشعب إلى الساحات ليعلن الرفض، ويواجه الاحتلال الصهيوني، فكان الردُّ قاسيًا وعنيفًا، فقتلت القوات سبعة من أفراد هذا الشعب، عمليةُ الإبادة هذه تظهر سلوك الجيش الإسرائيلي في قمع الانتفاضة، والمذيع لا يجد حرجًا في إذاعة خبر القتل والاعتقال، وكأنه يتباهى بذلك، أو يقوي من معنويات الجيش التي أخذت تتململ من مقاومة الأطفال.

ولم يكتفِ المذيع بنقل هذا الخبر، بل أردف قائلاً، بأننا اعتقلنا منهم الكثير، ومارسنا التعذيب عليهم. ونقف هنا مع الظلم الذي يتنامى داخل النص عندما ينقلنا الشاعر من فكرة إلى أخرى،

مستعينًا بألوان شتى من أساليب التعذيب، مستندًا على موسوعيته المعجميّة المتميزة.

وبعد لحظات، إذ بالمذيع يعود إلينا مرة أخرى، يحمل إلينا نبًأ جديدًا:

سيداتي! آنساتي! سادتي!!
أصدرَ القائدُ أمرًا لا يُعابْ :
اجمَعوا كلَّ الشبابْ،
انسِفوا أوكارَهم بيتًا.. فبيتًا.. واجعلوا منها خرابْ..
شرّدوا أطفالهم... لا ترحموهم، شرذموهم بين أرضٍ وسحابْ
نحن شيَّدْنا الزنازين لهم فوق الصحاري في اليبابْ
فامنعوا عنهم طعامًا وشرابْ
غرفُ التحقيق تدعوهم، فمن يدخلها لا يرتجي منها الإيابْ...

هذه اللوحة التي ساقها الشاعر تكرَّرت زمن الانتفاضة في كل المدن الفلسطينية، فبعد القتل الفردي والجماعي، تبدأ رحلة الاعتقال الجماعي بناءً على أوامر القيادة، ومن ثمّ يتبعها نسفٌ لمنازلهم، وسجنُ الآخرين ونفيٌ لأصحابها خارج الوطن، فبالإضافة إلى إظهار أساليب القمع، يريد أن يبرز "إرهاب الدولة" أي أن الدولة هي المسئولة.

ولا نبالغ كثيرًا إذا اعتبرنا أن هذا اللون من الشعر تحوَّل من مجرد لوحات وطنية إلى قصائد سياسية من النمط العالي.
الوطنية كما نعلم هي التي تتناول قضايا تتعلق بالمواطن والأرض والعشق للوطن، ولكن إذا كان الأمر متعلقًا بالاحتلال أو بممارسات لا إنسانية فإنه يخرج إلى النمط السياسي.

لنقفْ هنا على الأفعال التي ساقها الشاعر " اجمعوا، انسفوا، اجعلوا، شرّدوا، لا ترحموا، شرذموا، امنعوا " وجميعها تتصل بأساليب العدو ضد أبناء فلسطين، وظَّفها الشاعر من خلال انعكاس المرئي وتفاعله مع الشاعر، ليبرز الصورة بشكل دقيق.

وإلى جانب الموضوعية المتميزة في تلك الأسطر، رافقتها موسيقى انفعالية متنوعة جاءت من خلال الأفعال المختلفة المعنى، والمتساوية في الدفقات الشعورية، ليهدف من ورائها خلق موازنة بين الحالة الانفعالية التي يعيشها الشاعر مع الواقع.

أسلوب المباشرة الذي استخدمه الشاعر في نقل تجربته مبتعدًا عن الرموز، يجعلنا نستنتج من وراء هذا، بأن الشاعر صريح جدًّا، ولا يواري الحقائق خلف ألفاظ معجمية مفصحة، حتى لا يحمّل اللفظ أكثر من معناه الذي ساقه، لأن اللفظ ذاته كافٍ لأداء الغرض ومن خلاله يحرِّك المشاعر.

ويتابع الشاعر نقل وقائع الحدث على لسان المذيع في رسالة إخبارية جديدة:

سيداتي! آنساتي! سادتي!!
جاءني هذا الكتابْ
أصدرَ القائدُ أمرًا عاجلاً، والأمرُ فورًا يُستجابْ:
كسِّروا السيقانَ والأطرافَ بل دُقّوا الرقابْ
هشِّموا عظمَ الجماجمْ
طاردوهم...
واتركوهم جيفًا تلعقُ من هذا الترابْ.

الأمر الذي صدر، تمَّ تنفيذه بأسرع من البرق، فقد رأينا على شاشات التلفاز كيف تم تنفيذه وبدقة متناهية، ورأى العالم أجمع هذا الأمر كيف مورس على الشباب الفلسطيني من الجنود "البواسل"، ولقد كان الهدف من تكسير العظام والأطراف، وتهشيم الجماجم، الحدّ من الانتفاضة، ولابد من تكسيرها حتى لا تلقي الحجارة، وكذلك الأرجل حتى لا تستطيع الحركة، فنحن أمام أمر لا إنسانيّ يصدر من قائد عسكري لا ينتمي إلى الإنسانية البتة.

توالت هنا صور الأساليب القمعيّة التي يستخدمها العدو، ولكن هل حدّ هذا من استمراريتها؟.. كل الدلائل تشير إلى أن صاحب

الحق لا يمكنه أن ينام وأرضه مغتصبة، وهذا ما حدث، وسيبقى إلى أن تتحرر الأرض.

وننتقل إلى صورة أخرى:

سيداتي! آنساتي! سادتي!!
داهمتْ قواتنا بالأمس وكرًا بعد ساعات الغيابْ
واستمرتْ حملةُ التنظيف حتى مزّقَ النورُ الحجابْ
صرّح الناطقُ – والناطقُ ذو رشدٍ ومن أهل الصوابْ
قالَ: إن الأمن أضحى مستتبًا في الحواري
والبراري والشعابْ

....

....

جيشنا
ألغى مراسيمَ الجنازاتِ وأخفى جثثَ القتلى
فما يُجدي إذا صلى عليها الأهلُ أو بعضُ الصحابْ ؟؟

لوحة ذكرتني تمامًا بما شاهدته في مدينتي " خان يونس " بتفاصيلها ودقائقها، وأبعادها، حيث داهمت قوات الاحتلال منزل أحد المقاتلين منذ الساعة الثامنة مساءً، وحتى الساعة الرابعة فجرًا، وكانت محصلة المواجهة، الشهيد الوحيد الذي

فرغ منه الرصاص، وبعد الوصول إليه، لم يتركوا جزءًا من جسده إلا وأعملوا فيه الرصاص، وقد شارك في العملية قرابة المائة جندي بمختلف الأسلحة اليدوية، وقتل لهم جنديان، وجُرح آخرون، وبعد العملية قامت القوات الإسرائيلية بحملة اعتقالات واسعة خوفًا من تزايد حدّة الغضب، إذن فنحن أمام صورة متكررة وواقعية، في كل المدن الفلسطينية، لنجد أن الخوف لا يقتصر من الأحياء،بل من الشهداء، وهذا ما رأيناه في تلك المواجهة.

سيداتي؛ آنساتي؛ سادتي؛؛
هاجمتني.. أكلتْ مني لساني
ملأتْ عينيَّ أسرابُ الذبابْ
ربما أخطأتُ في الصّرف...وفي النحوِ
وأرقامِ الحسابْ
نشرةٌ قادمةٌ ينقلها أيضًا غرابْ.....

إن أهم ما تتميز به القصيدة اعتماد الشاعر على اللوحات الشعرية كما هو الحال في الشعر المهجري، وإن اختلف البناء الخارجي للنص، مع التنويع في البناء الفني والعاطفي، من أجل إظهار التأثير المطلوب.

ونقف مع أجزاء من قصيدة للشاعر، حيث أعتقل جزءٌ منها عندما تمَّ اعتقاله، وهي بعنوان "مشاريع الخناجر":

في عالم الشهداءِ كانت لي زيارهْ
ناديتُ أطفالَ الحجارهْ
رفّتْ عصافيرُ الطفولةِ كالملائكةِ التي حطت على
باب المغارهْ
جاؤوا كأسرابِ الحمام براءةً تنضو طهارهْ
جاؤوا حقائبُهم على أكتافهم
وقلوبُهم ملأى حرارهْ

ودماؤهم
فوق المرابيل التي ما جفَّ بوحُ أريجها عطرًا
ولا عدِمَتْ نضارهْ
طفلٌ يقبلني... ويسألني
فتحرقني المرارهْ
ويعودُ يسألني إذا بَعثتْ
معلمةُ الرياض له الدفاترَ والسكاكرَ والمساطرَ
أو "علامات الشطاره"

لا نقول بأن الشاعر يعيش الخيالات، ولكن لننظر إليه كيف تفتق ذهنه عن هذا التواصل مع شهداء الحجارة، إنه لا يريدنا أن ننساهم، بل يريد أن نخلدهم من أجل أن يرسموا الطريق للأجيال القادمة، هذه اللوحة الواقعية تبرز شفافية الشاعر، وعمق المأساة في آن واحد، فمشاعر الأسى تكمن في كونهم أطفالاً، ومازالوا يدرسون في رياض للأطفال، فهذه مراييلهم مازالت مخضبة بالدماء، وعيونهم ترنو للغد.

وهكذا يتضح لنا من تتبع الصور التي ساقها الشاعر، وإن كانت تحمل روح الخيال، القيمة الحقيقية لهذا اللون من الشعر، خاصة وأن الفكرة التي أبرزها الشاعر متميزة في تناولها، وعرضها والتنسيق في تكوين التجربة،من خلال اعتماده على بنية فكرية مترابطة، مما عكس بنية النص الفنية، إضافة لما حملته من قيم إيحائية عالية، ترتبط بالانفعال الشعري.

وتتفاعل المأساة في وجدان الشاعر، فيظهر من بين الشهداء الذين ذهب إليهم، طفل يحمل الرصاصات التي أطلقت عليه كذكرى لمن يتبجحون بأنهم حضاريون في معاملاتهم:

ويجيء طفلٌ حاملاً في جيبه - ذكرى-

رصاصاتِ الحضارهْ...

يدنو.. يُقَبِّلُني ويسألني إذا ما حمَّلتني

أمُّهُ قُبَلاً ويسأل كيفَ حالُ الأهلِ
والأصحابِ... والأحبابِ
يسألُ عن سلامةِ كل زاويةٍ وحارهْ
وبأنه يشتاقُ للحضن الذي
يعطيه دفئًا.. وحليبًا.. وحنانًا بغزارهْ

الخيوط التي رسمها الشاعر، وربطها برباط الوطن، تغلق أمامنا أبواب الاستسلام، فمن خلال الموجات الرومانسية الثورية التي ساقها، تعبيرًا عن الرفض والانتماء على السواء، رفضٌ للواقع الذي يحمل الدم والرصاص، وانتماءٌ للوطن والأرض، والشوارع، فأراد الشاعر من خلال هذا الربط المتنامي أن يخلق صورًا جديدة، مستعينًا بالواقع، وإن كان الواقع لم يكوّن إلا جزءًا بسيطًا في بنية الصورة، فكان اعتماده التامّ على المشاعر، والأحاسيس،فأبدع صورًا من صور، وهذا هو الإبداع والكشف، فحملت الصورة كثيرًا من الدلالات والإيحاءات.

هذا الطفل يمثل الكبرياء والشموخ، ويمثل وجدان الشاعر وعقله الباطني، ونقف هنا على مقطع صغير، لكنه يحمل الكثير من المعاني ذات الإبعاد الثورية، فماذا يقول الشاعر في هذا المقام:

قبّلتهُم

ودَّعْتُهُم

وعرفتها..سُبُلَ الفداءِ

تعيدُ للوطنِ اخضرارَهْ

الصورة التي رسمها الشاعر من الصور الوجدانية التي تنتمي إلى عالم الداخل، من أجل الحياة، والتضحية والفداء، بمعنى أنه يسوق إلينا أسلوبًا من أساليب النضال الذي يجب السير عليه، ونقف على المقطع الأخير من القصيدة المعتقلة:

شحذتْ نواجذها المقابرْ

ثقبُ الرصاصِ غدا سداسيًا

بصدر النرجس المغدور... في الجرح المكابرْ

ظمأ الدماءِ إلى الحياةِ على يراعةِ كلِّ شاعرْ

في خالقِ العملِ المظفرِ...

في مشاريع الخناجرْ

لقد تحوَّل الجسد الذي أطلق عليه الرصاص إلى أشكال سداسية تشبه النجمة التي يضعونها على العلم، وهذه الملاحظة التي ساقها الشاعر تحمل رسالة إدانة صريحة إلى الصهاينة، وتخرجهم من خلف الغلاف الذي يختفون وراءه.

ولقد استطاع الشاعر من خلال هذا الخيال الواقعي خلقَ بناء لغوي فني موضوعي، يستمد مكوناته من عناصر الصورة، مستعينًا بالواقع الخارجي، وإن كان التأثير النفسي على الصورة أكثر من الواقع الخارجي، وهذا راجع إلى الانفعالات التي صاحبت هذا الخيال الواقعي.

• • •

ونقف على قصيدة أخرى ننقل أجزاء منها بعنوان " عمر والذئاب" يقول:

خبرٌ... خبرْ

خبرٌ....خبرْ

كالرّعدِ دوَّى وانتشرْ

هُرعَ الرجالُ مُقَنَّعينَ... مُلَثَّمينَ

وراءَ قطعانِ الذئابِ

على حذرْ

صورة التكرار جاءت هنا في مكانها، لتتناسب مع نقل الخبر، نابع من تفاعل الشاعر تمامًا مع التجربة، وقد بعث الإلحاح بالتكرار روحًا متوقدة لدى الشباب، فالجميع استعد للمواجهة دون خوف أو وجل، وهذا يسوقنا إلى إبراز روح الحماس عند

أبناء فلسطين لمقاومة المحتل، "الذئاب"، وهو حافز على المواجهة والتحدي، لينقلنا الشاعر بعد إعلان الخبر لما سيحدث بعد ذلك:

سَدّوا المساجدَ والمعاهدَ
والكنائسَ والمدارسَ
صادروا ضوءَ القمرْ
ذئبٌ يهاجم روضةَ الأطفالِ
ينهشُ لحمَهم
والويلُ من ذئب كَسَرْ
ذئبٌ على كتفيهِ صاروخٌ
وذئبٌ بندقيتة توزّع من رصاصِ الموتِ
أنواعَ الصورْ
فسلاحُهم
فقأ العيونَ.. وحطم الأطرافَ
وامتلأت بقتلانا الحُفرْ
فاهتزّ في الأرض الحجرْ
قفزَ الحجرْ
صاحَ الحجرْ
خذني سلاحَكَ
إن سرَّ الله موضوعٌ بأوهى من حجرْ

إن أول ما نلاحظه بعد قراءة لتلك الأسطر الواقعية التي جعلت الحجر ينطق، وهذا هو الزمان الذي أنطق الحجر، ولو ذكر الشاعر مبررًا واحدًا لكفى، فكيف به يسوق صورًا مسَّت الديانات والحياة وأزهقت الأرواح، وامتلأت القبور بأجساد الأبرياء من الأطفال والشيوخ، والنساء، فربما يكون للحجر تأثيرٌ أقوى من الأسلحة التي يحملونها.

اعتمد الشاعر في نقل الصور الكثيرة التي تضمنها كل سطر، على الدفقات الشعرية البسيطة لتتناسب مع وقع الخبر، فالأمر لا يحتاج إلى إطالة وإسهاب، بل يحتاج إلى نقلات سريعة، فكانت الأفعال لتتناسب مع الحدث.

ولو تتبعنا لفظة "الحجر" في الأسطر السابقة لوجدنا أنه البطل الحقيقي فيها، فقد تكرر مرَّات عديدة، من خلال التجسيد المتميز الذي أبرزه، فتارة اهتز، وتارة قفز، وتارة أخرى صاح، ورابعة خذني، وجميعها جاءت لتبرز القيمة الحقيقية للحجر، في محاولة إلى إعادة سيرته الأولى، وهذا يذكرنا بأبرهة الحبشي عندما أراد هدم الكعبة، فكانت الحجارة من سجيل.

وننتقل إلى المقطع الأخير من القصيدة التي اعتقل منها الكثير، وما هذه الأسطر إلا ما تبقى في الذاكرة:

خطرٌ... خطرْ

خطرٌ... خطرْ

صاح الشبابُ

تجمعوا.. نقلوا مواقعَهم كعاصفةٍ تزمجرُ

بالبروقِ

وبالرعودِ

وبالمطرْ

في الشارع الخلفيّ

مجموعاتهم نصبتْ حواجزَ من إطاراتٍ مؤجَّجةٍ

وأكوامِ الحجرْ

سدّتْ على بعض الذئاب الدربَ

فانفجرتْ تراوغهم.. فتعوي

من لهيب النفط يشويها

فتبحثُ عن مفرّ...

شريطٌ من الصور متصلٌ ببعضه البعض يظهر إلينا صورة ما يجري، وربما البعض يقول بأن الشاعر يعكس الواقع كما هو، ولكن نقول بأن الشاعر أضاف إلى مهنته مهنة أخرى، وهي تأريخ الواقع شعرًا، وما نقله الواقع بعد تحويله إلى لغة منطوقة، إنما ليعبِّر عن صور الصراع المختلفة مع العدو،

ويبرز صورة التلاحم بين أبناء الوطن الواحد ضد السلطة العسكرية الإسرائيلية، فنحن مع شاعر يستخدم حواسَّه جميعها في إبراز الصورة، وموظفًا مشاعره لخدمة العمل الفني الذي يبدعه، مستعينًا بالموسيقى باعتبارها عاملاً مؤثرًا من عوامل التأثير الجمالي والنفسي، وكذلك البنية الفنية للنص، فتتناسب الحروف مع الانفعالات، والكلمات مع الأحاسيس، والنص مع التموجات الانفعالية.

ثم يعرض إلينا الشاعر كيف تكون المواجهة :

ضربوا على الفارّين طوقًا من سعيرٍ... من شررْ
فأصابَ قطعانَ الذئابِ الخوفُ
والهلعُ المحنظلُ والخوَرْ
هبّ الرصاصُ يمزق اللحمَ المباحَ
لمن طغى...
ولمن كفرْ....

الذي يبرز لنا في هذا المقام بأن الشاعر ابتعد عن لغة الخوف والبكاء، واستند فيما يقول على ما يراه من أبناء شعبه، على التحدي والمواجهة، ومن هنا يمكننا القول بأن هذا الشعر، أو الشعر المعاصر بعامة نفض عنه لباس الخوف والعويل، إلى

لغة جديدة تتناسب مع المرحلة، لأنه لم يجد في تلك اللغة ما يرجع الأوطان، ومن هنا كان اعتمادُ الشاعر إبراز كيف دبَّ الخوَر في الجنود، أما الشعب فقد تصدى للرصاص فسقط عمر برصاص الذئاب:

بعد الظهيرة عاد أبطالُ الحجارةِ

يحملون النصرَ في موتِ عمَرْ.........

لم يكن الشاعر خياليًا، ولا يريد أن يبرز موقفًا دراميًا، بقدر ما يريد فعلاً أن يبرز الواقع بصورته الحقيقية، وبالتالي يعكس مشاعر الناس جميعهم، من خلال استشهاد "عمر"....

وربما تكون القصيدة التالية واحدة من القصائد التي كانت السبب في معاناته الجسدية وتقييد حريته من خلال السجن والإقامة الجبرية داخل منزله، يقول: (إلى الرقيب العسكري الذي يحاول خنق كلمتي بعدم إجازة نشرها) وهي بعنوان "حرفي ... والرّقابة":

عجبًا : لأمركِ يا رقابه !!

صوتي يُحاصَرُ خلف حنجرتي

يطارَدُ مثل عصفورٍ على أشجار غابه

ما كان حرفي ذات يومٍ يا رقابةُ كالذبابة

حرفي وديعٌ كالخرافِ على ميادينيِ نقيّ

كابتهالات الربابة

حرفي نظيفٌ كالسحابة

لكنه سيظل عزمًا كالرصاصةِ

ذائدًا عن حوضهِ يحمي رحابَه

لغة الشاعر عزم متوقد، يستخدمها في الدفاع عن ذاته ووجوده وكينونته كإنسان، مستعينًا بالتشبيهات لإبراز تأثير الصورة ووقعها على النفس، ورغم أن الشاعر يعيش حالة من الصراع النفسي، إلا أنه لم ينس أن يوظف الكلمة التوظيف الأمثل ومن ثمّ حشده لكثير من المعاني ذات الدلالات النفسية البعيدة الأثر في النفس، فهو لا يسوق لنا تجربة ذاتية فقط، وإنما أخرجها عن دائرتها إلى العامية، فالموقف رغم انتمائه للشاعر إلا أنه يمكن أن يتكرر مع غيره، وبالتالي يسوق لنا تجربته التي من الممكن أن تنسحب على الآخرين.

أسمعتَ يومًا عن عصابة ؟؟

تخشى الحروفَ تخيفها لغةُ الخطابة ؟؟

فالحرفُ

مهما قيّدوهُ... وعذبوهُ

يظلُّ يستمري عذابَه..

ويظل غيمًا مثقلاً بالبرقِ
والغضبِ المؤججِ
فالشتاءُ يدقّ بابَه
ويظلُّ سفودًا بعينيْ ظالمٍ
ويردُّ للباغي حسابه

ليس عجبًا أن يكون للحرف تأثيرُه الأكبرُ من الرصاصة، فالرصاصة تقتل، ولكن الحرف ينتقل من إنسان إلى آخر، وبه تفتح أشرعة للنضال، فكم من قصيدة قيلت داخل المعتقلات وكان لها تأثير كبير في تأجيج مشاعر النقمة للمحتل، وكم من شهيد أقدم على الشهادة منفردًا، وهنا يحضرني قول أحد القادة العسكريين الكبار قوله: لو أن كل فلسطيني قرأ قصيدة فدوى طوقان " آهات أمام شباك التصاريح لأنبت سبعة مقاتلين "، ولكن إذا استطاعوا اعتقال الجسد، فإنهم لن يستطيعوا اعتقال الفكر، وما إبرازه لهذا الموقف من أجل إظهار موقف بطولي ضد القوات الإسرائيلية، بقدر ما يريد أن يكشف زيف حقيقتهم التي يتبجحون بها أمام العالم، بأنهم دولة "الديمقراطية".. ولكن هل استسلم شاعرنا لمثل هذه المحاولات؟

عجبًا لحاكِمنا؟!
يخافُ النورَ.. يفقدُ ذاتهُ في الشمسِ

يُعييهِ التساؤلُ و الإجابة

عجبًا !!

إذا غنيته شعرًا

أصابته الكآبة

وأضاع عند حدود مملكتي صوابَه

شعري...

يثير جنونَ حاكمِنا

فيستعدي على حرفي كلابه

وكلابُ حاكمِنا : رَقابه

وكلابُ حاكمِنا : رَقابه

وإذا كان الشعر اعترافًا وتعبيرًا عن خلجات النفس، فإنه يعايشنا تجربته التي خاضها مع الرقيب والحاكم، كواحدة من تجاربه المتعددة، وقد رأيناه كيف أخرج مخزون الحقد من خلال اغتيال الكلمة على يد هذا الرقيب.

هذا اللون من القصائد السياسية يحمل في مضامينه معاني ودلالات كبيرة تخرج من دائرتها التي ذكرها الشاعر، إلى دائرة الاضطهاد الفكري، وتحجيم دور العقل، وصياغته بما يريد الرقيب فقط، وهذا يبرز بجلاء كيف يعامل الصهاينة المثقفين والمفكرين من أبناء الشعب الفلسطيني.

وقد تناول الشاعر في الجزء الأول من كتابه "في قفص الاتهام" وعلى مدى مائة صفحة؛ الأوامر التي صدرت باعتقاله، وما صحبها من قرارات ومرافعات ومداولات ومحاكمات، أمَّا الجزء الأخير من الكتاب الديوان، فقد ضمّ ست قصائد للشاعر قالها في معتقل "الجلمة" في١٥-٦-١٩٩٠، وقصائد أخرى تضامنية لكل من د. جمال قعوار، وادمون شحاده، وعطالله جبر، وسهيل سليم محاميد، وسامر خير، وأرفق مقالتين لكل من الكاتبة المصرية "فريدة النقاش" التي تمثل وجهًا وطنيًا مصريًا مشرّفًا في كتاباتها ومنهجها وفكرها وسلوكها، وللكاتبة "رجاء بكريه" مقالتان تظهران تضامنها مع الشاعر.

أما القصيدة الخامسة يقول فيها:

أيها الحرفُ الذي أعطى علومًا وشموسًا

ونجومًا حين أزهرْ

أيها الحرفُ الذي أصبحتَ في عصر الزنى

الدوليّ خنجرْ

طاردوني، أخذوني من صغاري

لم أقبّلهم وما أعطيتهم قبل وَداعي لعبةً،

قطعةَ سكرْ

فتشوا بيتي، ثيابي، كلَّ سفرٍ كلَّ دفترْ

قلبوا الدنيا ، يريدون دليلاً
والدليلُ المرتجى في الصدر عشقٌ يتفجّرْ
عاشقًا أرضي سأبقى
عاشقًا أهلي سأبقى
لستُ أكْسَرْ
لستُ أكسرْ

• • • • •

أيها "الحلاّج " هل تسمعُ صوتًا ليس
يُقهرْ ؟؟
أيها "الحلاج" أدعوك من التنين
فاسمع قصّةَ الضوءِ المكسَّرْ
من بلاد اللبنِ الأسودِ والشهدِ الذي
أصبح مُرًّا وتخثرْ

• • • • •

وضعوا السلاسل في يديّا ،
أخذوهما نظارتيّا
قالوا : إلى التحقيق وانهالوا بطوفانٍ
عليّا ..... !!

.....

أدخِلتُ في قفصٍ بحجمِ حذاء جنديٍّ
مُضامْ
من كوّةٍ في الباب يأتينا الطعامْ
من يأكلُ الخبزَ المُقدَّدَ والمُغمَّسَ
بالرّغامْ ؟؟
ما زار عينيَّ الكرى
فالنسرُ في قفصٍ حديديٍّ ينامْ

في الأرض ثقبٌ، منه تأتينا الروائحُ
والمكارهُ والزكامْ
شكرًا لأجهزة الظلامْ
شكرًا لأجهزة الظلامْ

.....

لم تكن حريةُ التعبير في ليل الخنا
إلا سرابًا يتموّرْ
أيها الحلمُ المبعثرْ
طِرْ إلى قلبي فعُشُّ القلبِ أخضرْ...

هذه خمس قصائد للشاعر أوردناها لنقف على أربع حقائق:

- الأولى : تتمثل في إظهار أساليب كبت الحريات في بلد "الديمقراطية".

- والثانية : إبراز التفكير الضحل للسلطة الحاكمة التي تجعلهم يعتقلون الكلمة لخوفهم منها.

- أما الثالثة : لنبرز كيف مورست أساليبُ القمع التعسفيّ على شاعرنا.

- والأخيرة : التحدي والمواجهة والنصر.

وتعتبر هذه القصائدُ - بالفعل - صرخاتٍ مُدَوِّيَةً غيرَ مستسلمة، ولا خائفة، متحديةً غيرَ مستكينة، لا يعرف الهوان طريقه إلى معانيها، وإنما تتمثل فيها القوة رغم بساطة عرضها وهذا راجع إلى الصِّدق الذي يكتنف كل ألفاظ النص.

❖ ❖ ❖

وننتقل بعد ذلك إلى دراسة أخرى للشاعر، ومن خلالها نسلط الضوء على قصيدة واحدة من كل ديوان، من دواوينه التي صدرت حتى الآن، مخالفين المنهج الذي سرنا عليه من البداية، لنتتبع صورة الشاعر ومنهجه وتفكيره وانتماءه الوطني لكل الأرض الفلسطينية...

ومن ديوان "مأساة القرن الضِّليل" نقف على قصيدة بعنوان "أغنية لبلادي" ألقاها الشاعر في مؤتمر الدفاع عن الأرض الذي انعقد في مدينة سخنين في ١٤-٢-١٩٧٦ (تمهيدًا ليوم الأرض في ٣٠-٣-١٩٧٦) :

أغفو على اسمكِ يا بلادي	وأضمُّ حبّكِ في فؤادي
إني أحبُّكِ في دمي	قدَرًا يعزِّزُ بي عنادي
أهفو أقبِّلُ كلَّ شبرٍ	في السهول وفي الوهادِ
أشتاقُ أن أنهلَّ ماءً	يرتوي بيَ كلُّ صادِ
أو أن أكونَ النورَ يغـ	ـسلُ وجهَ أرضي من فسادِ
لو كنت عصفورًا يحوِّمُ	يرتمي في ظلِّ وادِ
لعشقتُ أزهارَ الجـ	ـليلِ تضوعُ من أعطافِ شادِ

تتجلى الرومانسية في الأبيات السابقة بكل معانيها، ممزوجة بوطنية الشاعر، فهو يعبِّر عن حبِّه لوطنه، مستعينًا بالطبيعة كعادة الرومانسيين في هذا المقام، وهذا الحب الذي أظهره

خلف الصيغ الفعلية ناتج عن وحشة الغربة التي يشعر بأنه سيعيشها نتيجة مصادرة الأراضي الفلسطينية وتهويدها. ولننظر إليه في الألفاظ التي ساقها مع إيحاءاتها " أغفو، أحبّك، أهفو، أشتاق، أعشق" هذا التزاحم في اللفظ فرَضَه الواقع، ولم يكن للشاعر دخل فيه، وإنما تحركت في داخله مشاعر الوجد والحنين، لتصوغ لنا ما يختلج في صدره، وقد ذهب به خياله إلى أبعد ما يمكن أن يتصور، لقد تمنى أن يكون عصفورًا ليتنقل بين أغصان الجليل، ولكنه لم يعلم بأنه لو تحقق له ذلك، فلن يستطع، لأنهم يقتلون الحياة في الحياة.

زيتونتي افتقدتْ حبيبًا	ضاعَ في ليل السوادِ
والبرتقالُ يموتُ حزنًا	يلعنُ القدَرَ الرمادي
واشتاقَ بَيدرُنا لمن	جلبوا غِلالاً من حصادِ
سُمّارُهُ أصواتهم	في سَمْعِ قريتِنا تنادي
لم أنسَهم يا ريحُ رغمَ	الدمع والدّمِ والبعادِ
غدُهم هناك يلفُّهُ	الآتي بأثواب الحدادِ
سكنوا دمي، من خافقي	أعطيتهم دفءَ المِهادِ
لا ارتحْتَ يا جفني! أحتضنهم	في المنامِ و في السُّهادِ
ما للضمير كعاهرٍ	داسَت نواميسَ الرّشادِ
يُشرى يُباعُ كمومسٍ	جَوّالةٍ بين الأيادي
بئسَ الضميرُ إذا بغى	وإذا ارتضى حكمَ الزنادِ

لقد اتخذ الشاعر من خلال الحنين إلى الأرض، وما تنبته فيها، مبعثًا للتحدي وعدم الاستسلام، فحذَر من التفريط بها، والتنازل عن شبر واحد منها، فالرِّضى بحكم الدخلاء، كمن يرضى بالتنازل عن عرض، وهل فينا من يقبل ذلك؟.

هذه اللغة التي استخدمها الشاعر، تناولها شعراء المهجر، من خلال الحنين إلى الأوطان، ولكن الفارق هنا يكمن في أنهم هاجروا لأسباب شخصية، أما الشاعر فإن هجرته روحية، وهي أخطر من السابقة، لهذا ركز الشاعر على عدم التفريط بها.

ويتابع الشاعر إبراز حبِّه وحنينه إلى الوطن من خلال الجزء الأخير من القصيدة:

أغفـو علـى اسمـكِ يـا بـلادي　　وأضـمُّ رسمـكِ في فـؤادي
أنـا مـن جليلـكِ خنجـرٌ　　يرتـاحُ في صـدر العـوادي
أنـا شـوكةُ الصُّـبار تـدْ　　مـي حلـقَ مـن يبغـي ازدرادي
شـفتايَ باسمـكِ تلـهجا　　نِ كعاشـقٍ في كـل نـادِ
وعلـى هُـدى الأجـدادِ سِـرْتُ　　أحـبّ أرضـي صِـنوَ ضـادي
هـذا السّـوادُ غبـارُ صـيفٍ　　في جـبينِ الشـمسِ بـادِ
يـا أيهـا الإعصـارُ منـكَ　　عقيـدتي وبـك اعتقـادي
سَلِّمْ عليهم عبْرَ خـط الشـ　　ـوكِ شُـدَّ علـى الأيـادي
فغـدا خيـولُ الفجـر تمسـحُ　　كـلَّ جـرحٍ يـا بـلادي!

ربما يكون للموسيقى دورٌ كبيرٌ في الوقوف على الألفاظ التي ساقها الشاعر للتعبير عن الفكرة، ولِمَ لا وللموسيقى دورٌ أساسيٌّ في بنية الكلمة، وإظهار الانفعالات الكامنة داخل نفس الشاعر، ومن خلالها تبرز الكلمات التي تمنح القصيدة بُعدها المطلوب، وإذا حاولنا في هذا المقام استقراء الجزء السابق، والنص، فإننا نجد اعتماد الشاعر على الألفاظ ذات الخصائص الصوتية التي تتناسب مع حالة اللاوعي التي يعيشها الشاعر، ومن هذه الوسائل أيضًا، اعتماده على التنويع الصوتي في إبراز الفكرة، ما بين تقريري، وانفعالي، وندائي، وخبري.

إذن نحن أمام شاعر ينتقي برغم حالة اللاوعي- ألفاظه لتناسبَ الموسيقى والحدث، ولو تتبعنا النص تمحيصًا، فسنجد الشاعر قد ربط الحنين للوطن برباط التحدي والمواجهة.

• • •

أما ديوان "دروب ملتهبة" فنقف على قصيدة بعنوان "رسالة إلى شهداء يوم الأرض" حيث يستخدم الشاعر قافية "الدال" وهذا الحرف يُعتبر من الأصوات الانفجارية، والقصيدة بكاملها انفجاراتٌ من الدماء، وثوراتٌ داخلية ناتجة عن إرهاصات متراكمة عبر رحلة من العذابات، ومازالت.

الصورة التي ينقلها لنا الشاعر واقعية مستمدة من ميدان المعركة، حيث بدأت رحلة التصدي التي نادى بها الشاعر في القصيدة السابقة، من أجل الأرض، وهل هناك أغلى من الأرض!، وتحتاج إلى التضحيات والدماء:

هـــذي دمـــاؤكَ يـــا شـــهيدي تســـمو منـــائرَ في وجـــودي
مـــن كـــل قطـــرةِ عَنـــدَمٍ لمعـــت ســـيوفُ ابـــن الوليـــدِ
مـــا أطهـــرَ الـــدَّمَ حـــين يُسْـــ ـــفكُ في الـــدفاع وفي الصّـــمودِ
مـــا مـــاتَ أبنـــاءُ الجليـــل بـــل اســـتكانوا في الخلـــودِ
مـــا مـــات شـــعبٌ شـــامخٌ أقـــوى مـــن القـــدَرِ العنيـــدِ
شـــعبٌ يخـــالُ المَـــوتَ عُرْسًـــا في الـــدفاع عـــن الوجـــودِ

كما نرى فلقد اتخذ الشاعر - كغيره من الشعراء- من الموت خلودًا، ومن الدماء دروبًا مضاءة، فما أعظم من أن تسيل الدماء من أجل الوطن، وهاهم أبناء الجليل يراقبون الأمر، دون استكانة، وإذا كانت صيغة المبالغة المعنوية في قوله "أقوى من القدر" أدَّت وظيفتها الكاملة في هذا المقام، فلقد كان هدف الشاعر منها الترهيب، وبث روح الحميّة في النفوس، من أجل الأرض. إننا هنا أمام شعب عاشق لتراب الأرض، يفهم معنى التضحية، ويقبل عليها دون تفكير، ومن أجل هذا فإن الموت أو الشهادة تتحول إلى عرس فلسطيني، وكم من الأعراس أقيمت

على ثرى الأرض، ومازالت العروس تنتظر من يضحي أكثر، فالأرض ثمنها غالٍ هذه اللوحة لا تتكرر إلا في الشعر الفلسطيني، وربما ينفرد بها، وها هي عبارة "يا أم الشهيد زغردي" موّالاً حقيقيًا في التراث الشعبي الفلسطيني بعد أن كان أغنية.

ولا أبتعد كثيرًا إذا قلنا بأن تناوُلَ الشاعر لشخصية خالد بن الوليد، ليس لضرورة القافية، بل لأن خالدًا يمثل بسيفه علاقة خاصة فيما جرى على الساحة الإسلامية زمن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وما استلهامه لهذه الشخصية إلا ليبرز هذه العلاقة، ويربط الماضي الإسلامي بالحاضر والواقع، لوجود علاقة مشابهة من وجهة نظر الشاعر.

وينادي على الأرض، ليجسد فيها صورة الإنسان، والحبيب والعاشق:

يـــــا أرضُ ! إن ناديتِنـــــــا   لوجـــدتِنا عنـــد العهـــودِ
لوجـــدتِنا في السّـــهل في الــ   ـــوادي ومـــا فـــوقَ النجـــودِ
لوجـــدتِنا في كـــلِّ عاصـــفةٍ   لنـــــا عــــزمُ الرّعـــــودِ
يـــا أرضُ ! بعـــدَ الله عنـــدي،   يــــا دمـــــائيَ في وريـــــدي

المشاعر التي يسوقها إلينا الشاعر تظهر إحساسه بفقد الأرض وهو هنا يطمئنها، بأننا على العهود، وأننا سنلبي النداء لحظة

المناداة، هذه الصرخات التي تحنو قليلاً كلما ذكر اسم الوطن من خلال الأساليب التي يسوقها، تبرز الحرقة والأسى على الوطن، وما لغة الحزن هذه إلا نتيجة الصراع النفسي الذي يعكس رؤى ابتعدت عن الخيالية لتركن إلى دائرة الواقعية، هذا الصراع النفسي والعقائدي والحضاري، سيكون الغلبة لمن لهم الحق فيه، لهؤلاء الذين يدافعون عن الوطن دون استكانة وهوادة.

ويتابع الشاعر داليته الانفجارية، وتدور حول موقف إنساني متميز:

يـــا حـــاملاً علـــمَ السَّـــلامِ	ألا كففـــتَ عـــن الوعيـــدِ
يُســـــــراك تحمـــــــلُ وردةً	وتميـــتُ بـــاليمنى وليـــدي
قلـتم لنـا : كونـوا جسـورَ السِّــ	ــلامِ في زمـــن الصّـــدودِ
مـــــاذا نقــــول لإخــــوةٍ	في خيمـــةٍ عـــبرَ الحـــدودِ
أنقــــول: تسْــــرق أرضـــنا؟	أنقـــولُ نحيـــا كالعبيـــدِ؟
أنقـــول: نضـــربُ كاليتـــامى	حـــولَ مائـــدةِ الجحـــودِ؟

السلام القائم على الغدر مرفوض، ولكننا نقبل بالسلام الحقيقي، الذي يعيد الحق إلى نصابه، ويعيد المهجّرين إلى أوطانهم، لينعموا بخيرات بلادهم لا أن يعيشوا عيشة العبيد.

لقد اعتمد الشاعر في كشف غدر اليهود على أساليب المراوغة التي يستخدمها، والتي هي جزء من عقيدتهم منذ الأزل، فهم ينادون بالسلام، ومن طرف آخر، يقتلون الناس، فكيف يمكن أن يتفق ذلك؟؟

ويواصل رحلته مع الأرض:

هــذي دمــاؤكَ يــا شــهيدي!! عطـــرٌ علـــى أرض الحـــدودِ
أنــــا لا أخــــافُ الظــــالمينَ ولا جنــــازيرَ القيــــودِ
أنــا لا أخــافُ بريــقَ خنجرهــم ولا هَــوْلَ الحديــدِ
فــالحقّ أقــوى مــن سلاســلهم ومــن بطــشِ الجنــودِ

قوة الحق التي اعتمد عليها الشاعر تستطيع أن تواجه جبروت الاحتلال، وظلم المحتلين، هذه القوة المعنوية تمثل منطلقًا للشهادة من أجل الحياة الحرة الكريمة، وطريقًا لا يسلكه إلا من يؤمن بأن هذه الأرض أرضه، وأرض أجداده، وما الدماء التي تسيل عليها إلا لتجديد العهد للأرض، ومواصلة التضحية والفداء من أجل استعادتها.

هذه الصور المتلاحقة تبرز حالة الانفجار الداخلي عند الشاعر، فلا هو يريد أن يسقط همومه فقط، ولا يريد أن يوقظ مشاعرنا، وإنما أراد أن يفتح مع العدو صراعًا مستمرًا لا ينتهي إلا بانتهائه، ولننظر إليه كيف يصوِّر إلينا صورة الشهيد "هذي دماؤك عطرٌ".

ونصل إلى المقطع الأخير من النص:

الأرضُ نـــــــادت أهلــــــها   لبَّــى النــداءَ لهــا شــهيدي
مَــنْ مــات يحصــدُه الرّصــا   صُ مــــدافعا دونَ المُهـــودِ
فالخلــدُ منزلـــه الطهـــو   رُ وإن ثـــوى بـــين اللحـــودِ
صـــوتُ الشـــهيدِ مزمجـــرٌ   في سمــع قاتِلِــهِ الحقــودِ:
الأرض أقـــوى مـــن ضـــلا   لِكمـــو وأبقـــى مـــن ثمـــودِ

حيث يرتكز فيه على ثلاثة محاور، الأول: نداء الأرض، والثاني: خلود الشهيد، والثالث: الحق أقوى من الباطل، ومن خلال الربط بينها صاغ الشاعر تلك المعاني بما يناسبها من ألفاظ، فعندما نادت الأرض، لم تجد إلا أهلها، فكان الشهيد، وعندما سقط الشهيد، وروى الأرض، فالخلود له، ومن خلاله برز الحق وزهق الباطل،.. هكذا نادت الأرض بلغة أهلها، متحدِّية كلَّ الأزمان والعصور.

في الأبيات السابقة لم نرَ الشاعر يقيم الدنيا ويقعدها لاشتقاق الصور والمعاني، وإنما استخدم الأسلوب المباشر من الألفاظ في إبراز الأثر الانفعالي للموقف الشعوري، فهو يعرف متى يوظف اللفظ توظيفًا يخرج عن دائرته إلى دائرة أخرى، لتتناسب والأثر النفسي الذي يُسقطه على اللفظ، لهذا استخدم الشاعر القافية الموحدة لما لها من تأثير نفسي عميق، ولتحدث

الأثر الانفعالي المطلوب في المتلقي، من خلال الموسيقى الخارجية، ومحاكاتها مع الموسيقى الداخلية من خلال الألفاظ والحروف والتدوير، إضافة إلى استخدامه التفاعيل البسيطة حتى يكون لها وقع وتأثير أعمق من التفاعيل الطويلة والتي تحتاج إلى وقت لنهاية الكلمة، وبالتالي تأثيرها يكون أكثر بطءًا.

• • •

وننتقل إلى قصيدة أخرى من ديوان "وطنٌ... وعبير" وقصيدة "خالد بن فتح الله الفلسطيني" وللعنوان معانٍ ودلالاتٌ كثيرة، منها المعنوي، ومنها الموضوعي، والواقعي، والقصيدة رسالة من شهيد إلى الوطن، يقول فيها:

أعودُ إليك يا وطني

أعودُ إليكْ

لألقِيَ كلَّ أشواقي

على كتفيْكْ

أقبّلُ أرضَ أمجادي

وأملأ صدريَ المحزونَ عطرًا

من شذا زيتون أجدادي

أطيرُ على سهولكَ... أنتشي

في ذروةِ القننِ

أضمُّ ترابَكَ المهورَ من دمنا

إلى قلبي... إلى أذني

لأسمعَ وقعَ أقدامٍ على التاريخ تنزرعُ

لقد كانوا هنا أسيادَ هذي الدار فاقتلعِوا

كل لفظة ساقها الشاعر لها مخزون نفسي وعاطفي "أعود، أشواقي، كتفيك، أقبّل، صدري، عطرا، شذا، أنتشي، ترابك الدم، أقدام التاريخ" جميعها تظهر تأثير الكلمات ووقعها في النفس، إضافة إلى كونها رسالة من شهيد، فاستندت إلى طاقات ذاتية، وإيحائية في آن واحد لا يمكن أن تتوفر لإنسان عادي. الرسالة في حد ذاتها لها أثر انفعالي خاص، والألفاظ التي ساقها أيضًا لها أيضًا، أثر انفعالي خاص، ثمّ ينتقل إلى الأماكن المقدسة، وهل هناك أكثر قداسة من مهد المسيح عليه السلام، وكذلك الأقصى، لما له من قداسة خاصة، وما ولوج الشاعر إلى هذين المكانين إلا من أجل تخفيف ما بصدره من ألم، عله يجد الخلاص من خلالهما، فماذا يقول الشهيد:

أعودُ إليكَ يا مهدَ المسيحِ !!

وفي زوايا القلبِ أكداسٌ من الشّجَنِ

أعود إليك يا أقصى !!

لأطفئَ نارَ حقدهمو.. بأهدابي

بماءِ العينِ.. بالبدنِ

مهد المسيح، والأقصى، يفتحان الكثير من الهموم والجراحات، ويغرقنا في بحر لجّيٍّ لا نهاية له، وما استناد الشهيد في رسالته إليهما إلا لبعث الهمم، ومحاولة بث روح العزيمة في النفوس، وما التقاط الشاعر لهما إلا لما يوحيه هذان المكانان المقدَّسان عند الديانتين المسيحية والإسلام.

ونقلنا الشاعر في المقطع التالي إلى التراث، في محاولة لتذكيرنا بالقادة ودورهم الكبير في إعادة الحق الضائع، مستندًا إلى التراث:

حصانك يا صلاحَ الدّينِ لم يَهنِ..

ولم يَخنِ

جليلكِ يا فلسطيني

سيبقى بؤبؤَ العينينِ

رغم البُعدِ والشجَنِ

وقدسي - قلبُنا المكلومُ

ترفضُ شِرْعَةَ الوَثَنِ...

ما زال الشهيد متفائلاً، وما زال يمسك بزمام الأمور، لكنه استنطق التراث لتكون منهاجًا، فهذا صلاح الدين مازال راكبًا فرسه، ليجانس اللفظ بالزمن، ليوحي بالقوة الجسدية التي لابد منها في هذا الزمن، إضافة إلى القوة المعنوية التي يستند إليها.

لكن تكرار الشاعر لكلمة الجليل في أكثر من قصيدة، ومكان، ربما يبرز الصورة التي أصبح عليها الجليل من تهويد للأرض، وهجرة داخلية قسرية عنه، إلى مدن أخرى، ولننظر إليه في هذه الأسطر التي تعبِّر عن هذا المضمون:

لقد كانت لنا يافا

وبياراتها مجدولةُ الغصنِ

لقد كانت لنا حيفا...

وكرملها على كتفيْهِ هدْهدني

لقد كانت لنا عكا..

فهل أسوارُها يومًا ستُنكِرُني

وحطيني أتنساني...؟

استخدم الشاعر على لسان الشهيد الفعل الناسخ "كان" فهذا الفعل يتضمن معاني داخلية تبرز بأننا أصحاب حق في هذه المدن التي يربطها الشاعر بخراجها، وبما تشتهر به، والآن قد تغيّر الحال، وما استخدامه لهذا الفعل، إلا ليؤكد على أحقيتنا

بالأرض، وعليكم تحمل مسؤولية عودتها، فهذه أسوار عكا، وحطين شاهدتان على وجودي، ولست مجرد عابر على هذه الأرض.

ويقترب الشاعر من الوطن، ويعود إليه من المنفى، ومن معاناة الغربة الجسدية والروحية، بعد أن تشرّدنا في بلاد الله، لا نجد ما يروي ظمأنا، أو يقيت جسدنا:

أعودُ إليكَ يا وطني

من المنفى... من العفنِ...

تشرَّدْنا جياعًا في بلادِ الله

من مدنٍ... إلى مدنِ

ودمعُ الأهلِ مثلَ العارضِ الهَتِنِ

عندما يذكر الشاعر المنفى تقتحم عليه الكثير من العبارات القاتلة والمشاعر الباكية، والذكريات الأليمة، فجاء تصويره للمنفى مفعمًا بكل المشاعر المأساوية.

يقول أبي:

لقد جاؤوا على السفنِ

فكان البحرُ يحملُ غلطةَ التاريخِ والزمنِ....

يلخص الشاعر على لسان الشهيد، ومن خلال حوار مع أبيه صورة هؤلاء الذين جاؤوا على السفن من كل حدب، ونزلوا بأرض لا يعرفونها، لتكون لهم أرضًا، وليتخذوها دولةً لهم على حساب شعب آخر.

شربْنا الذلّ يوميًا
وأطعَمْنا الصغارَ قذىً..
جمعْناهُ عن الدِّمنِ
لقد أُتخِمْتُ أنواعًا من المِحَنِ..
فوَجْهي يحملُ المأساةَ ألوانًا من الغضنِ
وأشكالاً من الوَهَنِ
ولكني..رضعتُ هواكَ يا وطني
فرُحْتَ تجوبُ في نبضي
براكينًا تفجِّرُني..

ورغم المعاناة القاسية التي عشناها جميعًا، صغارًا وكبارًا، ورغم علامات الأسى المحفورة في الوجوه، إلا أن هوى الوطن يدفعنا لتحمُّل أكثر من ذلك، هذه الثورية التي فجَّرها الشاعر من خلال الكلمة رغم انحسار المدّ الثوري الفعلي في ذلك الزمن، يثير فينا كل مشاعر البغض والكره لهؤلاء الأقوام الذين جاؤوا بخطأٍ تاريخي إلى الأراضي المقدسة، ليشهد العصر من خلالهم على جريمتهم النكراء.

هذه التراكيب في مجملها تنتمي إلى عالم الواقع، وإن ضمَّنها الكثير من الذكريات، وكأنها تنتمي إلى الخيال، لتنويع العاطفة، ولتحدث التأثير المطلوب في النفس ثمّ جاءت الوصية الأخيرة على لسان الشهيد لأمِّه:

وأوصي أن تزغردَ لي...

وأن تدعو على الأشهادِ في العلنِ:

"يموتُ اليومَ لي ولدٌ على دربِ الرّجوعِ

فداكَ يا وطني"!!

لغة الشاعر تحمل نبضًا حيًا متجددًا، ورسالة إلى الأجيال القادمة لتحمل راية الجهاد والعودة إلى الوطن مهما كلف من ثمن، فحياة الغربة بما تحمله أحيانًا من مهانة وذلّ كفيلة بالإنسان أن يرجع إلى رشده، ويعود إلى الوطن، فهوية الفلسطيني لا تتحدَّد إلا بعودته إلى أرض أجداده وآبائه.

• • •

ومن ديوان "أنادي... أيها المنفى !!" نقف على قصيدة بعنوان "بيروت والمنفى" حيث يمثل هذا الزمن بداية مرحلة جديدة للنضال السياسي الفلسطيني:

أزِفَ الرَّحيلْ

لم يبقَ غيرُ رجولةِ الأبطالِ

والصّمْتِ الثقيلْ..

لم يبقَ غيرُ عيونِ أطفالٍ يفجِّرُها العويلْ....

مشاعر الحزن سيطرت على الألفاظ، وصاحَبَهُ حزنٌ مستمد من واقع الهجرة الجديدة للشعب الفلسطيني، إن حجم المأساة اليوم ربما يتوازى مع حجمها القديم، فسابقًا هاجر الشعب، واليوم هاجرت القيادة والجند، وبقي الشعب، وفي كلا الحالتين هجرة قاسية، وجاءت بعد معركة طويلة مع العدو الإسرائيلي وصلت إلى مشارف بيروت، وانتهت بعد اثنين وثمانين يومًا، برحيل القوات الفلسطينية إلى منافٍ جديدة..

هذه اللوحة تحمل ظلم القريب والبعيد، وتعبيرًا عن لحظة من لحظات التاريخ القاتم الأصم، ولم يقتصر الأمر على الرحيل، ولكن المأساة الحقيقية تكمن في أن القريب رفض استقبالنا:

رفضتْ بقاعُ العالمِ العربيّ ضيفًا نازفًا

جرحًا يسيلْ

صَغرَتْ بقاعُ العالمِ العربيِّ حتى أصبحتْ

مِسْخًا بحجمِ البَصْقةِ الصّفراءِ يلفظها عليلْ..

وإذا كانت الصراحة مؤلمة، فإن الأكثر إيلامًا، هو الجرح النازف الذي لم يجد مَن يضمِّده، حتى بعض الدول العربية التي خشيت من استقبال الفدائيين حتى لا تقابَل بجحودٍ من دول كبيرة، حتى أن الشاعر لم يستطع أن يسوق إلينا هذا المنظر بألفاظ عادية، وإنما تناول الموقف بألفاظ تناسب الموقف "مسخًا، البصقةُ الصفراء، العليل" وهذا يعني بأن الشاعر وصل به المقام إلى مقت الدول العربية التي أبت استقبال الجرحى، فالأرض ضاقت إلى حدّ أن البحر فتح أذرعه لاستقبال المناضلين:

الأرضُ ضاقتْ

مرحبًا بالبحرِ يحمِلنا إلى المنفى الطويلْ

وعيونُ حكامِ العروبةِ جامداتٌ

مثلَ بلورٍ صَقيلْ

لقد انصرف بعضُ حكام ذلك الزمن إلى متاع الدنيا كما يقول في الأسطر التي لم نذكرها، وبالتالي يحملهم مسؤولية صمتهم، ووقفتهم متفرجين على الدماء النازفات دون أن يحركوا ساكنا، فنحن نعيش حالةً من القهر النفسي والمعنوي تختلج في النفس جرّاء الصّد من الحكام، وأما الشعوب فلا تستطيع أن تفعلَ شيئًا إزاء هذا الموقف المأساوي.

بيروتُ!!
يا حبَّ المُقاتلِ والقتيلْ
إنا سَففنا من ترابكِ حين جُعنا
والحصارُ يدقُّ بابكِ
والبنادقُ والمدافعُ.. والمعاولُ.. والطبولْ..

يرجع الشاعر إلى الماضي بما يحمله من ذكريات وانتماء إلى الأرض والوطن، وكم حنت علينا، وكم صبرنا عليها في أحلك وأصعب الفترات، فالشاعر يبرز كيف كانت العلاقة بين الفدائي والمدينة قبل الغزو الإسرائيلي لها، وكيف انصهرا في بوثقة واحدة.

بيروتُ!!
يا درعَ المقاتلِ والقتيلْ
لم ننسَ دفءَ جناحكِ الطاوي مآسينا
وأحزانَ التشرُّدِ والتمزقِ
والضياعِ المرِّ
والليلِ الثقيلْ
والعالمُ العربيُّ سكرانٌ يدغدغهُ الخمولْ

يواصلُ الشاعرُ تمجيدهَ لبيروت، فقد كانت الملاذَ الآمنَ لكل المقاتلين، في فترة كان العالم العربي يعيش في دِعَةٍ وسكون، ولكن صفة التعميم التي أطلقها الشاعر لا تتناسب والعالم العربي بعامة، فهناك من الشعوب من وقفت موقفًا بطوليًا في مواجهة حكوماتهم، ويتكرر التمجيد في الأسطر التالية، ولكن من زاوية أخرى :

بيروتُ !!
يا جرحَ المُقاتلِ والقتيلْ
يتراهنون على دِمانا في قصورِ الخزيِ
والشرفِ الذليلْ
يتقاسمون ثيابَ موتانا
وأشلاءَ الرجالِ... وأعينَ الأطفالِ
واللحمَ المُمَزقَ والمُعَلقَ في الشوارعِ كالغسيلْ...

هذه الصرخاتُ الصريحةُ التي يُطلقها الشاعر لا يوجد فيها لون من التجنّي بقدر ما هي زفراتُ متألمٍ وباكٍ على الوضع العربي الحزين، لقد أخذ الوضع العربي من الشاعر مأخذه وجعله يعيش في متاهات من الألم، وما الألفاظ التي ساقها لدليل على المأساة، إن رائحة الدماء، والجثث التي مضى عليها زمن دون دفن تفوح من بين ثنايا الأسطر، حتى وصل الأمر إلى التمثيل بأجسادنا.

الشاعر نراه يعيش المأساة، ويتفاعل معها، فتبرعمت التجربة لديه لتصل إلى ذروتها من خلال المقطع السابق.

ويرجع الشاعر بفكره إلى ما قبل هذه الحرب القذرة، فيرى بيروت وطنَ الشعر والفن، تتحول مع الحرب إلى وطنٍ لأرباب الحشيش كما قال:

بيروتُ !!
يا معشوقةَ الشعراءِ والفنّ الأصيلْ
أبكي عليكِ ومنكِ يا ذاتَ الغدائرِ
والعيونِ السُّمرِ والقدّ الجميلْ
شرَّعْتِ أبوابَكِ للخصيانِ، أربابِ الحشيشِ
وسادةِ الأفيونِ والبترولِ
والمجدِ المزيَّفِ والدخيلْ
فلتشرئبّي اليومَ من بينِ الرّمادِ
ترَيْ تماسيحَ العروبةِ
تأكلُ الدولارَ...تشربُهُ
تعلّقهُ تمائمَ في الرِّقابِ
لكي تردّ الكفرَ والعصيانَ عن شعبٍ بتولْ

لقد ركز الشاعر على بيروت باعتبارها عاصمة للفكر والفن زمن السلام، فكيف ستصبح عاصمة للحشيش والأفيون كما

يريد البعض لها أن تكون في زمن الحرب، هذا التركيز الذي استند الشاعر فيه إلى الواقع قد غيَّر صورة الحياة كاملة في هذه العاصمة، وأصبحت تعيش كأنها بقعة من شيكاغو.

بيروتُ !!

يا قديسةَ الغرباءِ تحملُ فوقَ كَتفيها

شعارَ الطهرِ والمجدِ الأثيلْ

بيروتُ!!

يا نجمًا يميلُ إلى الأفولْ

تخذوكِ جاريةً يضاجعُها لصوصُ العصرِ !

رعديدٌ... جَبانٌ أو عميلْ

بيروتُ فوقَ الشاطىءِ المغسولِ بالدَّمِ

تندبُ الأبطالَ إذ أزفَ الرّحيلْ

وعلى سطوحِ بيوتِها

يبكي الحمامُ

ينوحُ

يرتعشُ الهديلْ

بيروتُ

هل تدرينَ أنَّ الشرقَ ماخورٌ رذيلْ ؟؟

وعروبتي!!

بين الموائدِ والسّكارى أصبحتْ جسدًا هزيلْ ؟!

انتهج الشاعر في الأبيات السابقة أسلوبًا يوضح من خلاله بأن الأيدي الغريبة عاثت فسادًا في بيروت بعد أن كانت تتمتع بكل معاني الكرامة والحرية والطهر، فهذه الدماء التي سالت، وهذه الأرض التي تخضبت بدماء الشهداء تبكي رجالها الذين رُحِّلوا عنها، فعندما رصد المدينة، تناول ما حدث لها من منطلق الواقع، والحقيقة، ومن المواقف البطولية للشعب اللبناني والتفافه حول القيادة الفلسطينية، ورغم ما حلَّ بالمدينة ستبقى المنارة الفكرية كما كانت سابقًا، وإذا كانت الصورة الشعرية جزءًا من بنية القصيدة الفنية، فإن الشاعر اعتمد عليها اعتمادًا بيّنا في الأسطر السابقة للوصول إلى الهدف الرئيسي.

ابتعد الشاعر عن التكرار، اللهم إلا عندما يبدأ بمرتكز جديد، يطالعنا الشاعر باسم المدينة "بيروت" وربما لا يكون تكرارًا في حدِّ ذاته، بقدر ما هو لفتٌ للانتباه إلى أن المدينة تمثل للشاعر الكثير من الإبعاد النفسية، مقارنة بين وضعين متقابلين، وابتعدت عن الاستطراد والاطراد، واقتضاب المعاني وتناقضها. فالتوظيف السليم للألفاظ لم يأتِ على حساب الموسيقى الداخلية حتى أن استخدام " اللام " وهي من الحروف البسيطة كقافية موحدة بين أسطر القصيدة.

التوازن الذي نراه في بنية القصيدة، في زمن اللاتوازن بالنسبة للحدث وتأثيره على الشاعر، يمثل إبداعا منهجيًا وفكريًا للشاعر.

ثم نفتح ديوان "أحزان المراكب الهائمة" ومع قصيدة "العشق والوطن" كواحدة من قصائد الديوان المتعددة التي تعبِّر عن وطنية الشاعر، والتزامه المنهجي الذي يسير عليه الشاعر:

بيني وبينكَ عشقٌ أيها الوطنُ   فالأرضُ أنتَ، وأنتَ الروحُ والبَدَنُ
بيني وبينكَ آمالٌ تشُدُّ بنا   نحوَ الغدِ الباسمِ الأيامُ، يا وطنُ!
نحن الصمودُ على أرضٍ نُقدِّسُها   والمَهْرُ من دمِنا إن جارتِ المِحَنُ
في كلِّ يومٍ لنا عرسٌ وملحمةٌ   لا نبرحُ الأرضَ مهما يبلغُ الثمنُ
في كفر قاسمِ، في سخنين يا وطني   مات الرجالُ فما هانوا وما ذعنوا
في ضفتي عزمُ أهلي هوجُ عاصفةٍ   أحرارُ غزةَ ما لانوا وما جبُنوا
إنا لشعبٌ كماةٌ لا نبادُ كما   بيدت شعوبٌ فزالت وامّحَتْ مُدُنُ

من القصائد التي تمثل العلاقة بين الإنسان والأرض، حيث افتتحها بالتخصيص والتجسيد عن طريق ضمير المتكلم، ليوحي بهذه العلاقة، مسترشدًا بالمواقف البطولية التي وقفناها، معرّجًا على المعارك "كفر قاسم" ليثبّت حقيقة هذا الانتماء والانصهار، مُبْرزا المواقف البطولية لأهلنا في الضفة، وفي غزة، ثم مفاخرًا بتراثنا وأصالتنا، وبأننا لن نزول كما زالت أمم سابقة، هذه المعاني التي استند إليها الشاعر مصدرها الحقيقي هو الإنسان الفلسطيني، مستعينًا بكل إرثه الحضاري، ومذكرًا بالدماء التي سالت من أجل الوطن، وما هذا إلا دافعًا

لمواصلة الجهاد. الشاعر يعبِّر عن طاقات انفعالية وطنية داخلية مصدرها عشق الأرض، فلا نعجب من شعب يضحي من أجل أرضه، ولا نستغرب من دماء تسيل، دون أن يقلل من عزمه شيء على مواصلة الجهاد، لهذا استخدم أسلوب تقريري في عرض تلك الطاقات بعيدًا عن الخيال، لكنه أكثر كما رأينا من حشد الصور، بحيث أصبح لكل كلمة دلالة خاصة غير الدلالة التي تبرز في الكلمة ذاتها، وقد أبرز الصور جميعها عن طريق التضحية والتحدي والإصرار والفخر.

ويتابع الشاعر إبراز أسلوب العشق للأرض، حتى في الغربة القسرية:

لم ننسَ عَبْرَ حدودِ النارِ إخوَتنا   لم ننسَ إن شطّتِ الأطلالُ والوَكنُ
يا خيمةَ الأهلِ في جنبيَّ منزلُها   فيها الألى وُلدوا، منها الأُلى دُفنوا
بيني وبينكَ عشقٌ أيها الوطنُ   تزدادُ جذوَته نارًا ولا تهَنُ
فالحزنُ في جَنباتِ الصّدرِ مُلتهبٌ   أنى تلفتَّ آثارُ الألى طعِنوا
تبكي الطيورُ على الأطلالِ نادبةً   شتاتَ قومٍ بأرضٍ خلقها دَرَنُ
أبكي بيوتكِ يا يافا !! فكيف غدا   أصحابُها حيث لا أرضٌ ولا سَكنُ
أبكي مساجدَ أهلي كيف أحرقها   باغٍ ودَنسَها رجْسٌ به رَعَنُ
أرثي كنائسَ كم يسطو فيسرقها   قومٌ تتارٌ، فلا يَثنيهُمو رَسَنُ

مأساة الاغتراب التي يسوقها الشاعر، إنما هي جزءٌ من المأساة العامة، فقد تحوَّلت المدينة إلى خيمة خارجَ الوطن، ليتخذ من معاناة الخيمة وغربتها صرخاتٍ مدوّيةً، وبكاءً على الإطلال، وكأننا أمام شاعر أندلسي يبكي كنائس، ويرثي مساجد، ودور علم، ومدارس ومعاهد، هذا الصراخ ليس لضياع الأرض فقط، وإنما للمواقف السلبية لكثير من الدول تجاه ما يحدث.

هذه الثورة العارمة التي اجتاحت الأبيات، تذكرنا بالإرث الضائع لبلاد المسلمين، وما يحدث في فلسطين ما هو إلا سلسلة لهذا الضياع، ولكن الشاعر لم يذكر ذلك إلا من أجل إلهاب الحمية في النفوس عامة، وإيقاظ المشاعر النائمة، لسدّ الطريق عن مدن أخرى، وإرجاع ما تم اغتصابه.

حاول الشاعر تحريك مشاعرنا من خلال الطير الباكي، والمنازل الباكية والمساجد والكنائس، علَّ ذلك يكون دافعًا لوقفة جامعة في مواجهة هذا الاحتلال، لكن الحزن الذي يسري في النفوس، والذي أبرزه الشاعر لا يمكنه أن يقدِّم شيئًا في هذا الزمن، ولا يمكنه أن يعيد أرضًا، ولا يخلق واقعًا مغايرًا عن واقع الاحتلال، فالمأساة عميقة، والجرح غائر، ولننظر إليه في هذا المقام:

إن تســـأل الأرضَ في حطـــينَ عـــن شـــهُبٍ غنـــىّ وزغـــردَ في أســـيافِها الطعَـــنُ
مـــاذا أقـــولُ لهـــا والـــدمعُ يزجرُنـــي فكيـــفَ تنـــداحُ عـــن ســـاحاتها الحُصُـــنُ
بـــئسَ الزمـــانُ زمـــانٌ يُســـتذلُّ بـــه أســـيادُ أرضٍ ويعلـــو الغاصـــبُ العَفِـــنُ
هـــذي بـــلادي بـــلادُ الشـــهدِ يجرَعـــهُ مســـتوطنٌ جَشِـــعٌ في صـــدرهِ ضَـــغنُ
أمّـــا بَنوهـــا فـــلا مـــاءٌ ولا شـــجرٌ فالضِّـــرْعُ جـــفَّ فـــلا شـــهدٌ ولا لَـــبَنُ

يتساءل الشاعر عن العدالة، وعن الحق كيف ضاع في هذا الزمان، وكيف تملك مَنْ لا حقَّ له بالتملك، ليأتي المستوطن يحمل في نفسه كل الحقد، وينفثه في أصحاب الأرض، ويطردهم منها.

اللغة الدرامية الحزينة التي يسوقها الشاعر من خلال أسلوب احتلال واغتصاب الأرض، تكمُنُ في قدرته على نقل الحقائق ساطعة بعيدة عن الغموض والمبالغة، وربما يكون هذا من أحد أسباب اعتقاله، ولهذا يجعلنا نعيش حالة من عدم الاتزان، فالأرض ضاعت، وعلينا أن نبحث عن السبيل لاسترجاعها، وهناك الكثير من الشواهد ما تثبت حقنا في الأرض.

أرضُ الشـــتاتِ غـــدت نـــارًا مؤجَّجَـــةً لا تبصـــرُ العـــينُ فيهـــا أو تعـــي الأذنُ
لـــو كـــان فـــوقَ الثـــرى لـــي مـــوطئٌ علـــمٌ لانـــداحَ هـــولُ الليـــالي واســـتوى الحَجَـــنُ
لـــو كـــان لـــي فـــوقَ صـــدرِ الأرضِ منطلـــقٌ لارتـــدَّ بـــاغٍ وعـــادَ الغائـــبُ القمَـــنُ

من الطبيعي أن تصبح أرض الغربة والشتات نارًا، وجزءًا من المعاناة، ونفاجأ باستخدام "لو" وكأنه يردُّ أسباب ما حدث لعدم تمتع الشعب الفلسطيني بدولة كغيره من شعوب العالم، وربما يكون ذلك من الأسباب التي دعت إسرائيل للقيام بهذا العمل، ولكن حتى وإن لم يكن للشعب الفلسطيني دولة، فهل يحق لأي قوى غاشمة أن تستحل أرضًا بالقوة؟!.

كُلُّ الحلولِ بدونِ الأهلِ واهيةٌ   فأيّ حلٍّ بدوني حَشْوُهُ فِتَنُ
منا القياداتُ لا من ثلةٍ دَعرتْ   هل الزناةُ على الأخلاقِ تؤْتمَنُ؟
يا قادةَ العربِ الأشباهِ ما فتئَتْ   عيونكم مُغضياتٍ فوقها غضَنُ
تستمرؤون هوانَ الذلِّ في زمنٍ   أصابَكم رَمَدٌ أو شفكم وَهنُ
فلتمضغوا القاتَ، سيحوا في مباهِجِه   ولتشربوا النفطَ خمرًا أيها الوَثَنُ
إنّا أباةٌ ديارُ المجدِ منزلنا   أمَّا الصِّغارُ فأنتم أيّها الشَّعنُ

اعتمادُ الشاعر على التاريخ في إبراز الأفكار السابقة واضح، وذلك من خلال الحلول التي طرحت دون أصحاب المشكلة الحقيقيين، فماذا كانت نتيجتها ؟ فالمتفردين بالحلول، وكأنهم نوّاب عن شعب يمتلك إرثًا حضاريًا وتاريخيًا أكثر من أولئكَ الذين نصَّبوا أنفسهم بديلاً عن الشعب الفلسطيني، وبالتالي مصير كل الحلول إلى سراب، فأصحاب المشكلة موجودون، وهم الأقدر على معرفة ما ينفعهم ويضرّهم، وهم الذين يعانون

داخل وخارج الوطن، لهذا فكل الحلول التي يمكن أن تطرح مرفوضة بدونهم، وما لم تكفل أعادة الحق إلى نصابه.

هذه الصُّوَرُ التي ساقها إلينا الشاعر مطابقة للواقع، أو للإدراك البصري والسمعي، وما هذه الثورة في الأبيات إلا انعكاسًا لهذه الرؤية، وما تحامله الشديد على الزعماء إلا نتيجة لهذا الصراع الخارجي، وما القصيدة إلا صراعًا داخليًا وخارجيًا على السواء.

وحسبي أن الشاعر ارتكز في هذا المقام إلى عبارة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" حتى تؤدي الصورة ذاتها، ولتكون على صلة وثيقة بالأفكار.

مهما يطولُ زمانُ الغدرِ يا وطني!! فعَوْدَةُ الحقِّ بالإصرار ترتهَنُ
طالَ الظلامُ فهل شمسٌ تضيءُ لنا دربَ الخلاصِ فَتعلي رايتي القِنَنُ
دربُ الخلاص رجالي السُّمرُ تعرفهُ إنْ ضاقَ بَرٌّ فهذا البحرُ يا سُفنُ
هذي فلسطينُ لا أرضى بها بدلاً حتى يُواري رُفاتي الصَّمتُ والجَننُ

والشاعر يمثل في رأيي روح التفاؤل حتى عندما تدْلهمُّ الأمور، فهو لا يؤمن بخلاص يأتي من الخارج، ولا من حاملي الرايات البيضاء، ولا من النيام من البشر، وإنما من الداخل، وهم الذين يعرفون الوطن حق المعرفة، لهذا مهما طال زمان الغدر والهجر، والترحيل، فإن الوطن مفتوح الذراعين ينتظر في لهفة أهله الحقيقيين، لأنه المكان الوحيد الذي سيضم رفاتي.

تلك الأبيات لها أكثر من دلالة:

- الأولى: بأن الأمل موجود مهما طال زمان الغدر...
- والثانية: أن الخلاص سيأتي من أبناء الوطن الحقيقيين...
- والثالثة: عدم قبول وطن بديل عن الوطن الأصلي "فلسطين"

هذه الدلالات وغيرها تحمل في طيَّاتها الروح الوطنية، بكل معناها.

أما لغة القصيدة فتقترب من لغة الخطابة، فقد ساقها إلينا بألفاظ قوية ومعبرة ومؤثرة، تتناسب وموقف خطابي، فقد حشد إليها الكثير من البراهين والذكريات والأحداث الكفيلة بتغطية الفكرة التي نبعت من العشق للوطن، ولهذا كان الإقناع والتسليم بها أمرًا طبيعيًا، ولهذا نرى المضمون قد ألبسه الكثير من الرؤى مما جعله حلية يراها الناس ليتعاملوا معها.

وإذا كانت العاطفة أحد عناصر النص الأدبي، وهي التي تميزه عن العلمي مثلاً، فقد انطلقت من تجربة شعرية عميقة، برزت بشكل واضح في الأبيات من خلال الصدق الموضوعي الذي انتهجه الشاعر في الأبيات.

• • •

وفي ديوان " الدَّم والميلاد " نقف على قصيدة بعنوان " أرضي تثور" هذه القصيدة قيلت بمناسبة مرور عشرين عامًا على الاحتلال الإسرائيلي لبقية فلسطين:

أرضـــي عليـــكَ تثـــورُ.. تلتهـــبُ عشـــرين عامًـــا مـــا خبـــا غضَـــبُ
عشـــرين عامًـــا كنـــتِ تحـــرقني وأنـــا لمرجـــلِ حِقـــدِكم حَطَـــبُ
عشـــرين عامًـــا ســـيفكم عملـــتْ شـــفراتهُ حتـــى ارتـــوى الـــتربُ
وتصـــوِّرون نظـــامَكم نِعَمًـــا للنـــاس وهـــو الزّيـــفُ والكـــذِبُ

نظر الشاعر إلى الواقع الذي يعيشه، فكان متأملاً أن يراه بعكس الصورة الأليمة التي هي عليه، فقد وجد الجرح قد غار، والألم يزداد، والمعاناة تضرب في أعماق الوطن، فجاءت ألفاظه مُحمّلةً بهذا الهم " تثور، تحرق، حقد، سيف، شفرات، الزيف، الكذب " فأرضه تلتهم وتحتضر، وشعبه يعاني، وقد كان لتلك الألفاظ التي ساقها دلالاتها المعنوية، من خلال استعمالها الموفق، وإن كان العصر الذي نعيشه لا ينتمي إلى السيف.

فالشاعر كما نرى يتفاعل مع الواقع، وينظر إلى كل القضايا التي يجب أن تكون في صالح المواطن، وإذا بها تكون ضدّه، من أجل تحقيق أهداف وأطماع خاصة للمحتل، ولقد أراد الشاعر أن يفتح من خلال القصيدة كوّة من العذابات التي

يعيشها أبناء فلسطين، فربما يفيق البعض من رشده، وابتعد الشاعر في هذا المقام عن الرموز التي من شأنها قتل الحياة في قصيدة واقعية لا يمكنها أن تحتمل أكثر من اللفظ ذاته من خلال معناه، أو معناه من خلال إيحاءاته.

الدم الطاهر الذي يُراق على مدار عشرين عامًا، اتخذه الشاعر ليستضيء من خلاله، وبنوره أفاق الحياة، ويدين أيضًا أساليب الاحتلال ضد الطغمة التي آلت على نفسها تعذيب الشعب الفلسطيني.

ويتابع الشاعر من خلال أسلوبه المباشر عرض أسلوب ثورة الأرض بعد أن أبرز الأسباب والدواعي لهذه الثورة:

هــــذا لســـــانك مَــــن يُصــــدِّقهُ	هـــل يغســـلُ الـــدَّمَ حـــاكمٌ ذَرِبُ؟
أنـــــــا لا أُدَجَّـــــــنُ إن أردتَ ولا	أجثـــو إذا مـــا شـــاءَ مغتصِـــبُ
فانســفْ بيــوتَ الزِّنــكِ يــا بطــلاً	فَلَــكَ العَتَــادُ وجَحْفَــلٌ لجِــبُ
واقتــــلْ صــــغاري في مخــــيَّمِهِم	فالقتــــــلُ في أعــــــرافِكم أربُ
تتقيّــــأُ الغربــــاءَ أرضُ أبــــي	أرضـــــي لهـــــا أمٌّ هنـــــا وأبُ
هــــــذي قوافلنـــــا نقـــــدِّمُها	مـــوتُ الرجـــالِ خلـــودَهُم يَهـــبُ
لـــن يهـــدأ الغليـــانُ في عَضُـــدي	والحِقــدُ في جنبيــكَ والوَصَــبُ

القصيدةُ التي أمامنا جزءٌ من الواقع حيث تبرز إحساسَه المفرط، بالقضايا المصيرية فيسوق إلينا الوقائع كما هو ليكون المبرر موجودًا لثورة الشعب ضد الاحتلال الصهيوني، هذه التجربة الإنسانية التي يسوقها لا تهدف إلى إظهار مثالب المحتل، بقدر ما يريد منها إظهار الوجه الحقيقي للاحتلال.

ويقرّ الشاعر من خلال الأبيات، بأن الظلمَ والقسوةَ والبطشَ والدماءَ لن يستمر، لأن كل شيء إلى زوال، لأن عشقَ الشاعر إلى الحياة الكريمة، والإنسان جعله إنسانيًا في تطلعاته وأفكاره.

يـا مسـجدي! أعيـاكَ ظلمهمـو	فـالحزنُ حـطّ عليـكَ والكـأبُ
فيّ كـلِّ يـومٍ يصـلبونَ هنـا	عيسى فما ارتعشوا وما رَهِبوا
لا يُرتجى خُلقٌ ولا أملٌ	من أمةٍ أخلاقها عَطبُ

ولقد مسَّ الشاعر مشاعر المسلم من خلال المسجد الأقصى، فجعل منه قضية أساسية يلبس رداءها ووجهها، ومن خلالها يعيش كل أبعادها وتأثيراتها، وكذلك من عيسى عليه السلام رداء الطهر، ومن خلالهما يوحي إلينا بحبه الشديد لبلاده، ويتمسك بكل تراب الأرض، متخذًا من هذين المكانين منطلقًا لكل الأراضي الفلسطينية باعتبارهما يمثلان كل فلسطين.

إن الطريق إلى فلسطين بكاملها يأتي عن طريق المسجد الأقصى، والأماكن المسيحية في مواجهة المحتل، لأن القضية

التي يتعامل معها الشاعر في هذا المقام ينتقل بها إلى الإنسان الفلسطيني.

يـــا قـــادةً شـــحذتْ نواجـــذها   الويـــلُ مـــن أهلـــي إذا ركبـــوا
لا أشـــتهي دمكـــم ومـــا ارتفعـــتْ   كفِّـــي لتضـــربَ غـــيرَ مَـــن سَـــلبوا
عشـــرين حـــولاً تهـــدُرون دمـــي   لم يرتـــوِ ظمـــأٌ ولا سَـــغبُ
حمّلـــتمُ الأجيـــالَ وِزْرَ دمـــي   فحـــرقتمُ الأحـــلامَ يـــا جـــرُبُ
ووهبـــتمُ الأطفـــالَ إرْثَ دمٍ   أجســـادُهم نـــاءَتْ بمـــا وُهِبـــوا
أمـــلُ السّـــلامِ حكايـــةٌ صَـــدِئتْ   تغفـــو وتطـــوي حُلمَهـــا الكتـــبُ
رُدّوا الحقـــوقَ إلى مرابعِهـــا   حتـــامَ نستشـــري فـــنحترِبُ
خلـــقَ الفلســـطينيُّ مُعجـــزةً   فليشـــهدِ التـــاريخُ والحِقَـــبُ

الشاعر يُعلن في قصيدته بأن فلسطين لن تعود إلا بالنضال والفداء، ولذلك كانت الثورة، ورغم التوجع والألم الذي أظهره، فقد أبرز صورة التصميم والمواجهة ليس عشقًا لها ولا للدّماء، وإنما مع أولئك الذين استباحوا وسرقوا واغتصبوا، فتجلت إرادةُ التصميم والصمود والإصرار على التمسُّك بحقوقٍ لا يمكن أن تحطمَها أي قوة مهما بلغت من جبروت، لأسباب تتعلق بالذات الفلسطينية، وبحقه في أرضه، فالتاريخ شاهد، والذكريات مازالت عالقة في الأذهان ولابد من ردّ الحقوق إلى أصحابها، لصنع التاريخ الجديد.

وهنا تتجلى أمامنا قوة تحمُّل الشعب الفلسطيني وصبره على المحن المتتابعة، والضربات القوية التي تؤلم، ولكنه على ثقة كبيرة بأنه سيبني مجده القديم، ويعيد سيرة الوطن الأولى.

لقد مرَّ عقدان على الاحتلال ومازالت القوى الظالمة تمارس هوايتها على الشعب الفلسطيني دون هوادة، فيحاول الشاعر في هذه القصيدة أن يصور هذا الواقع بأسلوب جديد يعتمد فيه الصور المباشرة من خلال ترميز بسيط يستقيه من الواقع، فنراه خلال شحنها بطاقات جديدة أضفتْ على القصيدة بُعْدًا فكريًا بالإضافة لما للبعد العاطفي من تأثير.

• • •

ونقف هنا مع ديوان "ليكونَ لكم فيَّ سلام" وقصيدة بعنوان "العاشق والمطر" وهذه القصيدة رؤية جديدة في منهجه الحياتي والموضوعي الذي اختطه لنفسه حيث تجمعت في النص معاني المأساة التي يعيشها شعبه على مدى عقود طويلة، فالشاعر ينقل بصدق وأمانة كيف تجذّرت المأساة، وأخذت أبعادًا لا طاقة للإنسان بها في ظل دولة تعترف لنفسها بالديمقراطية.

والشاعر في هذه القصيدة، ومن خلال رؤيته يرى بأن تحرير فلسطين لابد وأن يتمّ، مهما اشتدت الخطوب، وادلهمّ الليل:

ودنا المطرْ

والضوءُ في قلبي انهمرْ

وأطلَّ من خلفِ الغيوبِ

الرعدُ والبرقُ المؤجَّجُ والمُدجَّجُ بالخطرْ

وتحرّكتْ في البحرِ أشرعةٌ

وفي الأرضِ الحجرْ

وتناثرتْ في الجوِّ أسرابُ الطيورِ

على حذرْ....

الشاعر عندما اقترب من الحياة اتخذ من الطبيعة مدخلاً له ورمَّز بلغة حانية بما أوحت به الألفاظ "المطر، الضوء، الرعد، البرق" وقابلها بـ"أشرعة، الحجر، الطيور"...

هذه الأسطر وما تليها تصور شدّة المأساة التي يعيشها الشعب الفلسطيني الذي سلبت منه كرامته، يوم سلبت أرضه، فقد غدا يعيش الهم في كل لحظة، ويعيش الخطر في دروب الأرض التي عليها نشأ:

ودنا المطرْ

ماتت بذورُ الوردِ في أرضي

وجفّ الضِّرعُ واحترقَ الزَّهرْ

إنّ الرصاصَ يئزّ.. يبحثُ عن رؤوسٍ
عن صدورٍ.. عن وطنْ....

هذه المقطوعة الصغيرة تعبِّر عن أقسى أنواع الاحتلال الذي حطَّم كل الآمال والتطلعات، وقتل الحياة فلا عجب بعد ذلك أن نجده يستخدم الرصاص ليزيله عن الأرض، إن كل كلمة ساقها الشاعر تختزن الكثير من الطاقات المؤلمة والصور المأساوية التي لا يمكن أن يحتملها الإنسان في أي بقعة من العالم.

إن التضحيات الواجبة للإيمان المطلق بعدالة القضية هي التي ساقت أبناء الشعب الفلسطيني للمواجهة والتحدي والوقوف في وجه المحتل، رغم الرصاص الذي ينهمر:

أضحى الرصاصُ لسانَ هذا العَصْر
يرسمُ في لحومِ الناسِ أنواعَ الصُّوَرْ
هذه الرصاصةُ صُمِّمَتْ للعينِ
تختطفُ النظرْ
ورصاصةٌ أخرى
تقبِّلُ مثلَ أفعى
قلبَ طفلٍ في ربيعِ العُمْرِ
يلهو بالأُكرْ....

الشاعر كعادته لا يدَّخرُ وسعًا في معظم قصائده، يوقظ المشاعر من خلال التذكير بأعمال العنف التي تمارس على الشعب الفلسطيني، وما ساقه في الأسطر السابقة إلا جزءًا من هذه الممارسات، وحيث أن الأطفال يمثلون البراءة في العالم، إلا أنهم في فلسطين يظهرون بصورة أكثر قوة، وهذا نابع من الظروف التي فرضها المحتل عليهم.

ولننظر إلى ممارسات العدو عندما يستخدم الرصاص، باعتباره اللغة الوحيدة التي يفهمها، لأنه في الواقع لا يفهم لغة السلام والوئام والحب، فهذه رصاصة فقأ بها عين طفل، وأخرى مزّق بها جسد شيخ كبير، وجَنينًا داخل رحم أمِّه.

ويتابع الشاعر هذه اللوحة من خلال زاوية أخرى:

ماذا أغني؟؟
والجنودُ على صُدورِ الناسِ يمتصّونَ
أرواحَ البَشرْ
ماذا أغني؟؟
والرصاصُ الأرعنُ النافث أحقادَ الشرَرْ
يمتصُّ نسْغَ حياةِ أغصانِ الشجَرْ
محروقةٌ أرضي
على أحداقِها يطفو الضَّياعُ
وحُزنُ أحزانِ الكَدَرْ...

الشاعر في الأسطر السابقة شديد التأثر رغم ما يعرفه عن المحتل، فهذا الغضب العرم تحوّل في ذات الفلسطيني إلى بغض لا ينتهي، ولا يمكن للإنسان أن يشعر بلذة الحياة طالما الرصاص يحصد أجساد البشر.

لقد برزت هذه الثورة العارمة من خلال الألفاظ الموحية التي ساقها إلينا، وما تحمله من انعكاسات للواقع، أبرزت عشق المحتل الصهيوني للرصاص والموت، وكأنه على حق فيما يقوم به الجنود، الرصاص، يمتص، الأرعن، النافث، الأحقاد، الشرر...."

وإذا أردنا أن نجد مبررًا لهذا، فإن الواقع هو خير مبرر لما يحدث، فالشاعر لا يتجنى، ولا يخاطب الوجدان، ولا يلهب الحماس من أجل إظهار بطولات معينة، وإنما الواقع أكبر دليل على ما يجعل الفلسطيني أكثر حنقًا على المحتل:

ماذا يقول الشعرُ والكلماتُ خافتةٌ
كهمسِ الضوْءِ ينزفهُ القمَرْ؟؟
ماذا يقولُ الشعرُ
والكلماتُ أبلغها الحجرْ؟؟
ماذا يقولُ العاشقُ الدّنِفُ المقيَّدُ بالسّلاسلِ
والبنادقِ والسّلاحِ المُبْتكرْ

ماذا يقولُ لأرضِهِ وترابهِ

ولسهلِهِ وهضابهِ

للماءِ غاضَ وجفَّ في مجرى النهرْ

ماذا يقولُ وسيفُ سيِّدِهِ الرقيبِ

يلوحُ.. يهبطُ كالقدَرْ

يجتاحُ... يغتصبُ الفِكَرْ؟؟

إذا كانت الكلمات لا تستطيع أن تصف الموقف، فمعنى هذا أن الموقف وصل إلى أقسى مرحلة من مراحل القهر والإذلال الفكري والجسدي، فهل الكلمات قادرة على تغيير الواقع، وهل الأفكار قادرة على لجم الرصاصات التي تنبعث من فوهة البنادق، فالمرارة والتوجع تصاحب كل كلمة نزفها رغم معرفته بعدم أهليتها لهذا الزمن، إنه يريد منا أن نواجه السلاح بالسلاح حتى نحقق الهدف من هذا النضال:

منذ اقتلعنا والجيادُ على سفرْ

تمشي على حدِّ السيوفِ

وبين حبّات المطرْ

وعيونها

ما أغمضتْ أجفانها

فالحُلمُ طيرٌ أفزعتهُ الحادثاتُ

ونكهةُ البارودِ والليلُ المحمّلُ باكتِئاباتِ الخَبَرْ

أهوى اللهيبَ إذا استعرْ

وأحبُّ عاشقَ زهرةٍ مسبيّةٍ

من أجل عينيها انتحرْ

يبقى نزيفُ النرجسِ المذبوحِ

يُهدينا الثمَرْ

والجرحُ في صَدْرِ البلابلِ مأتمُ الضوءِ

المُلوّنِ حين بعثَرَهُ الجنودُ

على ترابي فانكسَرْ....

الشاعر هنا لا ينقل إلينا مشاعرَ عادية، بل يعيش ألمَ الغربة كما يعيشها كل فلسطينيّ خارج وطنه منتظرًا عودةً ظافرة إلى أحضان الوطن.

إن هذا الوطن هو الحياة والهمّ، وهو البداية والنهاية، وعذابات الأجيال السابقة واللاحقة، وآمال المستقبل من وحي الإرث التاريخي العظيم.

ونصل بالقصيدة إلى نهايتها بصورة من التفاؤل الذي عهدناهُ في الشاعر في أغلب قصائده:

يا عطرَ أرضي!!

يا ترابي !!

يا حجرْ !!

ما اجتاحَ إعصارٌ كرومَ بلادِنا

إلا تكسّرَ واندحَرْ

سيجيءُ بالأخبارِ يومٌ مُنتظرْ

رأينا في القصيدة صوتين، صوتَ الواقع من خلال صورة الفلسطيني، ودفاعه وأمله في تحقيق النصر، وصورةً مضادة تمثل الوجه الغريب عن الديار، وهو الوجه الصهيوني الذي يعيش على رائحة الدماء، هذا الصراع بين القوتين لابد وأن يأخذ مداه إلى أن يأخذ الحق مأخذه من الظالم.

والسؤال هنا هل استطاع الشاعر أن يُحدث الأثر الانفعالي من خلال القصيدة ؟

إن المدقق في بنية القصيدة من ناحية الشكل والمضمون، لابد وأن يشعر بأن الشاعر منح القصيدة من ذاته ومشاعره ورؤاه ما يجعل القصيدة تظهر بشكل مبدع، فأحدثت الأثر الانفعالي بدءًا بالعنوان مرورًا بالانسياب الفكري والتلاحم بين أجزاء الصور التي تآلفت بشكل واضح مما أبعد الشاعر عن تفتيت العناصر المكوِّنة للصورة، حتى رأينا تشابك الألفاظ ضمن مدلولات جديدة يمكنها التأثير في النفس.

لقد أبرز الشاعر في هذه القصيدة جانبًا كبيرًا من جوانب الحياة في المجتمع الفلسطيني، وأبرزَ صُوَرَ المعاناة بصدقٍ ضمن إطارٍ فنيٍّ وموضوعيٍّ مُبدع.

• • •

وننتقل إلى قصيدة أخرى من ديوان " آهِ.. يا أسوار عكا !! " وهي بعنوان "زرقاء اليمامه" والمدقق في القصيدة يشعر بأن الشاعر يكتب تحت تأثير الهياج النفسي والعاطفي، وهستيريا السخط والتمرد والتسلخ والانسحاق.

هذه الكلمات تقدّمت ديوان الشاعر والقصيدة التي يقول فيها:

عاصفٌ حزني كأشواقِ الحمامة

كلُّ ما حولي حريقٌ

وخواءٌ... ورياءٌ

وانكفاءٌ... ودمامة

كلُّ ما حولي غبارٌ

وانكسارٌ... وانهيارٌ

إنه الحَمْلُ الذي أفضى

إلى الأوهامِ... والأحلامِ

في رأسِ النعامة

هذه الانعكاسات النفسية التي ساقها الشاعر، يحدِّد فيها أبعاد المأساة والرؤية الضبابية التي يعيشها وزفرات الألم تتلون بتغير الموقف والزمان.

إن هذا الموقف الذي يتفجر من الشاعر سببه الحب للأرض، وهو الذي يصنع الغد المشرق من خلال الإصرار وليس الاستسلام. إن كل ما حول الشاعر سراب، وانكسار وذلّ ومهانة، ولا يمكن أن يفضي إلى نهاية طبيعية، فقد رسم صورة صادقة للاستبداد بأسلوب سهل بسيط فيه كثير من المرارة ويعكس واقع الحياة الذي يعيشه الشعب الفلسطيني.

اكتبوا عن فارسٍ
أنكرَ بعدَ الكرِّ والفرِّ حُسامَه
اكتبوا عن شاعرٍ
أنكرَ في سوقِ الشعاراتِ كلامَه
أيّها القوسُ !! الذي
يعشقُ قبلَ الشدِّ والمدِّ سهامَه
هاكَ سَهمي!!
فأنا القوسُ الذي هشّمَ عِشقُ
الأرضِ والأهلِ عظامَه
إنني الناعي

وحَوْلي كلهم أعمى ويدعو..!

إنما العمياءُ زرقاءُ اليمامة

الشاعر يبحث عن إنسانيته المنسحقة وحياته التي سُرقت منه، ووطنه الذي ضاع بين ركام الحياة، عله يجد في ذلك مخرجًا من هذا الواقع المُرّ.

إن الإنسان بدون وطن لا يمكنه أن يشعر بمتع الحياة، وتقلبات الزمان، ولذا نجد هذا الفلسطيني قد زرع وطنه في قلبه، لعيش حالة الانتماء التام لكل الوطن.

آهِ يا أحزانَ أهلي

يا بكاءَ الصخرِ.. يا مُرَّ المرارة

كلُّ ما حولي عيوبٌ... وثقوبٌ وقذارة

كُلّهم يحملُ في العُنقِ شعارَه

وينادي:

اتبعوني!!!

اتبعوني!!!

أولدُ اليومَ نبيًا

من دياجير الدعارة

أحرسُ الفكرَ الفلسطينيَّ
في جوفِ محاره
أحسمُ الموقفَ
والموقفُ في قاموسِيَ الكاذبِ
ربحٌ وخسارة
آهِ يا أحزانَ أهلي !!
كلُّ ما حولي انخذالٌ وتجاره
كلُّ ما حولي
وجوهٌ... عاهراتٌ مستعارة

"آهِ يا أحزان أهلي !!!".. نقلنا الشاعر من خلال إحساسه بآلام أهله، ومعاناتهم، هذا التوجع مقترن بكل معاني الأسى الذي انسحب أيضًا على الجماد، فنحن نعيش تحت سلطة لا تعرف معنى للحياة، ولا قيمة للإنسان، فكانت تلك الصرخاتُ المُدَوِّيةُ تحملُ حالةً من الأسى الذي يعيشه الشاعر والأهل:

كِدتُ أنسى صوتَ أرضي
وصهيلَ الخيلِ في سهلِ المضاضَه
كِدتُ أنسى فارسًا
يأتي من الآلامِ
كي يفدي حياضَه

كِدتُ أنسى اسمي... ورسمي
وجذوري...وقبوري
لا غضاضَه !!
فأنا الآتي من المجهولِ
شوقًا ولهيبًا وانتفاضَه
أيّها الجمهورُ!!
هذا موقفي الباكي
على أطلالِ أخلاقِ العَهاره
لا تحاسِبْني!!
فإني شاعرٌ أعطى
ولم يأخذْ سوى
جَمْرِ الطهارة

في الأسطر السابقة نشعر بتبرم من الشاعر ناتج عن الواقع، فهذا الزمن الذي يعيشه يضيع فيه الحق، وتضيع فيه كل القيم والمثل الحقيقية، ويتحول فيه الإنسان إلى مجرد خيالات لا قيمة لها، فكأن الإنسان أصبح جسدًا بدون روح، أليس هذا الزمن هو الذي دفع الشاعر لينسى كل شيء.

فنحن إذن مع شاعر رومانسيّ حالم، ووطنيّ جارف، وقوميّ متوقد، وإنسانيّ عميق التأثير، يحملُ على عاتقه آلامَ الوطن،

وهمومَ الحياة، وعشقًا للموت من أجل الحياة الكريمة، وإصرارًا على التحدّي والمواجهة.

• • •

تلك هي رؤية متواضعة في مسيرةِ شاعرٍ متميزٍ في فكره، ومتفردٍ في إبداعِه، علنا استطعنا أن نوفيَه حقه، وما الدراسةُ التي بين أيدينا سوى نقطةٍ من بحر عطائه المتجدِّد فكرًا ومضمونًا ومنهجًا، ومازال الشاعرُ يبدعُ من مَعين الأرض والوطن، والتراث من أجل تحقيق الحرية المنشودة، والعدلِ المفقودِ في زمن الاعتقال الفكري، والأمل الضائع ومن خلال هذه الوقفة أمكننا أن نقفَ على بعض الحقائق:

١- صاحبُ قلمٍ متميز، وشاعريةٍ خصبة، ولغةٍ حادّة، ووطنيةٍ متأصّلة، وإنسانيةٍ عارمة.

٢- الثورةُ في شعر الشاعر مبنيةٌ على منهجيّةٍ خاصّة بالشاعر، فهو لا يكرّرُ نفسه من خلال إصداراته، ولا يقلد الآخرين، وإنما مثقفٌ واعٍ، ودارسٌ لكل المدارس والاتجاهات المختلفة.

٣- شاعرٌ صاحبُ قلمٍ خاص، ومنهجيةٍ متميِّزة، مع تنوُّعٍ في الموضوعات، وفي الأفكار.

٤- لم يقفْ بشعره على لونٍ واحد، بل نوَّعَ في الشكل، فسار على بنية القصيدة العربية التقليدية، وقصيدة الشعر الحر، وغيرها من الأشكال المختلفة التي تطلبتها التجربة.

٥- النضالُ والثورةُ نتيجةٌ طبيعيةٌ للواقع، فهو لا يبتعد عن الواقع في رسم معالمه، وإبراز مؤثراته من خلال تفتيت العناصر لينقل إلى المتلقي كل ما يريد دون عناء، وإن كان الأمرُ أحيانًا يتطلب منا الوقوف طويلاً أمام إبداعاته.

٦- يرصدُ من خلال شعره كلَّ الصوَر، كما يرصد كل المآسي التي حدثت وتحدث للشعب الفلسطيني مبتعدًا عن الغلو.

٧- إن ولادةَ إنسانٍ فلسطينيٍّ جديد من واقع الألم ظاهرةٌ تبرز التحدّي بكل صُوَره، والمواجهةَ بكل أنواعِها.

٨- يبقى الشاعرُ علامةً مضيئةً في دنيا الشعر، وأحدَ رموزِ التحدّي في مواجهةِ العدوّ الإسرائيلي.

هذا ومازال الشاعرُ يصدحُ بشعره الإنسانيّ الذي يمثلُ خروجَه إلى دنيا العالميةِ المحطةِ الفارقةِ في حياته.

عن كتاب :

إضاءات في الشعر الفلسطيني (١٩٩٨)

قراءةٌ فنية في ديوان " صارخٌ في البرِّية "

الصِّدقُ الاستثنائيّ واللغةُ الحيّةُ الواعيةُ في شعر شفيق حبيب

الدكتور يحيى زكريا الآغا

الدوحة - قطر

يقول نزار قباني: "إذا أخذنا دبوسًا ووخزناه في يد المواطن العربي فإنه يتدفقُ شعرًا، بل وهجًا"

هذه الرؤية للشاعر الكبير، هل تنطبق تمامًا على الشاعر العربيّ الفلسطينيّ شفيق حبيب، عندما تتدفق منه مشاعرُ فياضةٌ بلون الدم، فيشتعل في داخله، ثم يضيءُ وهجًا أخضرَ، يعكس ذاتَ الشاعر عندما يرسله على بياض الورقة أو سوادِها أو عندما يقع على أذن المتلقي؟؟.

الشاعر يمتلك رؤيةً واعيةً لواقع الحياة الفلسطينية، وما تحمله من أبجديات بلون قوس قزح، وإن طغى لونٌ أسودُ عليه نتيجةَ الواقع المُعاش الذي فرضه الاحتلالُ الإسرائيليّ على الأرض الفلسطينية، أو الواقع العربيّ، فعبَّر عن مشاعره بصدق استثنائي، وبلغةٍ حية وواعية، وموحية، فحملت قصائدُه زخمًا

فكريًا رفيعًا ونقيًا من خلال ثلاث لوحات تعتبر نماذجَ من الشعر الجيّد، برزت في ديوانه " صارخٌ في البرِّية ".

إن الشعر الجيِّد هو الذي نقرأهُ فتتجاوب معه المشاعر، ونسمعُه فتتأثر به الأفئدة، فينعكس إيجابًا على نفسية المتلقين، أما الشعر الذي ينعكس سلبًا بعدم الفهم، فليس بشعر مهما بلغ المضمونُ من أفكار، ومهما ارتفعت القيمة الفنية له، وهنا تبرزُ القيمة الحقيقية للشعر من خلال النص، والشاعر من خلال إبداعه، وهذا ما قرأناه في ديوان:"صارخٌ في البرِّية"... هذا، ولا يقفُ الأمرُ عند هذا الحدّ، بل الشعر الجيّد هو الذي يواكب المرحلة، ويستشعر بما يكون عليه المستقبل، كما في قصيدة "شاعرٌ وسراب" التي قالها قبل الانتفاضة الثانية (هبة الأقصى).

ثلاثةَ عشرَ ديوانا شعريًا، هي خلاصة تجاربَ متجددةٍ كان آخرها هذا الإبداع "صارخٌ في البرّية" المكتنز بتجاربَ خاصّة وعامّة، فاضت بها قريحةُ الشاعر على مدى عامين بعد ديوانه المتميِّز "لماذا ؟؟" الذي يُعتبر نقلة موضوعية في الأسلوب والأفكار، وإن كان الطريق الذي ارتسمه الشاعر لنفسه منذ أول ديوان له، برز واضحًا في المجموعة الشعرية الأخيرة، وما زال يسيرُ عليه.

الديوانُ ليس جديدًا في بنيته عن الدّواوين التي صدرت للشاعر ولكن الجديد هو الموضوعات المتجددة نوعيًّا في العديد من القصائد، ولكن ما استوقفني هو لغة "الترسل" الشعري الذي يمثلُ نقلة نوعية في المضمون، فجاءت قصيدتاه للشاعرة المبدعة (فدوى طوقان) شاعرة فلسطين دون منازع، والتي أصدرت ترجمة ذاتية قبل أكثر من ثلاثين عامًا، والشاعرة (أنيسة درويش)، رؤيةً واقعية، ليهمس من خلالهما بمكانة هاتين الشاعرتين، ودورهما المتميز في الحياة الأدبية والشعرية بصفةٍ خاصّة، فابتعدت قصيدتاه عن المباشرة، وأتقن - كعادته - لغة الإيحاء، فاكتنز النصان بدلالاتٍ ذات قيمة فنية وموضوعية وفكرية تتناسب مع المكانة الكبيرة التي تحظاهما في نفوس كل الشعراء العرب والفلسطينيين على السواء.

صحب التجديدُ الأسلوبَ والفكرة والبناء، فلم يعتمد على بناءٍ واحد، وإنما نوّع كعادته في المجموعة، وركب بحورًا مختلفة من بحور الشعر، وهذا طبيعيّ، أن نجدَ هذا التجديدَ المتنوعَ في البناء الفني والشكلي عند الشاعر شفيق حبيب، وهذا بطبيعة الحال فرضته طبيعة التجربة التي يعايشها بكل زخمها، إضافة إلى محافظته على البناء الأصيل للشعر العربي الذي يعتمد على صدرٍ للبيت، وعجْز.

ولعلني لا أبالغ إذا قلت بأنه أول ما لفتني وأعجبني في هذه الباقة الشعرية، أن الشاعر ضمَّنَ مجموعته، لوحة متميزة بعنوان "أغاني الرّفراف" تضمّنت ستَّ قصائد.

وإذا كانت بعض المذاهب النقدية المعاصرة تحاول الفصل بين شخصية الأديب ونتاجه الأدبي، ولا ترى بينهما توافقًا أو تزامنًا، فإن المجموعة التي بين أيدينا تدحضُ هذا الرأي، وتؤكد التلازم بين الفن وصاحبه، حتى أننا نستطيع أن نستدل بالكثير من القصائد على أن قائلها شفيق حبيب، لما تتضمن من معانٍ وأفكار، ومضامين، لا يتطرّق إليها أحد سوى الشاعر ذاته.

هذا وبعد دراسة متأنيَة للديوان، يمكنني القول:

ـ الملاحظة الأولى:

تتعلق بالعنوان "صارخٌ في البرِّية" إذ يُظهرُ ثورةً داخلَ اللاشعور الذاتي، فهو يقوم بإيحائه على المشاعر والأحاسيس المختزنة في ذات الشاعر، المستمَدّة من الواقع المُعاش، وكيف لا، وهو يرى الواقع كل يوم أكثرَ سلبيّةً من الأمس، لهذا نجد أن العنوان مرتبط بالزمان والمكان ارتباطًا مباشرًا بل ويحاكيه من خلال إيحاء العنوان، بكل ما يتضمّنهُ معنى الإيحاء.

"الصّراخ" كامنٌ يحمل في النفس دلالاتٍ وربما يتحوّلُ إلى انفجارات أحيانًا، يُعبّرُ عنها اللاشعور، ويُبرزه الشعور، فكان التلاحم بين عالمَين، أحدهما ذاتي له إرهاصاتٌ خفيّةٌ مستمَدٌّ من الواقع، والآخرُ ظاهرٌ، كشفهُ العنوان، ثم أبرز أن هذا الصّراخَ لا صدىً له، ولو كان له صدىً لتحوّلَ إلى (صارخٌ في المدينة)، لهذا فهو غير متفائل من الواقع العربيّ، أو ما يدور على الساحة الفلسطينية.

ـ الملاحظة الثانية:

اتساع رقعة الموضوعات والقضايا التي تشغل الشاعر، وعلى رأسها قضيته الأساسية وهي الوطن، وهو الجرح الذي لم يندمل حتى الآن، فجاءت القصائد مكثفة، ومعمّقة، وترتفع فيها القيمة الأسلوبية، وإن نحا في بعض القصائد إلى الأسلوب الانفعالي الذي يكشف طبيعة الشاعر الثائرة، وهذا ليس جديدًا في دواوينه، بل نجده ماثلاً في ديوانه الأول: (قناديل وغربان) الذي صدر عام ١٩٧٢.

ـ الملاحظة الثالثة:

ارتباطُ الشاعر بالواقع ارتباطًا مباشرًا، وتفاعُله معه بأشكاله وصوره، كيف لا وهو صاحبُ قضية ما زال يعيش آلامَها المستمدّة من نبض الشارع الفلسطينيّ يوميًا، ومن واقع الأرض التي تتحوّل إلى صحراء جرداء، فترجَمَ هذا مع ما

يمتلك من إمكانات لغوية، شعرًا حاكى تمامًا هذا الواقع المؤلم، فمنح للنصّ تجديدًا فكريًا وبنيويًا وفنيًا، وأكسبه بعدًا إنسانيًا، حتى أننا نرى اليوميَّ جزءًا من حركة الزمن داخلَ النصّ.

ـ الملاحظة الرابعة:

أسهمتْ ثقافةُ الشاعر المتنوعة في تعامله مع التراث بأنواعه المختلفة، العقيدي والتاريخي، والأدبي، والأسطوري، مما أكسب النص لغة جديدة داخل النصّ الشعريّ، فاكتنز من خلال هذا التراث بالدلالات الموحية والمعمّقة، وهذا يدعونا دائمًا على الارتباط بهذا الإرث المعمّق، لأنه يؤصّل للتاريخ تأصيلاً جيدًا.

ـ الملاحظة الخامسة:

يربط الشاعر بين المستوى الانفعالي الكامن في اللاشعور الذاتي، والمشاعر المثيرة لأي شيء في الحياة سلبًا وإيجابًا فيرسله إلى اللاشعور الكلي المتصل بالمتلقي، وهذا يجعل الشاعر في تواصل واتصال دائم بواقع الحياة، وذلك مما يتميز به شعراء فلسطين، وخاصّة شعراءَ المثلث والجليل.

ـ الملاحظة السادسة:

هناك علاقة واضحة بين البنية الإيقاعية المركبة للزمان والمكان، والبنية الدلالية للنصّ، وهذا يدلّ على وعيه الكامل بالعمل الشعري، وارتباطه الوثيق بالتجربة ارتباطا حميميًا، مما يجعل لغة الشاعر أكثر تأثيرًا وإيحاءً.

- الملاحظة السابعة:

امتلاك الشاعر لناصية اللغة العربية، بدا واضحًا من اهتمامِه بالكلمة وتوظيفه لها توظيفًا متميزًا، مع حرصه الشديد على التعامل مع الأبجدية العربية بحِرصٍ تام، لذا ندرتْ الأخطاءُ اللغويةُ، والنحويّةُ في الديوان إلى درجة كبيرة، فاكتنزت بالكثير من الإيحاءات والدلالات بما أسهم في رقيّ القيمة الدلالية للكلمة.

- الملاحظة الثامنة:

لغة الترسّل الشعري ليست جديدة في ديوانه، ولكن الجديد هو التكثيف الشديد في هذا البناء بعيدا عن المغالاة، وأتمنى أن أقرأ ردًّا للشاعرة فدوى طوقان على هذه القصيدة كما هي عادة الشعراء الكبار، وهنا أذكر قصيدة للشاعرة أرسلتها إلى الشاعر الفلسطيني كمال ناصر، وجاء الردّ من الشاعر على نفس البحر، وضمَّتها إلى مجموعتها الثانية "وجدتها" إضافة إلى العديد من الرسائل الشعرية التي أرسلتها الشاعرة إلى محمود درويش وسميح القاسم عندما التقيا لأول مرة بعد حرب ١٩٦٧، وجاءت الرّدود في مجموعاتهم الشعرية اللاحقة.

فلغة الترسّل الشعري، شحَنته بإمكانات فكرية وفنية جيدة، لذا جاءت متكاملةً فكريًا وتركيبيًا في القصيدتين، (لفدوي طوقان وأنيسة درويش) وشحنت ألفاظه بدلالاتٍ وإيحاءاتٍ متنوّعة.

- الملاحظة التاسعة:

يعتمدُ الشاعر في بعض صوره الفنية على الرّمز أو الاستعارة المُرَمّزة التي تهيئ للمضمون عمقًا وامتدادًا، وهذا يُكسِبُ النصّ قيمةً دلاليةً وأسلوبيةً عالية.

- الملاحظة العاشرة:

إنَّ أخصَّ ما استرعى انتباهي في هذا الديوان، أن ما فيه من شعر يشعّ بالوفاء للوطن، وللقصيدة الشعرية، وإلى الانتفاضة الفلسطينية الثانية، حيث ينطقُ النصّ بالوفاء لكل الشهداء الفلسطينيين، والوفاء للعراق بكل ما يزخر من أصالة وعدالة.

- الملاحظة الأخيرة:

تتمثل في قصيدة لوحات "انكسارات حادّة " حيث طغى الأسلوب الخطابي على كل لفظة منها، وكان الشاعر فيها يعيش مرحلة من مراحل الألق الفكريّ النابع من واقع يراه هو مؤلمًا ويراه بعض الشعراء (الذين يعنيهم) واقعًا يجب التعامل معه.

- البنية الفنية في الديوان:

الديوان يجمع ثلاث لوحات:

الأولى: (انكساراتٌ حادّة) ، والثانية: (وردتان فلسطينيّتان) والثالثة: (أغاني الرّفراف).

على المستوى النصّي، اعتمد الشاعر في كثير من قصائده على البُنى الحوارية بصيغة المخاطب، ولكنه في معظمه جاء حوارًا ذاتيًا، وأعتقد أن سبب ذلك يرجع إلى رغبته في ممارسة الحرية الخاصة التي يجب أن يمارسها في النص الشعري، حتى يمنحَ لنفسه القدرةَ على التعبير عما يريد، كما نرى ذلك في مجموعاته السابقة، فيصوغها بالصورة التي يريد.

كذلك اعتمد الشاعر على الرّمز الشفاف الذي يكشفُ طبيعةَ الشاعر الواضحة، وبرز ذلك في رمزية العنوان، ورمزية النص، ورمزية الصّوَر، والتراكيب، مستعينًا أحيانًا بمعجم لغويّ يحاكي فيه هذا الترميز، حيث وظفه بما يتناسبُ مع الموقف الشعوريّ، وقد برز هذا في معظم القصائد الوطنية.

هذه قراءةٌ متواضعةٌ في ديوانٍ جديدٍ لشاعرٍ كبيرٍ من شعراءِ فلسطين.

جريدة " الاتحاد الحيفاوية "

٦-٤-٢٠٠١

شفيق حبيب

في

" أنا الجاني "

التنوّع في بنائية النص الشعري

الدكتور يحيى زكريا الآغا
المستشارُ الثقافيُّ لسفارة فلسطين
الدوحة / قطر

ما بين عامي ١٩٧٢ وَ٢٠٠١ صدرَ للشاعر الفلسطينيّ أربعَ عشْرةَ مجموعةً شعرية، ملتصقةً بفلسطين، أرضًا، وسماءً، وتمثلُ في نفس الوقت إضاءاتٍ في الشعر الفلسطينيّ المعاصر، تعكسُ الواقعَ الفلسطينيَّ بكل همومه ومعاناته.

واليوم، يضيفُ زنبقةً جديدةً إلى مجموعاته السابقة، ليفوحَ شذاها على الوطن، رغم انبعاثِ رائحةِ البارود وهو يخترقُ أجسادَ الأطفال الذين يدافعون عن مستقبلهم، وآمالهم، وزيتونهم، وأرضهم.

أعترفُ أخي شفيق، مثلك اليوم بأنني الجاني على نفسي بطريقتي الخاصّة، عندما قبلتُ العملَ في الحقل الدبلوماسيِّ، لأنه صَرَفني عن ممارسة عِشْقي الأوحد، وهو الأدب الفلسطينيّ لأنه المنهلُ الوحيدُ لفكرٍ يجب أن يلتصقَ بالأرض، وليس هناك أعظمُ من شعرٍ يصدر من شاعر فلسطينيًّ، وخاصة أبناء المثلث والجليل، لهذا أصبحت مُقِلاًّ جدًا في الكتابة الأدبية، وكم كنت أتمنى رحلةَ العمر للوراء لأرفضَ ما عُرض عليّ، وأقفَ أمام السبّورة شارحًا لهم أدبَ القضيةِ الفلسطينيّة، أو درسًا في النحو العربيّ.

المجموعةُ الشعرية "أنا الجاني" وقصائدُها الواحدة والثلاثون، أضاءت لي دربا حسبته أصبح مظلما، وفتحتْ أمامي نافذة خلتها مُغلقة، فهبّت منها نسائمُ الوطن، لتوقظني من غفلةِ الحياة، وتهْديني إلى دروب المثلث والجليل، فما أن جاءَ الصوتُ الحبيب من "شفيق حبيب" عبر الهاتف ليهدي إليّ المجموعة الشعرية، قفزتُ طربًا، لدرجة أنها وصلتني نفسَ اليوم الذي أرسلت فيه من فلسطين.

الديوان بأقسامه الأربعة يتسِمُ بالوطنية، والشفافية، والإخلاص والوفاء، وهي عناصرُ مكوِّنةٌ للمجموعة ولذات الشاعر معًا، بل هي جزءٌ من وجيبه، مع ما يلفّ كل ذلك من الصِّدق الإنسانيّ، معتمدًا على هذه المكوِّنات من بداية الجزء الأول "مَنْ ضيّعني؟"

مرورًا بـ" من رحلوا كبارًا " وَ " كلمات دافئة" وأخيرًا " من حقيبتي".

القصائد تمثل رافدًا ثرًّا وغنيًا من روافد العطاء المتجدِّد للشاعر، أكسبَهُ الكثيرَ من الخصوصية الأسلوبية، وإن كانت كثيرةٌ هي الروافد التي تصبُّ جميعُها في نهر واحد هو فلسطين.

إنَّ التجربةَ الجديدةَ للشاعر من خلال المجموعة تعكس تعدُّدَ وسائل التعبير عن تجربته، ولكن الأبرز هو التنوع في بنائية النصّ الشعري، حيث يفتتح بقصيدة خليلية تارة، ثم ينتقل إلى التفعيلة، وهكذا ينوّع الشاعر، مانحًا كلَّ تجربة ما يناسبُها إيقاعًا، وفكرًا، ووجدانًا، وهذا يسوقنا إلى استنتاج مُهمّ، بأن الشاعر أدرك أن التأثيرَ لا يقتصرُ على الإلقاء كما كان في الماضي، بل أصبحَ عن طريق القراءة التي تتطلبُ من الشاعر إدراكًا أوعى للصورة، وحِسًّا أعمقَ للمعنى، وتلاحمًا أوثقَ مع الكلمة، وهنا برزت وبشكل واضح في الديوان لغةُ التشخيص، والإيحاء، والرمز، للخروج من دائرة المباشرة، وهذا تطلب من الشاعر - كما نرى- لغة النغم الهادئ، مبتعدًا عن لغة الخطاب الصاخب، وصاحَبَ ذلك بحور الشعر البسيطة.

مَن يرجع إلى مجموعاته الشعرية السابقة، يلحظُ اعتمادَ الشاعر في كثير منها على لغةٍ صاخبة، سواء من إيقاع اللفظ،

أو تأثير المعنى، والفارق بينهما، لا يقللُ من مكانة الشعر والشاعر، لهذا اعتبرنا كما قلت في البداية، بأنها تجربةٌ جديدة، وأرجعها إلى تقديرات خاصة بالشاعر، يمكننا الاقتراب منها، ولكن في دراسة مفصلة أكثر عمقًا.

لم يكتفِ الشاعر بالوقوف على القضية المركزية، وهي القضية الفلسطينية بالنسبة له، ولجميع الشعراء الفلسطينيين، بل شقَّ الغبار عن وجه دجلة والفرات والنجف الأشرف، وبغداد والبصرة، معتبرًا بأن شمسَ الحرية ستبزغ من خلف غمامة سوداءَ قادمةٍ من الغرب، مذكرًا بتراث بغداد، وحضارة الرافدين التي تؤسِّسُ ولا تستسلم.

إن الصورةَ الجيدةَ في النص الشعري، هي التي تجعلنا نرى من خلفها الوجهَ الحقيقيَّ للمعنى، وهذا ما برز جليًا في جميع القصائد، ساعده في ذلك، تنويعُه في تبيان الصُّوَر الجزئية الحركية والصوتية والسمعية والحركية واللونية، حتى أننا نكاد نسمع بأن الكلمة تشي بجمالها.

وإذا كانت المتناقضات والمتضادات، جزءًا من الموسيقى الداخلية، لغة من البديع، فقد وظفها الشاعر بأسلوب مبدع، عكسَ قدرةَ الشاعر على تملكهِ لغةً شعريّةً جيدة.

القدس هي حجرُ الزاوية في المجموعة، وقد أضافت للمجموعة قيمة فنيّة، ووطنية متميزة، حيث يرسل من طرف خفي برسالة

تعكس خطورة ما يحيق بهذه المدينة المقدسة، التي ما فتئت تناجي عن قرب وبعد، علّ المترنح أمام الأبواب المغلقة، يصحو على صوت ينبلج في الظلام مناديًا " الله أكبر " ومتجاوبًا مع صوت أجراس من كنيسة القيامة يدعو "حيّ على الجهاد".

أطفالُ فلسطين، زنابقُ القبور... ينابيعُ المستقبل، لا مستقبلَ لهم في ظلِّ رصاص الغدر الذي يغتال شجر الزيتون، ليطفئَ قناديل الحقيقة عن ممارساتٍ تُرتكبُ ضدَّ البراءة والطهارة والحياة.

لكن الشاعر شفيق حبيب الأكثر حنقًا على الوضع المحيط عربيًا، هو أكثرهم تفاؤلاً بمستقبل سيكون باسمًا لأطفالٍ سيرسمون لوحة الحرية والنصر على حبة الزيتون والقمح.

وإذا كان الوفاء جزءًا من مكوِّنات الشاعر، فإننا نضيء شمعةً معه أمام ضريح الشهيد " فيصل الحسيني " وبذلك نكون قد عبَّدنا الطريق أمام فارس جديد كـ"فيصل" يكون مؤتمَنًا على القدس ومؤسساتِها التي انكمشت بعد رحيله في ساعة الظهيرة.

الشاعر ينقلنا كذلك في لفتة كريمة وفيّة لتأبين صديق عمره "توفيق العفيفي" والشاعر الكبير "شكيب جهشان" الذي كان لي شرف رثائهِ بإحدى الصحف المحليّة الفلسطينيّة.

أما الكلماتُ الدافئة التي أرسلها لسيادة/ المطران بطرس المعلم، والأم، وفيروز، تعكسُ أصالةَ الشاعر.

الشاعر ـ كما قلت ـ نمطٌ فريدٌ من المبدعين، حملَ لواءَ الكِلمة، فأصبحَ الجاني، وامتشقَ سيفَ العدل، فأصبحَ القاتل، وصرخَ بكلمةِ الحقّ، فكان رهينَ الجُدران الصّمّاء، لكنه كما قلتُ كطائر الفينيق، ينبعثُ من جديد.

ويبقى الديوانُ إضافةً جديدةً إلى لغةِ البَيان،
نهنئُ به أنفسَنا والشاعرَ، وفلسطين.

الدوحة / قطر : ٣٠-٥-٢٠٠٥

الاتحاد الحيفاوية : ٣-٦-٢٠٠٥

شفيق حبيب

مسيرةُ عطاءٍ وشاهدٌ على العصر

الدكتور نادي ساري الديك

وُلِدَ الشاعر شفيق حبيب عام ١٩٤١ بقرية دير حنا، حيث أنهى دراسته الابتدائية بمدارس القرية والثانوية بالمدرسة الثانوية البلدية بمدينة الناصرة عروس الجليل، وقد درس المحاسبة في دار الموظف بحيفا ليخرج إلى الحياة بدبلوم محاسبة، وقد انتسب إلى معهد الصحافة والعلاقات العامة بالمعهد البريطاني بمدينة القدس.

إن توجّهات شفيق نحو الصحافة والمحاسبة لم تثنِه عن قول الشعر والتفاعل معه، إذ برز نشاطه الأدبيّ من خلال مشاركته في المهرجانات الشعرية وفي الصحافة اليومية والمجلات والإذاعة كذلك، تلك السُبل التي عرّفته بالناس وجعلت الآخرين يعرفونه، فإلى جانب المحاسبة والشعر نجده يكتب المقالة السياسية والنقدية معًا مما جعل نتاجَه متنوعًا، والشاعر غزير النتاج (إلى حدٍ ما) فقد أصدر أربعة عشر ديوانًا شعريًا ـ حتى عام ٢٠٠٥ ـ هي :

١. قناديل... وغربان : القدس، ١٩٧٢ ـ شعر.
٢. مأساة القرن الضليل : الناصرة، ١٩٧٦ ـ شعر.
٣. دروب ملتهبة : الناصرة، ١٩٨٠ ـ شعر.
٤. وطن وعبير : الناصرة، ١٩٨١ ـ شعر.
٥. أنادي : أيها المنفى !! : الناصرة، ١٩٨٤ ـ شعر.
٦. أحزان المراكب الهائمة : الناصرة، ١٩٨٧ ـ شعر.
٧. الدم والميلاد : الناصرة، ١٩٨٨ ـ شعر.
٨. العودة إلى الآتي : الناصرة، ١٩٩٠ ـ شعر.
٩. ليكون لكم فيَّ سلام : الناصرة، ١٩٩٢ ـ شعر.
١٠. آه يا أسوار عكا : الناصرة، ١٩٩٤ ـ شعر.
١١. تعاويذ من خزف : الناصرة، ١٩٩٦ ـ شعر.
١٢. لماذا ؟؟ !! : الناصرة، ١٩٩٨ ـ شعر.
١٣. صارخٌ في البرّية : الناصرة، ٢٠٠١ ـ شعر
١٤. أنا الجاني.. : الناصرة، ٢٠٠٥ ـ شعر

وقد أصدرَ الشاعر كتابًا نثريًا بعنوان "في قفص الاتهام" وهذا الكتاب عبارة عن سجلّ لوقائع معركة حرية التعبير ضدّ سياسة القمع المنهجي، كي يكون شاهدًا على الديمقراطية المضللة في وطنه، فهو جريء إلى حد كبير، وقد عرَّى كثيرًا المواقفَ التي صادفته سلبًا أم إيجابًا.

وقد شارك الشاعر في مجلات عربية وصحف كذلك نجد بعض نتاجه منشورًا من على صفحاتها.

وقد لحقه ما لحق غيرَهُ من الوطنيين، إذ صودرت مجموعته "العودة إلى الآتي" وأُعتقل الشاعر وحوكم بتهمة مساندة منظمة إرهابية ومساندة الانتفاضة، حيث أُحرقت جميع مؤلفاته التي استولت عليها الشرطة من المطبعة والمكتبات واستمرت محاكمته ثلاث سنوات؛ أي حتى العام ١٩٩٣، وقد نكث بعض المسئولين العرب(!) بوعودهم تجاهه. وشغلَ ناطقًا باسم رابطة الكتاب الفلسطينيين وعضوًا في نقابة الكتاب العرب.

شفيق حبيب من الشعراء الذين قالوا كلمتهم دون وجل أو خوف، فقد تحدّى الجبروت ولم يخضع لسلطان العبودية، فهو من الذين ساعدوا على تجسيد ملامح الثقافة الوطنية والهُويّة القومية للشعب العربيّ الفلسطينيّ، على الرغم من الهموم التي لاحقته وروَّج لها المنتفعون والقمعيون، لذا نقول إن الشاعر بدأ حياته من خلال النسج على منوال غيره من الشعراء، ونعني بذلك الفائدة التي استمدّها من سابقيه، فقد عاش في فترة حرجة إذ فتح عينيه على مآسي النكبة والهجرة وملحقاتها مما جعل ذلك ينمو في نفسه ويُظهره من خلال شعره فالذي يتصفح نتاجَه الأول يجد أن بعض التعابير اللغوية والأسلوب الذي ينتهجه إلى جانب صُوَره من الأمور المألوفة ومثل ذلك

ليس عيبًا، لأنه يُعدُّ من باب التأثير والتأثر، فليس مصادفةً أن يبدأ الإنسان مشواره عبر التأثر الذي يلازم الجميع، لذا نجد موضوعات الشاعر ليست جديدة في بداية مشواره الشعري، علمًا أن الجدّة والحداثة لا تكمن في الابتعاد عن القديم وإنما تحويل ما هو مألوف وعادي إلى شيء مُشوِّق وغير مألوف ومقبول معًا، فيكون الإنسان قد حدَّد همومه وحدَّد أهدافه وصاغها من خلال مُنطلقهِ الذي يراه مناسبًا.

فالهمُّ الوطنيّ والنزعة نحو الانتصار للوطن وقضاياه قد وجدت منافذها عبر نفسية الشاعر وأفكاره فأصبح يغني للوطن مما جعل "أغنية لبلادي" ظاهرة مألوفة وقد توَّجَها بصيغة البناء الهندسي المعهود لدى العرب تجاه قصيدتهم الشعرية، وإن جاءت تلك القصيدة وقد قاربت من الحديث اليومي أو الكلام المعهود ولم يستطع الشاعر خلق حالة التدفق الشعوري والنماء الشعري، فهي قد تكون من بواكيره حيث طبع الديوان الذي يضمّها عام ١٩٧٦، وهو "مأساة القرن الضِّليّل"، ومثل ذلك ليس جديدًا على الفن والفنانين، إذ ليس كل نتاجاتهم مُحكمة وتتدفق فيها روحية العنفوان الفني والأداء المحكم.

أغفـو علـى اسمـكِ يـا بـلادي ... وأضــمُّ جرحَــكِ في فــؤادي
إنـــي أحبّـــكِ في دمـــي ... قـــدَرًا يُعـــزِّزُبـــي عنـــادي
أهفـــو أقبّـــلُ كـــلَّ شـــبرٍ ... في الســـهولِ وفي الوهـــادِ

أشـــــتاقُ أن أنهـــلَّ مـــاءً   يرتـــوي بـــيَ كـــلُّ صـــادِ

أو أن أكـــونَ النـــورَيغْـــــ   ـــسِلُ وجـهَ أرضـي مـن فسادِ

لـــو كنـــت عصـــفورًا يحـــوِّمُ   يرتمـــــي في ظـــــلِّ وادِ

لعَشِـــقتُ أزهـــارَ الجليـــلِ   تضـــوعُ مـــن أعطـــافِ شـــادِ

وعلى مثل هذا النسج تستمر القصيدة في النماء، مما جعلها مسرحًا تعجُّ بالهموم وتعرية المواقف وبيان حالات التمني والشوق التي تلف الشاعر، وقد جعل الفكرة تسيطر على مقدرة البناء الفني، بمعنى أننا نجده وقد غلب الفكرة على مقومات الفن إلى حدّ ما، وهذا لا يعني أن القصيدة قد مُسخت، وإنما نجدها وقد تناغمت مع معطيات الحديث اليومي ولغة المباشرة والوضوح والمكاشفة، وكأن لغةَ الرفض السياسي، وقلمَ الصحافة هما اللذان تدخلا في صياغة هذه القصيدة.

فمناجاة الوطن والتبحُّر في همومه والغوص في أعماقه من سمات هذه القصيدة إلى جانب القصائد الأخرى، كما هي "رسالة إلى الشهيد" من ديوان "دروب ملتهبة..." الذي صدر عام ١٩٨٠، هذه القصيدة تجعلنا نسبح في فضاءات الشهادة والارتفاع بقيَمِها ودوافعها، لأنها مسألة مقدسة ومُرادة، فهي من قرائن الوطن، حيث بها يسمو ويعلو نماؤه وعطاءُ أبنائه الخلص، إلاّ إن هذه القصيدة قد جاءت في بنية أكثرَ تماسكًا

وتفاعلاً وإن كان للقافية ووقعها أثرٌ لا يستهان به، إلاّ أننا نلمس حالة التفاعل والتماسك في البناء الهندسي لجسد القصيدة فالألفاظ لها دلالاتها في كل شطر من أشطرها، وكذلك في قصائد أخرى، فعندما يعمد على ذكر مسألة معينة نجد ألفاظه وقد تناغمت وأصبحت العلاقة وُثقى بين المبنى والمعنى، وكأنه يعمد إلى خلق حالة التوافق بين الدالّ والمدلول وبين الإيقاع اللفظي والجَرْس الموسيقي وبين الأشياء الأخرى، إذ تتلوّن العاطفة تبعًا للواقع النفسي والتفاعل النفسي مع الحدث إلى جانب المقدرة التفاعلية والتعامل مع اللغة وبنائها الأسلوبي :

هــذي دمــاؤكَ يــا شــهيدي!! عطــرٌ علــى أرضِ الجــدودِ
مــن كــلِّ قطــرةٍ عنــدمٍ لمعــتْ ســيوفُ ابــنِ الوليــدِ
مــا أطهــرَ الــدّمَ حــينَ يُسْــفكُ في الـــدفاعِ وفي الصُّـــمودِ
مــا مــاتَ شــعبٌ شــامخٌ أقــوى مــن القــدَرِ العنيــدِ
شــعبٌ يخــالُ المــوتَ عُرْسًــا في الــدفاعِ عــنِ الوجــودِ

الواضح هنا أن معيار الحياة الصالح لدى الشاعر قد تحدّد في مفاهيم المواطنة الصالحة، والتي تبحث عن روحية الوطن ودوافع الشهادة،لأن الشهادة أقوى من الدوافع الأخرى وهي مسألة مقدسة في الأعراف والتقاليد والديانات كلها، علمًا أن

موضوع الشهادة قديم مستحدث، إلاّ أن اللافت للنظر هو جعل الشهيد ينتسب إلى الشاعر فقد ألحقه بياء النسب وخاطبه بـ"يا شهيدي !!" وهذا نداءٌ موجَّهٌ للشهيد وقد جعله حيًّا لأن صيغة النداء لا تتم إلاّ مع العاقل المستجيب للنداء، علمًا أنه ينقلنا عبر وعيه التام إلى مسألة التفاعل مع الشهيد ومواقفه وأهدافه، لأن الشهادة سمة من سمات الشعب الذي ينتسب إليه الشاعر كما يقرّ ذلك من خلال أشعاره، فعملية الولوج في مسألة الشهادة لهي من الأمور الحساسة فعلاً والمقبولة نفسيًا وفكريًا عند مريديها إلى جانب المسألة العقائدية، إذ إن العقيدة لدى الأديان تحثُّ على الشهادة في سبيل الحق فيكون الشاعر قد أفاد من معطيات الواقع إلى جانب الدوافع الدينية والتاريخية والفكرية، مما جعله يتمسك بأفكاره وينهي قصائده بالتفاؤل وإظهار ملامح القوة النفسية بدلاً من الضعف الذي يدبُّ في أجساد الآخرين.

إن عملية التغني بالشهادة لهو أمر مقصود في حد ذاته، وكأنه في ذلك يدق ناقوسًا خصَّصه لإظهار معالم الشهادة وسموِّها، وهذا نظنه إسقاطًا على حال الشهيد وما يتمتع به من مكانة وعزة لأنه خلق رابطًا أبديًا مع الناس وأرضهم التي هي بمثابة السِّتر والحياة، وخلق حالة من النبوءة الهادفة تمشيًا مع معطيات التسامي والخوض في معمارها ودوافعها، وكأن الشاعر بحسِّه الإنساني وبفطرته يقدّر ما للموضوعات التي

يطرقها من قيمة حتى يستحوذ على ألباب الناس ونفوسها ويرفع من معنوياتها كذلك، لأن خلق الإحساس بالشيء من الدوافع التي تجعل الآخرين يتمسّكون به ويدافعون عنه، وذلك انتشالاً للوعي الجماهيري الذي يحاول الآخرون تقريرَه وطمسَ طموحاته، ذلك الأمر جعل الشاعر يؤكد على أهمية موضوع الشهادة في المجتمع حيث ألحق تلك القصيدة بقصيدة أخرى هي "رسالة الشهيد خالد بن فتح الله الفلسطيني" التي وردت في ديوان "وطن... وعبير" وكأن الشاعر لم يكتف بوصف حال الشهيد وبيان مشاعر الناس تجاهه وإنما أراد أن يستبطن نفسية الشهيد ويتحدث باسمه، وهذا توكيدٌ حقيقي من الشاعر على أن الشهيد حيٌّ يرزق، لأن عملية الاستبطان تلك تنمُّ عن ذلك الإيمان حيث عودة الشهيد تدلل على مدى عمق العلاقة بين الشهيد والأرض والمجتمع الذي رُبّيَ من خلاله وبه :

أعودُ إليك يا وطني !!

أعودُ إليكْ

لألقِيَ كلّ أشواقي...

على كتفيْكْ

أقبلُ أرضَ أمجادي

وأملأ صدريَ المحزونَ عِطراً

من شذا زيتون أجدادي

أطيرُ على سهولِكَ.. أنتشي

في ذروةِ القِنن

أضمُّ ترابَكَ المهورَ من دمِنا

إلى قلبي... إلى أذني

لأسْمَعَ وقعَ أقدامٍ على التاريخ تنزرعُ

لقد كانوا هنا أسيادَ هذي الأرض.. فاقتلِعوا..

إن موضوعَ الشهادة قد استحوذ على مكانة مرموقة في شعر شفيق حبيب، وهذا ليس غريبًا لأمور متعددة، لذا نجده وقد جعل الشهيد في صورة المتكلم المنتسب والمنتمي والمتمني والمحبّ والرافض وغير ذلك، مما جعل القارئ يحسُّ بعمق الإحساس وصدق العاطفة لدى الشاعر، ونجده يمتلك حساسية عالية تجاه كثير من الموضوعات وهذا ينمّ عن مصداقيته، في التعامل مع الواقع، ومن ثم جدار الحصار الذي يفرضه الأعداء مما يجعل المسألة ضدّية حيث الضدّ يظهر حسنة الضدّ، فقد يجد المرء متنفسًا في شعره أو قد يجده يعبّر عن ذاته من خلال الموضوعات التي يطرقها.

فحبُّ الأرض والوطن والشعب والمقدّسات من لوازم شفيق حبيب الإنسان الشاعر، فهو جريء في طرح أفكاره وإيصال

معتقداته وهمومه للناس، وكأنه يشخص علاقاته مع الآخرين، وكأن حالة توحّدٍ قائمة بين حبّ الوطن والأشياء الأخرى وبين الشاعر، فعلامات الحبّ واضحة الدلالة والتمييز، وملامح التجدد واضحة وبارزة إلى حدّ كبير، وكذلك التكيف مع المسائل التي يريدها الشاعر لا التي تفرض عليه، لذلك نجده يتقمّص شخصيةَ الشهيد وينطِقها بما يريد أن ينطق إلاّ أن هذا الأمر ليس بعيدًا عن روحية الشهداء، وإن كان الشهداء غير متساوين أو متجانسين في طرح همومهم ونسج أفكارهم، بمعنى ليسوا أصحابَ أيدلوجيا فكرية متأصّلة واحدة، وإنما قد نجد منهم من يمتلك الإيمان البسيط والمسلماتي، إلاّ أن هذه الإسقاطات لم تلغِ دور الشاعر أولم تنفر الآخرين منه ومن أشعاره، فالشهيد الذي يضحّي بأثمن الأشياء (الحياة) ليس كثيرًا عليه أن ينطق كما نطق الشاعر في رسالة الشهيد المتعددة الجوانب والأفكار التي تعجّ بالهموم، حيث يجعله يتحدث بصيغة الماضي والحاضر والأمر ويروي كما كان يسمع، إلى جانب بيان حالات الاستغراب والتفجّع وما إلى ذلك من قرائن الإنسان الرافض والمحبّ معًا.

هذا الحبّ والتوحّد مع الأشياء جعلت من الشاعر إنسانًا يمتلك حواسَّ متعددة، كلها تصبّ في خدمة المبدأ الذي يؤمن به، فإلى جانب صُوَر الشهادة التي تملأ الدنيا فخارًا والنفس عبقًا وأريجًا، نجد صورًا قاتمة تدور حول شخصيات أخرى مرفوضة

كالمُخبر الذي يُتبع نفسَه للمحتل، علمًا أن المحتل لا يرى فيه سوى قمامة او مسخٍ يضرّ ولا ينفع وإن يوحي له بأهميته ومنطلقاته، مما جعل قصيدة (مُخبر... ومُحقق)، من ديوان (أنادي أيها المنفى!!) صُوَرًا صارخة تعجُّ بالكراهية والاحتقار لهذه الشخصية، وقد جعل الشاعر الشخصية تنطق بما لا تحب، لأن روحية الشاعر هي الناطقة، وكأنه يحيلنا هنا إلى قصيدة السيّاب التي تحمل العنوان ذاته "المُخبر" والذي يقول فيها السياب : "أنا من تشاءُ أنا الحقيرْ، صبّاغُ أحذية الغزاة"

إلاّ أن روحية السيّاب وشاعريته تختلفان عن الشاعر شفيق حبيب، وكذلك طريقة البدء في الحديث يكون مغايرًا إلى حدِّ المغايرة أحيانًا، وكذلك مسألة التدفق العاطفي والصعود الإيقاعي وخلق النشوة نجدها لدى السياب أعمق إلاّ آن النوايا والأهداف واحدة، وهي تعرية هذه الشخصية المذمومة والمحارَبة فكريًا ونفسيًا، وكأن عملية التحدي قائمة، بين (المتكلم = الشاعر / والمخاطب = المخبر أو المحقق) لأن عملية الإخبار والتحقيق متلازمتان وهدفها واحد، فطريقة الخطاب استفزازية مفعمة بروحية التحدّي، لأن طبيعة الصراع واضحة، حيث المحتل بفكره الصهيوني، بينما الحكومة في زمن السيّاب مثلاً كانت وطنية مرتبطة بالاستعمار، لذلك تتجدد الأفكار ويبحث عنها المريدون :

هذا أنا يا مخبرُ !!

لا أنثني – لا أنحني – لا أُقهرُ

إني ابن شعبٍ صابرٍ..

ما لان في وجهِ العواصفِ

والرياحُ تزمجرُ..

هذا أنا يا مخبرُ

يا خِرقةً يزهو بها نعلُ المُحققِ

مثلَ وجهكَ أغبرُ

طبّلْ وزمّرْ عندَ سيدِكَ المُحققِ

إنني لا أكسَرُ

ستظلّ كالمستنقع الآسنِ

في ليل الخنا يا مُخبرُ.. !!

فالتحدّي يفوحُ من صيغة الخطاب إلى جانب السخرية وعلامات التهكم والرفض: "حققْ معي ما شئتَ يا متحضرُ"، وهذا رسمٌ واضحٌ للوجه القبيح لكلٍّ من المُخبر والمُحقق، إلاّ أنه سبّق صيغة الخطاب مع المخبر على المحقق، إذ التحقيق يُبنى على ما يأتي به المخبرون، لكن النتيجة واحدة، وهي ظلم الآخرين الذين ينقل عنهم ما ليس فيهم أو ينقل عنهم ما يُغضب المحتلين، فيما يراه الآخرون عملاً إنسانيًا ووطنيًا كما هي

علامات المقاومة والتبريز، فكلما احتدم الصراع يبقى المخبر صاحب حظوة عند المخبر له، مما يجعل العلاقة سلبية بين المخبر والمُخبَر عنه، وإيجابية ولو شكلاً بين المخبر والمحقق، فكلاهما يملأ الخاتمة التي حُدِّدت لهما وهما يرتكزان إلى المغالطات والقوة، من أجل تحقيق الأهداف والامتيازات إن وُجدت، لأن المخبر في جلّ الحالات يكون من المغرَّر بهم أي من أبناء جلدة المُخبَر عنه، لذا يخلق ذلك حالة من الصراع غير المتكافئ والمتجانس أيضًا.

ومن أجل عملية التوحّد التام بين موضوعه وأفكاره وطموحات الآخرين نراه يعتمد إلى أقوال مأثورة كي ينصّص بها عنونا لديوان شعري له كما فعل مع مقولة السيد المسيح عليه السلام إذ جعلها عنوانًا لديوانه (ليكونَ لكم فيَّ سلام) الصادر عام ١٩٩٢، هذا العنوان يُعطي توجهات كثيرة لأنّ شخصَ السيد المسيح يُعَدُّ رمزًا للتضحية والفداء المتجدد، والعرب يمتلكون رموزاً متعددة قدمتْ نفسها قرابين شفاعة وفداء لمجتمعاتها بدءًا من تموز عاشق عشتار كما تقول الميثولوجيا الكنعانية الفينيقية ومرورًا بالسيد المسيح وصولاً إلى الإمام الحسين سيّد الشهداء في كربلاء إلى جانب شخصيات أخرى قد لا تصل إلى مستوى أولئك وإن اختلفت ثقافاتهم إلاّ أن النتيجة واحدة وهي التضحية بالذات وهو أسمى غاية الجود :

ودنا المطرْ

والضوءُ في قلبي انهمرْ

وأطلَّ من خلفِ الغيوبِ

الرّعدُ والبرقُ المؤجَّجُ والمُدجَّجُ بالخطرْ

وتحرّكتْ في البحر أشرعةٌ

وفي الأرض الحجرْ

وتناثرت في الجوّ أسرابُ الطيورِ

على حذرْ

ودنا المطرْ

ماتت بذورُ الورد في أرضي

وجفّ الضّرعُ واحترقَ الزهَرْ

إن الرصاصَ يئزُّ يبحثُ عن رؤوسٍ

عن صدورٍ.. عن وطرْ...

من هنا تتماثل حالة الضحية والتضحية معًا، حيث الرصاصُ عنوانُ الغدر والقتل وهو الوسيلة الناجعة التي تسهل المَهمّات وتقصّر المسافات بين القاتل والمقتول والغادر والمغدور، فالرصاص لم يكن معروفًا في الأزمنة القديمة، وإنما وسائل الغدر متعددة ونتيجتها واحدة، وكأن الشاعر يريد القول إن الرصاص يخلف آلاف الضحايا، لأن عملية التماثل في العنوان

تعني أشياء كثيرة، وكأنه يقول إن السيد المسيح الذي ضحَّى وغدِرَ ممن ضحّى من أجلهم معًا تتجدد صورته في الذين يحصدهم الرصاص في أيامنا هذه، علمًا أن الرصاص لا يفرِّق بين الضحايا من حيث العمر والعقيدة والانتماء الفكري إلاّ أن جلَّ الضحايا هم من الأطفال والصبية، الذين يشكلون أملَ المستقبل، فبقتلهم يتم غدرُنا مرتين، مرة في الحاضر والأخرى في المستقبل، لذا كان الشاعر يعي ما يقول وإن كانت لغته وصفية صارخة يبشر بانفجار نفسيّ وبأس روحيّ وبرفض عقليّ، كل ذلك يتجلى من خلال نسج المفردات التي شخصت بروز الحجر الذي يُعَدُّ سلاح المقاومة الشعبية في فلسطين.

إذن أصبح الحجر أكثر تكثيفًا في الحياة الفلسطينية الرافضة، مما جعل الشاعر ينقل هذا التكثيف إلى شعره ويُجسِّده، لذا تجدّدت الحياة، وبرزت ملامحُ جديدة، وصَوّرَ سلاحًا لم يكن معهودًا بالكثافة التي تعامل معها الناس في عصر الانتفاضة، فالشاعر في هذا المقام يُبرز صُورَ الطفولة إلى جانب صُوَر الهدم والدَّمار، وكذلك صور النزاع غير المتكافئ إذ أصبح التحدّي شاخصًا، ومتوحدًا في العشق الأزلي للأرض والإنسان، وهذا جعل لغة الشاعر إخبارية تهكمية تميل إلى لغة التخاطب والحوارات كما هي عناوين المقالات الصحفية ونشرات الأخبار الموجزة والمطولة، وكأنه يستعرض أحداثًا من خلال صورة المذيع عبر التلفاز أو بوساطة المذياع لذا جاءت اللغة شبهَ

سطحية وواضحة لا تحمل إرثًا سوى الرفض والتنكر من الحال القائم وهذان أمران يحرص المرء على تعزيز العلاقة معهما إيجابيًا وليس سلبيًا وهذا ما نراه في قصيدته بعنوان " نشرة إخبارية ":

سيداتي ! آنساتي ! سادتي !
نشرةُ الأخبار يتلوها غرابْ
طاردت قواتنا الأطفالَ من بابٍ لبابْ
قتلتْ منهم ثلاثة
بعدَ كرٍّ بعد فرٍّ ومجيءٍ وذهابْ
ألقتِ القبضَ على قائدهم – زينِ الشبابْ
عمرُهُ سبعةُ أعوامٍ وما زال طليقًا
لم يذقْ مُرّ العذابْ
فنقلناهُ إلى السجنِ
وعاد الجيشُ بالنصر المهابْ

على الرغم من بساطة التعبير واللغة المباشرة إلاّ أننا نلمس أكثرَ من صوت في هذه القصيدة، وكأن بعض الأثر الدرامي قد اتضح من خلال هذه القصيدة، لذا نسمع صوت المذيع وصوت المعلق ومن ثم صوت المنحاز للشباب وشيخِهم الذي عمره سبعة أعوام إلا أن سمات السخرية التهكمية هي السائدة، حيث

برز أسلوب القمع الهمجي، وتحقيرَ الذات المعتدية، إذ الضحية هم أطفالُ الحجارة، وتكرّس ذلك بوساطة استخدام الأطفال التي تتناسب مع روحية الهدف، فكل من الأفعال له هدفه ودلالاته المرادة، ومن أجل خلق الصورة الحركية التي توازي صورة النساء وهي تبَثُّ تلفزةً، مما جعل الأمر واضحًا وجليًا إلى حدٍّ بعيد، وقد تتعاكسُ الصُّوَرُ أو تتلاقى إلا أن النتيجة واحدة، والثوابتَ مبحوثٌ عنها من قِبَل الشاعر لسان حال الأطفال الذين هم لسان حال شعب يبحث عن ذاته من خلال ثورته، فاللفظ هنا وسيلة لا غاية، لأنه لا يبحث عن جماليات الفن واللغة وإنما يبحث عن النتيجة المبتغاة، من خلال لوحات شعرية متعددة الملامح واضحة الهدف والميل صوبَ الحق، وتتلاحق صورُ الشهادة والشهداء في دواوين الشاعر، وكأنها أحد هواجسه وانبعاثاته النفسية والفكرية معًا.

لذلك غدا التاريخ يشكلُ حالة زخمية تأخذ بيد الشاعر كي ينهلَ ما يشاء من موضوعاته وصوره، تكريسًا للفكرة التي يؤمن بها، وهي نصرة شعبه وتعرية المغتصب من جماليات إدعاءاته وبهتانه، فقد جعل من عكا متمثلة بأسوارها حالة من التفجّع والتأسي وصولاً إلى قمة الحدث وكأنه يقول إن استمرارية العذاب الواقع على كاهل شعبي جعلت السنين والأيام مُرَّة وقاسية رغم التحدي والثبات كما هي الحال مع أسوار عكا وشواطئ البحر الذي يقذف بأمواجه العاتية، من خلال ذلك

نستيقن أن الشاعر شفيق يقارن بين أسوار عكا وتحدياتها عبر الأزمنة وبين الشعب وتحدياته، بذلك جاءت صُوَرُهُ فاعلة، مما جعل حالة الغضب تتجدّد بوساطة صُوَر الشهداء الثلاثة الذين أعدمتهم قوات الانتداب البريطاني، وهذا يؤكد أن الزمن يتجدد أو يعيد نفسه لكن بصور مختلفة :

آه يا أسوارَ عكا !!
يا صدى أنّاتِ أعوادِ المشانقْ
يا حجازي... !
يا عطا الزير... !!
وجمجومَ الخوارقْ
آهِ يا أسوارَ عكا !!
أين غابَ الفرحُ الورديُّ عبرَ البحرِ
في المجهولِ
في تيهِ المآزقْ...
آهِ ! لو عادت إلى الأحضانِ
أسرابُ الزنابقْ
آهِ ! يا أسوارَ عكا !!
عند أقدامِكِ للطاعون قبرٌ
وجنازاتُ انتكاساتِ البيارقْ...

إن صُوَرَ التكرار تتلاحق، إما أن يكون تكرارًا لفظيًا أم معنويًا، كما نراه يكرِّر حرف النداء (يا) وهذا التكرار يجيء منسجمًا مع روحية نقل الخبر أو تصوير حالة التفاعل مع الحدث والتجربة، فالهدف من التكرار هنا هو خلق حالة التحدي والمواجهة وتبريز روح المواجهة وفرض مشاعر الحماس على الناس طوعًا لأنَّ تجسيد الظلم وتبريزه يؤدّيان إلى طغيان حالات الغليان والرفض والتمرد والانسياق مع الحدث واندفاعياته.

والذي يقرأ جُلَّ أشعار الشاعر شفيق يجدُ روحية المثابرة والتفاعل والأمل هي المسيطرة إلاّ أن التركيز يجدُ بعضَ الضبابية وسيطرة اليأس على النفس وتملكها، وهي أمر طبيعي ومألوف لدى النفس الإنسانية، لأنها لا تعيش على وتيرة واحدة أو لا تمرّ في خندق واحد، وإنما تتجدد الحياة من خلال تقلبها وتعدُّد خنادقها ومواقفها، فمن الطبيعي أن نجدَ مثل هذه الحالات وقد يعكسها الإنسان على أعماله وأفعاله، وهذا ما فعله شفيق الشاعر في ديوانه "تعاويذ من خزف" وبالذات قصيدته "ضياعٌ في بحر الذات" وهذا يجسد حالة الصِّدق والصراحة من الذات والآخرين، فالمتحدث إنسان له ما للآخرين وعليه ما عليهم.

ينسابُ في صوتي الضبابْ

وعلى شراع سفينتي

في بحر ذاتي

ينطوي أملُ الإيابْ

الليلُ يلفظني

فيَجْرَعُني الضياعُ والاكتئابْ

هذا أنا...

كأسٌ من المرِّ المُحنظلِ والعذابْ

هذا أنا...

طيفٌ تطاردهُ

النوائبُ... والسّوائبُ... والكلابْ

شلوٌ... قضتْ أشلاؤهُ

بين التخندقِ... والتمزّقِ... في الشعابْ

لا الذنبُ ذنبكِ يا ذئابْ

بل ذنبُ كلِّ الرافضينَ... الهائمينَ...

على متاهاتِ الخرابْ...

إن قرائن اليأس تتحدد بوجود هذا النصّ الذي انطلق من جوّانيات الشاعر وقريحته مما يجعل اللذة تستكمَل مع الاستمرارية في تتابع هذا النص، فهو مغاير للنصوص الأخرى لأن علائق النفس البشرية تتضح من خلاله، فالقوة الجائرة التي يرفضها الشاعر في عمومياته وانطواءاته النفسية تدفعه كي يستعذبَ البؤس الذي يفضله عن حياتهم والتعامل معها،

واستعذاب الألم ليس حالة شاذة هنا كما يراه النفسانيون وإنما هي حالة مُراده، اندفاعية تكثيفية إلى جانب بعضهما، مما يجعل المأساة تتجسد عقليًا بعد أن تجسدت نفسيًا ومعنويًا، وهذا يأتي بوساطة الانطلاقة من الأنا التي خالف فيها ماضيه الشعري، وكأنه يعود إلى حقيقة كانت مغيبة عنه أو كان يتجاهلها ومثل هذا الأمر يأتي بعد نضوج وانتصاب قامة شعرية لدى شفيق، وهذا يفسَّر بعدّة أوجه، منها أن شفيق الشاعر عاش حياة الأمل من خلال فنه رافضًا الواقع المرّ، أو أنه تعامل مع الواقع بالرفض النفسي وعايشه جسديًا، إلاّ أننا نجده في ديوانه وقصائده يتعامل معه نفسيًا وجسديًا، فهل هذا من أثر الواقع السلبي حيث خدع الشاعر بالناس جميعًا، أم أن العمر ما عاد يحتمل نزعات التمرّد وكما كان سابقًا، لذا جاءت هذه الأمور بواقعيتها وبسوداويتها تبرزُ الواقعَ المرفوضَ جسدًا وروحًا وفكرًا معًا.

فالشاعر هنا لا يبرِّر سوداويته أو ضياعَه بصور هشّة وإنما بصور تفاعلية مقنعة ومستقطبة مع بعض الدهشة أحيانًا، ونرى ذلك تطورًا ملحوظًا في بنائية الفن الشعري لدى الشاعر، مما يجعل هذا التتابع الواقع مؤلمًا وهذا نتيجة للخيبة التي تحيط بالآخرين من الآخرين، فالخواء الذي يعيشه الشاعر لم يأتِ من فراغ وإنما هو خواءٌ تراكمت بوادرُه منذ سنين وتصاعدت نشوتها المُرّة حتى تجسدت شعرًا جميلاً وإن كانت

سوداويته غالبة على غيرها، ومثل ذلك نجده عند الشعراء المرموقين أمثال السيّاب وقبّاني والبياتي وغيرهم، وهذا ما تؤكده بعض مقطوعاته من الديوان ذاته :

يؤرِّقني....
يمزقني....
جرادُ القمعِ والقهرِ
ويحرقُ في شراييني
بقايا النبضِ من عمري
حملتُ حطامَ أوردتي
وأسلحتي على ظهري
وجبتُ العالمَ المخصيَّ
أنزفُ مثلَ جذعٍ
دامعِ الجذرِ
ولما عدت مكلومًا
مهيضًا...
لم أجدْ قبري...

إن هذه العلاقة مع الأشياء نظنها علاقة عقلية وليست مسألة سطحية عابرة، وهذا الأمر يتأكد بوساطة الأدلة المنطقية لتلك العلاقة والتي يدلل عليها من خلال رؤيته للأشياء وكأنه يأتي

بيد الإنسان ويأخذ بإبهامه ويضعه على الجرح النازف، لكن بطريقة قد توحي بالتمزق وردم الذات وتجسيد حالة الشلل وشلّ روحية العطاء لدى المواطن العادي وغير العادي الذي يرى في عطاء الشاعر بلسمًا أو وسيلة في تفادي الهموم أو محاربتها أو القضاء عليها مما يؤكد ملازمة الشاعر للحدث الإنساني، إلاّ أن الشاعر هنا بهذه السوداوية يُعرّي الأشياء ويجعل مسمياتها واضحة المعالم لا زيف فيها ولا رتوش، لذا تصبّ كل هذه الأمور في رؤية واحدة ألا وهي فلسفة الواقع السياسي والتعامل معه، وإن جاء ذلك وفق صورة مغايرة للرفض المباشر واللغة الهجومية والأساليب الخطابية أو الاستعلائية على المخاطب المحتل، لذلك تزاحمت الصُّوَر الخارجية التي تمس الإنسان من الخارج وداخلية نفسية وعقلية تعلق بمنطق الإنسان وتوجهاته، كل ذلك تجمّعَ ضدّ الشاعر كي يخلقَ عملية توازن اعتقد الشاعر أن هذه العملية هي التي تبقي على كيانه وهي تعريَة الجميع دون النظر إلى العواقب الوخيمة أو غير الوخيمة التي تحيط بالإنسان وتدفعه للارتقاء بالشيء.

ففي هذا المجال نجدُ الشاعرَ وقد وازن في عملية البناء الأسلوبي من حيث الواقعية والرومانسية وقد أفاد من الأطروحات كلها التي يعتقد بصلاحها للنهوض بفكره وفنه، من أجل الاستمرارية في نقل دفقاته الشعورية عبر صُوَر تتناسب وروحية أفكاره وواقعه النفسي في حينه، لأنها تعبِّر عن ذات

إنسان فنان وليس عن ذات إنسان يتجلد كي يعي الآخرون صورة ثابتة عبر أزمنة وأمكنة متغيرة، لذلك نجده ينتقل بين العموم والخصوص من اجل النهوض بالذات وتبويب الحياة عبر قنوات من السهل التعرف عليها، فهو من الذين يتابعون الحياة بكل نوازعها وتقلباتها السياسية والفكرية مما يجعل الأمور تنعكس على فنه الشعري وروحيته كفنان وإنسان.

نحن شعبٌ نتغنى بعيون العولمة

نتغنى

يومَ أن ننسى حضاراتٍ..

وتاريخًا... وآدابًا...

ونغدو مغنمَه...

نحن لسنا في رحابِ العولمة

إنما نحيا عصورًا مظلمة

نحن شعبٌ يلحسُ الأيدي..

ويستجدي رضا الأسيادِ ذلاّ

كي ينالَ الأوسمة

نحن شعبٌ هامشيٌّ

كذبيح الطير يحيا مأتمَه

إنَّ أشعار شفيق حبيب عبارة عن شريط من الصُّوَر منها المُحزن المُبكي المُنفر إلى جانب المفرح أحيانًا إلا أن هذا الشريط يكتنز من الأشياء ما لم يجده المرءُ في أشعار كثيرة، وكأنه كلما تقسو عليه الحياة يخرج بقايا من حشاشاته ويعرِّيها للآخرين، حتى جعل صورتنا في مسألة العولمة من الأسس التي يسير عليها الآخرون تسريعًا لهدم كيانات شعبنا وأمتنا والمنطقة بأسرها، مما يجعلنا نؤمن أنه يستخدم حواسّه مجتمعة لإظهار صُوَره وهمومِه الهادفة البناءة، واعتبار ذلك من الدوافع البناءة من خلال التأثير الجمالي والنفسي وكذلك البنية العامة للنصّ.

إن هذا التنقلَ بين الموضوعات والهموم والأساليب جعلنا نرى أن الشاعر شفيق يُفيق وينامُ مع هموم أمّتِه وقومِه، وقد توزعت مشاعره بين المحلي والعالمي القومي والإنساني فالقدَر الذي صنعه كارهو العرب والعراق قد جسَّد أشياء مؤلمة وفاعلة في مسيرة الناس إن كان ذلك بالسلب أم بالإيجاب:

نخيلُ العراقِ يموتُ شموخًا
وتبقى الذئابْ
وتبقى جيوشُ الذبابْ
لكَ القلبُ يا شعبنا !!

في عراق التحدّي... ولكنْ
جناحايَ في ألفِ قيدٍ ونابْ
فكيف الوصولُ إلى كلِّ طفلٍ
وقد أغلقوا كلَّ دربٍ إلى الله
أو منفذٍ للسَّحابْ
فهل دجلةُ الخيرِ يقوى
على غسْلِ عارِ التقهقرِ
عارِ التعهرِ
عارِ التآمرِ
عارِ الكلابْ ؟؟؟

فالشاعر هنا يُرينا مدى الحالة التي وصل إليها العرب من تشرذم وتقزيم عندما يقدم بعضهم على ذبح بعضهم الآخر، وهذا يؤدي إلى خلق الغربة الخانقة للنفس والروح حيث جعل ألفاظه كالرصاص أو المتاريس التي خلقت دفاعًا عن مبدأ مُراد وأفكار هادفة.

لذا نقول إنَّ شفيق حبيب الشاعر، تنقل بوساطة أشعاره بين الرومانسية والكلاسيكية والواقعية وقد أتضح ذلك من خلال لغته وأفكاره وأساليبه التي تعبِّر عنه، مما جعل تأثير الصحافة واضحًا وجليًا وتأثير السياسة كذلك لا مفرَّ منه مما جعل بعض

لوحاته الشعرية هجومية وساخطة أو رافضة أو عبارة عن شعارات ترفع كما الشعارات التي تكتب على الجدران في المناسبات مما جعل السياسة وأدبَها يأخذان نصيبَ الأسد من خلال نتاجه الشعري، فقد كانت جُمَله واضحة سهلة ولغته تتراوح بين الفصحى المعجمية في أحيان نادرة وبين بسيطة معبرة كما السهل الممتنع أو نراه يتعامل مع اللغة كما وأنه يتحدث إلى جمهور بسيط في جلسة خاصة.

وأما بناءُ القصيدة لديه فكان يتراوح بين النظام الهندسي العتيق وهو كثير وبين قصيدة التفعيلة إلاّ أنه لم يُغفل الموسيقا في بنائه الهندسي لقصيدته وإن وجدنا بعض الهنات والضعف من حيث التفاعل الإيقاعي إلاّ أن قصيدته تبقى متماسكة وفاعلة دون منازع إلى جانب ذلك نراه يتأثر بغيره من الشعراء كما السيّاب والبياتي ومظفر النوّاب من حيث الصياغة أو استخدام اللغة إلاّ أن نفسَ درويش لا نجده وهذا أمر قليل لدى الشعراء الفلسطينيين وقد يكون السبب أنهما متقاربان في العمر زيادة على العامل الذاتي ومحاولة خلق شخصية مستقلة.

وبالنسبة للتكثيف اللغوي نجده يتراوح بين مرحلتين، وهما مرحلة المباشرة ومرحلة الغوْص في أعماق الذات وبعثرة ما تحتويه النفس من مكونات للوصول إلى الهدف مما جعل شعرَه يخلو من الرّموز المعقدة وإنما صُوَرُه واضحة وأفكاره

مستنبطة سريعة الفهم على الرغم من وجود السوداويّة أو الانهزامية أو الإقرار بالواقع الفاسد عبر لغة معبأة ومثقلة بالهموم، إذ تعدّدت أساليبُ الخطاب عنده، فمرة يستخدم النداء وأخرى التحدث بأسلوب الأمر أو النهي مما يجعل التقريريّة والتكرار اللفظي والمعنوي من لوازم أشعاره فهو من الشعراء الذين يختارون كلماتِهم للوصول إلى هدفهم، فصياغة الأفعال وبنائية الجمَل تعبّر عن دراية باللغة وهمومها، إلى جانب التعامل مع القوافي والإيقاع وجرْس الألفاظ، كلُّ ذلك يؤدّي إلى رفع مستوى الأَداء والتمسّكِ بالمطلوب والبحثِ عنه.

عن كتاب :

" أضواء التراب وهموم المكان "

رسـالـة

أخي الشاعرَ الأكثرَ جمالاً وإبداعًا وعطاءً شفيق حبيب

تحيةَ ودٍّ وحبٍّ وأمنياتٍ بأن تكون بأحسن حال...

كم أسعدتني رسالتكَ التي تسلمتها مؤخرًا من اتحاد الكتاب العرب، وأسعَدني أن تنشر دراستي عنك في "الاتحاد" بعد أن نشرت هي وكثير من الزوايا التي تناولتُ في جزءٍ منها شَعرَك في الصحف والمجلات، كما كنتُ قد قدّمتُ ولفترة طويلة الكثَيرَ عنكم "شعراء الوطن" في إذاعة دمشق.

مشكلتي يا أخي أنني كنتُ أتصيّدُ قصائدَكم تصيُّدًا في "الاتحاد" وَ "الجديد" وغيرهما وأنقل بخط اليد قصائدكم حتى تكون عندي ما يمكن أن تسمى مادة مقبولة للحديث عن شعر لم تتناولهُ الأقلام العربية التي أدمنت كعادتها الكسل، فآثرتْ أن تلوكَ الموجود لا أن تسعى للبحث عن شعر شعراء أثرَوْا الشعر الفلسطيني وأغنوْه.. فكان مرجعُهم الوحيد ما قدّمَه الراحل الشهيد غسان كنفاني وكفى الله الباحثين تعبَ البحث والجهد فيه ..!!

فكان أن كتبتُ وكتبتُ الكثير من المقالات، فصارت قصائدُكم تؤخذ وتنشر في الصحف بعد انتزاعها من مقالاتي أو من

الصفحة الأخيرة في "صوت فلسطين" وكنتُ خصّصتها لقصائدكم وهي باسم "على طريق العودة" وصدِّقني لا أعرف عدد المرات التي نشِرت فيها قصيدتك "مُخبر ومُحقق" هنا وهناك...

المهم يا أخي أن تنشرَ هذه الأعمال وتصلَ إلى الناس...

"الشعرُ الفلسطينيّ في جيله الثاني" خُصِّصَ للشعر في أراضي الـ ١٩٦٧ وصدر عن اتحاد الكتاب العرب، أما "عشرون قمرًا للوطن" فصدر عن "دار النمير" كما صدر لي "دليل كتاب فلسطين" عن "دار الفرقد" وحوي معلوماتٍ عنكم أصبحت متداوَلةً في كل كتاب يصدر عن شعر الوطن الغالي الحبيب.

طبعًا أتمنى أن ترسلَ لي بعضَ قصائدِك ومعلوماتٍ كاملةً لأكتب عنها أو لأرسلَ لك أسئلةً ليُنشرَ الحوارُ في إحدى صحف أو مجلات الوطن العربي...

لك حبّي

طلعت سقيرق – دمشق

بالبريد الإلكتروني

٦-٤-٢٠٠٣

شفيق حبيب
والنفخ في البوق

الراحل الأستاذ الناقد طلعت سقيرق

سوريـــا

منذ فترة طويلة، وعندما قرأتُ قصيدة الشاعر شفيق حبيب "مخبرٌ ومحقق" المنشورة بتاريخ ١٩/١١/١٩٨٢ توقفتُ طويلاً أمامَ هذا الكمّ الرائع من التحدّي والمواجهة في ذات الشاعر. فالقصيدة، تقفُ في وجه الاحتلال وتعلنُ صرختها المدوِّية، لتقولَ إنّ العذابَ ومهما اشتدّت أنواعُه وأساليبُه لا يمكن أن يكسرَ قدرة الروح على المقاومة والشموخ والثبات، وحين تكونُ مثل هذه الروح عند كل فرد فإنها تشكل معجزة المعجزات، في صوغ الروح الجماعيّ الشعبيّ القادر دون ريب على مواجهة الاحتلال بكل ثبات وقوة.

في هذه القصيدة "مخبرٌ ومحقق" يرتفعُ الخطابُ الموجّهُ للاحتلال ليقولَ ويصوِّرَ وينقلَ الذاتَ المتحدِّية، حيث "الأنا" تكبرُ وتشمخ وتعلي قامتها.. وحيث "الأنا" تشعرُ بارتفاع صوتها وقوةِ تواصلها مع الحاضر المتصل بالماضي :

هذا أنا

لا أنثني

لا أنحني

لا أقهَرُ

إنّي ابنُ شعبٍ صابرٍ

ما لانَ في وجهِ العواصفِ والرياحُ تزمجرُ

لنقع على تداخلِ الملامح، وتوحُّدٍ في الامتداد، فالإنسان الفلسطينيّ الفرد، هو في الوقت ذاته، الشعب الفلسطينيّ بمجموعه، لأنه ابنٌ له تراثٌ وامتدادٌ وواقعٌ مُعاش.. والشعب الفلسطيني، هو هذا الفرد الذي يعبر خير تعبير عن المجموع.. وهنا نكون أمامَ صورة الشعب / الشاعر.... والشاعر / الشعب.. وهي صورةٌ ذاتُ أبعادٍ هامّةٍ في إيضاح ملامح الشخصية الفلسطينية الفردية والجمعية..

في صورة هذا الشاعر الذي قرأت، برزتْ أمامَ العين وتبدّت قدرةُ الشعر على الوصول من جهة، وعلى إثارة خوف وخشية الاحتلال من جهة ثانية.. الشاعر شفيق حبيب يصرّ على أن الكلمة تستطيع أن تتوهّجَ لتكون نورًا ونارًا، نورًا ينيرُ الدرب أمام شعبه، ونارًا تحرق المحتلين. لذلك وقف الشاعر متحديًا جلادَه، ساخرًا من هذا " المتحضر" الذي يرتعش خوفًا من كلمة

الحق التي تقال، والشاعر في هذا ليس " خفاشًا" كالاحتلال الذي يحب العتمة والظلام.. إنه الشاعر الذي يرتبط بالشمس والضوء والنور لنكون في واقع الحال أمام صورتين متناقضتين متنافرتين.

الصورةُ الأولى هي صورة شعب فلسطين، الشعب المرتبط بالنهار والضوء والبحث عن الحرية.. والصورةُ الثانية هي صورة الاحتلال، وهي الصورة التي تطارد النهار وتدّعي "التحضر" مع أنها تؤْثِر العتمة والظلمة.. وفي تصادم الصورتين يعرف الشاعر أنَّ الغلبة للنور، وهو أمر حتمي، لا يحتاج إلى الكثير من البراهين، الواقع يقوله ويفرضه، والوقائع تؤيده وتسجله :

حققْ معي ما شئتَ يا متحضرُ /

أصبحتُ أزهو أفخرُ /

بقصائدي /

تخشَوْن عزمَ حروفِها /

غنيتها للأهلِ للأحرارِ /

صِدقًا تتقطرُ /

غنيتها للأرض طيبًا تنشرُ /

غنيتها لمواقفٍ لا تغدرُ /

حققْ معي /

أنا لست كالخفاش في ليلٍ بهيمٍ أظهرُ /

إنّي أحدّق في جبينِ الشمس كِبْرًا

إن مثلّ هذا التحدي لا يتوقف عند حد، حتى حين تنفجر الشهادة نهرًا من دماء.. هنا لا يريد الشاعر أن يكون الدمُ المتفجر صورة ًمن صور اليأس والانسحاب، صورةً من صور الانطواء على الذات دمعًا وانكسارًا وتفجعًا.. لا أحد يستطيع أن ينكر حجم الحزن وحجم الألم، إذ هناك سؤالٌ يكبرُ ويتحول إلى جرح في القلب على هؤلاء الراحلين.. لكن الشاعر يأبى أن يتحوّلَ الفاجعُ إلى انكسار في الذات الفلسطينية، إلى تراجعٍ وتراخ وانطواءٍ في النفس، من هنا الإصرارُ على أن الشهادةَ نورٌ وحياة، على أنّ الشهادةَ قوةٌ ومحرّكٌ ودافع..

يفتح الشاعر من خلال صورة الشهادة؛ وهي صورة مليئة بالكثير من الحياة والحيوية والغليان؛ العينَ والقلبَ والروحَ، على صورة القادم، صورة المستقبل الحافل بالكثير ليكون كلّ شهيد في دفتر الحضور اليومي. ودفتر التطلع إلى المستقبل، ضوءَ أملٍ لا يعرفُ الانطفاء..

وإذا كان للاحتلال كلُّ هذا الفرح الظاهر لأنّ دمَ الشعب الفلسطيني يراق ويسفح، وكلّ هذا الرقص المجنون على أنغام القتل

والتخريب والتدمير، فإن الشعب يتجددُ من خلال دمِه، من خلال سطور شهادته، من خلال ذهابه حتى العمق في عناق الأرض..

يعرف الشاعر ويعي، وهو ضميرُ شعبه وقلبه النابض، أن كمَّ الحزن هائلٌ وأن الشعبَ الفلسطينيّ المصابَ في صبرا وشاتيلا وسواهما يشعر بألم لا يعادله ألم، لكن كل هذا لا يعني الانكفاء، لا يعني السقوط في متاهة الدموع إلى ما لا نهاية. ولأن الشعبَ هو الشعب، فقد كان النهوضُ من خلال دم الشهادة توكيدًا على روح الاستمرار والمقاومة والتحدي... في هذا المسار يقول شفيق حبيب :

حققْ معي ما شئتَ يا متجبِّرُ /

وارقصْ على آلامِ شعبٍ يُنحَرُ /

واشربْ كؤوسَ الخمرِ ما بين الخيامِ السّودِ /

في ساحات صبرا،... في شاتيلا /

إنّ خمرَكَ مُسكرُ /

حققْ معي ما شئتَ واعلمْ /

أنَّ طفلاً مزقتهُ قذيفةٌ تتفجرُ /

سيظلُّ نورًا يزرعُ الآتي ربيعًا يُزهرُ /

ويظلُّ يحيا في ضميري /

في كياني يكبرُ..

ولأن الانتفاضةَ التي تفجرت وعدًا وعهدًا لهذا الدم، هي صورة من صُوَر الألق المصرّ على الحياة والحيوية والاستمرار، فقد رأى شفيق حبيب في قصيدته "سأنفخ في البوق" أن يُصرَّ الإصرار كله على رفض أي صورة تشوِّه الألوان التي رسمها الأهل بانتفاضتهم الباسلة.. وحين رأى إلى الظلال السود وهي تحاول أن تطغى وتكبر، تشبث بصورة المستقبل التي يريد، وهي الصورة المليئة بالوعد والأمل والإشراق والتفاؤل:

عيونُ الصغار عناقُ الأماني /
ونسغُ الحياةِ من الجذر يصعدُ /
حتى خلايا غصونِ الخيالْ..

وكأنّ النفخَ في البوق إشارةٌ وعلامةٌ واستدعاء:

سأنفخُ حتى التصدّعِ /
حتى انشقاقِ البحارِ /
وكَسْرِ بريقِ النِّصال /
سأنفخُ في البوقِ /
حتى اخضرارِ سلالِ التوهُّج /
في عاصفاتِ الغِلالْ...

وحين يرى الشاعر شفيق حبيب شيئًا من غياب الوطن يكبر الحزن ويُزهر ليقول في قصيدته "الأدوار" صرخته التي تمتدّ ولا تنطفئ وكأنه يرسم ملامحَ الوجوه وهي تطرح الكثير من أسئلة الغضب والانفعال. في هذا يميل الشاعر إلى الوطن الذي يريد، الوطن الذي يشتهي أن يكون، حيث الشوارع هي الشوارع والشبابيك هي الشبابيك، والدروب هي الدروب... عندها يطرق الحزنُ كلَّ باب ويتحول إلى قبضة تهز الوجود:

عاصفٌ حزني كأمواجِ الغضبْ /

عاصفٌ كالنارِ تسري /

في ضلوعِ العشبِ /

في بطنِ الحَطبْ...

هل يعني ذلك أن يكون الحزن طريقًا إلى تحقيق الصورة المشتهاة، إلى تحقيق الصورة الحلم..؟؟.. هنا يميل الشاعر إلى قرع الأبواب بصورة أخرى، حيث يرى أن " النخيل النازف الظمآن / يستجدي ترابَه.."... وكأنه يبحث عن كل الملامح الضائعة، عن كل الدروب والشبابيك والوجوه والخطوات.

في قصيدة أخرى تحمل عنوان "تراكمات" لا نبتعد عن وقع هذا الكمّ من الحزن. وهنا قد نجد ملمحًا آخر، لا نجده في قصيدة "الأدوار".. حيث يطرح الشاعر صورة "الأنا" في انكسارها المُحمّل بالوجع حتى حدود التشظي :

بعضي ينهارُ على بعضي

أتراكمُ أجزاءً أجزاءْ

ثم وفي نوع من التركيز على هذا الحزن في "الأنا" تأتي الصورة لتقول :

أتلاشى مثلَ شعاع الضوْءِ

الباكي في ثغرِ الظلماءْ

وهو ما يدفع إلى الإحساس بالغربة الثقيلة الجارحة، الغربة التي تفتت وتبعثر القلب :

يا مُرَّ الشهدِ

وشهدَ المُرِّ

غريبٌ يبحث عن عنوانٍ

مكتوبٍ بالماءْ

إن الوجعَ الجاثمَ في الصورة ينفتح أكثر حين يرى الشاعر إلى سقوط عدد من الأهل شهداءَ برصاص الاحتلال الغادر في الحرم الإبراهيمي الشريف في الخليل فجر الخامس من شباط ١٩٩٤.. فتكون قصيدة شفيق حبيب "يا أيها الحرمُ المحزونُ" صرخةً مدويةً لا حدّ لها، صرخةً تحمل الكثير من الأسئلة :

هـذا دمـي مستباحٌ في مساجدِنا
أضحى الرصاصُ لسانَ الحاقدِ المَذِرِ
أيُّ المذاهبِ تدعو المؤمنين بها
أن يحصدَ الشرُّ أسرابًا البشرِ
يا أيها الحرمُ المحزونُ فيك قضى
أهلي وهم يلتقونَ اللهَ في السَّحَرِ

وإذا كان الشاعر يسأل لماذا ؟؟ فإنَّ الواقع يذبح السؤال مع سقوط كل شهيد جديد على الطريق..

لكن هل بقي شفيق حبيب مُصرًّا على تلاوة حزنه دون كتابة أي حرف من حروف الأمل؟؟

في الإجابة تلتقي القصيدة المكتوبة في العام ١٩٩٤ مع قصيدة "مُخبرٌ ومحقق" المكتوبة في العام ١٩٨٢. حيث توهَّج الضوء من خلال دم الشهادة :

نم يـــا شـــهيدي! قريـــرَ العـــينِ أنـــت لنـــا
منـــــارةٌ فـــــوقَ دربٍ مُظلـــــمٍ خطِـــــرِ

في كـــلِّ يـــومٍ علـــى دربِ النضـــالِ لنـــا
مشـــاعلٌ عصـــفتْ بالنـــارِ والشـــررِ

هـــذا الـــترابُ لنـــا لا للـــذين أتـــوْا
كـــي يزرعـــوا المـــوتَ أو أن يســـرقوا ثمـــري

الله أكـــبرُ مـــا لانـــت قنـــاةُ أبـــي
يـــا أمَّـــتي انتصـــبي في الكـــرْب واصـــطبري

الشاعر يرى فلسطين، ترابَ فلسطين، شوارعَ فلسطين، وجوهَ الأهل في فلسطين، من خلال هذا الانفتاح على الضوء القادم من الإصرار على التشبث بشجرة النهار المرتبطة بالشهادة.. الشهيد يتلو النهوض ويكتبه ليكون في القصيدة صورةَ الحلم، وحلمَ الصورة.. وهو كذلك يسجل حضورَ الفعل المرتبط بنهار الانتفاضة وزيت استمراريتها..

ولأنني تعرفتُ على الشاعر في قصيدته "مُخبرٌ ومحقق" منذ سنوات، ووقفت عندها كثيرًا في قراءة هذا المدّ الرائع من الإصرار على الأمل.. فقد بقي شفيق حبيب بالنسبة لي فارسَ قصيدةٍ تؤكدُ على صورة الشجر الشامخ والأمل الواعد... لذلك أختم بقوله من هذه القصيدة :

فانظرْ إلى هذا الترابِ عليه بصْماتي /

تلوحُ وتظهرُ /

وعظامُ جدّي في الثرى تخضَوضِرُ /

إني هنا /

في الأرضِ موجودٌ... /

وفي الأشجارِ... /

في ماءِ الغيومِ.... /

وفي هواءِ الجوِّ عَصْفًا أعبرُ /

إني هنا / قدرٌ على هذا الثرى /

أنا لست أنسى ما جرى /

لا أغفرُ..

يُذكر أن الشاعر شفيق حبيب من مواليد دير حنا – الجليل - عام ١٩٤١.. وكان قد درس الابتدائية في مدرسة قريته، ثم الثانوية في المدرسة الثانوية البلدية بالناصرة.. بعدها درس المحاسبة وأحرز دبلوم محاسبة من دار الموظف بحيفا.. وانتسب إلى معهد الصحافة والعلاقات العامة في المعهد البريطاني بالقدس. لينال دبلومًا، بعد حين. برز نشاطه الأدبي كشاعر في العديد من المهرجانات الشعرية، إلى جانب ما نشره في الصحف والمجلات.

سُجن شفيق حبيب بتاريخ ١٣/٦/١٩٩٠ وصودر ديوانه "العودة إلى الآتي" وجميع مؤلفاته من بيته والمكتبات العامّة وتمّ إتلافها حرقا بأمر من المحكمة بعكا حيث اتهمته سلطات الاحتلال بتأييد الانتفاضة والتحريض على العنف.

عن كتاب :

" عشرون قمراً للوطن.. ودراسات في الشعر الفلسطيني"

للأستاذ الباحث : طلعت سقيرق – سوريا

جريدة : " الاتحاد الحيفاوية " ١٤-٤-٢٠٠٥

موقع : " مؤسسة فلسطين للثقافة" ٢٥-٩-٢٠٠٨

دراسات في بعض أعمال شفيق حبيب

الأستاذة الناقدة / داليه بشارة

" آهِ.. يا أسوارَ عكا !! "

أتساءَلُ: أين موقعُ شعر شفيق حبيب في الأدب المحليّ، وذلك لأن شفيق حبيب يجسّدُ هذا التواصلَ وأيضا المفارقةَ بين القديم والنوستالجيا التي تغلفهُ وبين الحداثةِ وما بعدَها.

" آهِ.. يا أسوارَ عكا !! "..لا يمكن أن يمرَّ القارئ عن " آهِ" المستقرّة على الغلاف دون أن يمارسَ الزفرةَ المُريحةَ التي يمنحُها هذان الحرفان الحلقيان. فهذه التنهيدةُ وحدَها جعبة من المعاني، أوّلها التعبيرُ عن الحسرة والألم، وفي نفس الوقت عن حسٍّ معين من الكبت والتستر.. هذه التنهيدةُ، بين ما تبثه وما تخفيه ترمزُ إلى الصعوبة والمشكلة التي تكتنفُ عمليةَ التعبير التي هي موضوعُ الشّعر عامة، وأساسُ الصّراع في " آهِ.. يا أسوارَ عكا !! ".

غيرُ عادلٍ طبعًا أن أتناولَ جانبًا من القصائد وأتركَ أخرى في التحليل، لكن ما أبغي إنجازه في هذه الزاوية المعروضة لي هو

أن أخوضَ في دقائق قصيدة الديوان الأولى "زرقاءُ اليمامة" دون غيرها لكونها ميكروكوزم يجسّدُ عالمَ الديوان كله.. بكلمات أخرى، هذه القصيدة تحوي تلخيصَ وتقديمَ كل المواضيع التي يتصارع الشاعرُ وإياها في سائر القصائد.

وعليه يبدأ الشاعرُ قصيدته بـ " عاصفٌ حُزني "، فكلمة "عاصف" تباغِتنا بإقحامِنا إلى عالمٍ مأهولٍ بالعُنف، فهي على الفور توحي بالدّمار والسخط الشديد، وتهدمُ، كأول سماتِ العنف، توقعاتِنا إن كنا قد توقعنا بناءً على "آهِ" الموجودة في العنوان رومانسيةً هادئةً وأحزانًا طوباوية، وما يسبب هذا العصفُ من السخط يشرحه لنا الشاعر في:

كلُّ ما حَوْلي خريفٌ

وخواءٌ... ورياءٌ..

وانكفاءٌ... ودمامَه..

كلُّ ما حولي غبارٌ

وانكسارٌ.. وانهيارٌ...

بهذه القائمة من الأسماء المحشورة معًا والمترابطة بنقاط بينية يعبِّر الشاعر عن التشرذم والتفكك، فكأن هذه الكلمات قِطعٌ تتساقط ترمزُ لزمن يتهاوى، كما أنها تبث شعورًا من

الجزع وعدم التصديق، وكلها كما هو واضحٌ تدور حول مركز واحد هو اللا شيء، فالحريقُ هو انهيارٌ ودمارٌ يولد خواءً مُطلقًا، والغبارُ لا حجمَ أو وزنَ له كالخواء، وأما الرياءُ فهو غيابُ الصِّدق، والدمامةُ غيابُ الجمال، والانكسارُ، هو انهيارُ الوحدة ودليلُ التشرذم.

الشاعر إذن ينظرُ بعين زرقاء اليمامة إلى ماوراء مظاهر عالمِهِ الماديّ فيُبصر فراغًا، وفي هذه الجملة سخرية كامنة لأن الفراغَ لا يُبصَر لكنّ غيابَ نقيضِه هو ما يجعله ملموسًا، لذلك يضيف الشاعر :

إنه الحَمْلُ الذي أفضى إلى الأوهامِ..

والأحلامِ في رأسِ النعامة...

هذه الأبيات تشرح خيبة الأمل: "الحَمْلُ الذي أفضى.." وكلمة "أفضى" نابعةٌ من فضاء والفضاءُ هو الفراغ التام لذا يرى الشاعر العالمَ الماديَّ الذي يتشبَّثُ به الناسُ وهمًا هم يصنعونه بأنفسهم ليَخْتموا من وَهَنِ الواقع والخواءِ، الذين هُم، كالنعامة، أجبنُ من أن يواجهوه، وهذا تمامًا ما يردّده الما- بعد حداثيون الذين يسخرون من الواقعية في الأدب، لأنه على المستوى الواقعي لا يوجد واقعٌ موضوعيٌّ واحد، والواقع بالنسبة لهم هو كلمةٌ عامة تصف حالاتٍ فرديةً وأحلامًا شخصية.

طبعًا لهذا نرى شفيق حبيب يصفُ في قصيدته "زرقاءُ اليمامة" وقصائدَ أخرى عالم أبوكالبسي فوضويًا منهارًا متقمّصًا فيه شخصَ النبيِّ المبشر بآخر الأيام والتي علاماتها :

فارسٌ..

حطمَ بعد الفرِّ والكرِّ حسامه..

شاعرٌ أنكر في سوق الشعارات كلامه

والفارس كما هو مألوفٌ من تقاليد الأدب رمزٌ للقِيَمِ والأخلاقِ والبحثِ الدائم عن العدالة، وبضياع سيفِه يُعلنُ الشاعرُ عن تقوّضِ القِيمِ والعدالةِ التي يذود الفارسُ عنها، والشاعر في نفس الأبيات يرمزُ إلى صدق التعبير، وقوةِ الكلمة كما يخبرُنا تاريخُ الأدب العربيّ، وباغترابهِ عن لغتهِ نلج إلى عقمِ اللغة، وموتِ قيمةِ الشعر، لكن شفيق حبيب يأبى بيعَ كلماتِه شعاراتٍ في سوق النخاسة الفكرية فيصيح :

أيها القوسُ الذي يعشقُ قبل الشدِّ والمدِّ سهامَه

هاكَ سهمي..

فأنا القوسُ الذي هشمَ عِشقُ الأرضِ والأهلِ عظامَه

القوسُ هنا يستحضرُ صورةَ الحرب، لذلك فالكلمات "شدّ.. مدّ.. هشم" حاملة بالعنف وعليه فإن هذه الصورة الحربيّة تجسِّدُ

صراعَ الشاعر مع اللغةِ والفكرِ الذي أصابَه العقمُ فهو يريد لشعره أن يكون السهمَ الذي ينطلقُ ويصيب، وذلك من فرط عشقِهِ لأرضِهِ وأهلِه، هذا العشق الذي أجبره أن يأخذ على عاتقِهِ رسالةَ التبليغ بالوَعْي...

لنعُدْ إلى اللوحة الأبوكاليبسية التي يرسمُها الشاعر، من علامات آخر الأيام، على المستوى الفكريّ لا الدينيّ، هو قدومُ الدجالين يروّجون للرياء، يقول :

كلهم يحملُ في العُنقِ شِعارَه.. وينادي:

أحرسُ الفكرَ الفلسطينيَّ

في جَوْفِ محارَه..

ولعلّ هذه الصورةَ شديدةُ الوقع في نفس الشاعر الذي يعاني:

كِدْتُ أنسى فارسًا يأتي من الآلام

كي يفدي حياضَه

كِدْتُ أنسى اسمي ورسمي

وجذوري وقبوري

فكلمة "كِدْتُ" ترسم في الذهن شخصًا يترنحُ على طرف الهاوية ويتراجعُ بمعجزة، توحي بمصيبةٍ تمنع في آخر لحظة، وهذه المصيبةُ بالنسبة للشاعر هي السقوطُ إلى فقدان الذات

والاستسلام إلى الخواءِ الذي يُحيطُ به، ولعل السقوطَ إلى الهاوية مُغرٍ جدًا لأن البقاءَ في هذا العالم المُنهار ومحاولةَ تقويمهِ صراعٌ عسيرٌ فالشاعر يقول بأسىً:

فإني شاعرٌ أعطى

ولم يأخذ سوى جمرِ الطهارة

والفكرةُ عينها تتكررُ في قصيدة "احملْ صليبَك !!" التي يتجسّدُ فيها الشاعر مسيحًا يُصلبُ ليحملَ خطايا الآخرين :

احمِلْ صليبكَ يا شفيقُ!!

فلستَ أفضلَ ممّن اقتسموا ثيابَه

ماذا اجتنيتَ منَ الكتابة ؟؟

ماذا اجتنيتَ منَ العقيدةِ

والقصيدةِ

غيرَ جوعِكَ والتمزّقِ والكآبهِ.

أصبَحَت العقيدةُ والكتابةُ التي تحمِلُ لبَّ العقيدة صليبًا يحمله الشاعرُ في مسيرة حياته ويلاقي حتفه عليه لأنها الرسالة التي يريدُ أن يقودَ الناسَ بواسطتها إلى الوَعْي وينكرُها الناس، ينكرونها لأنهم أضعف من أن يجابهوا "التمزُّق"، هذا التمزق الذي يَنتجُ عن الصِّراع مع ما تكتنزه الذاتُ من قِيَمٍ في عالمٍ بالٍ،

فهذا التمزقُ نابعٌ عن الإدراك أن مقومات العالمِ المادّيّ وهمٌ وزيف.

فكرةُ التمزق هذه نجدُها متجسّدةً في حالة الشيزوفرانيا الرمزيّة التي تصوّرُها الأصواتُ المختلفة في قصيدة " احملْ صليبَك " وتبينُ أكثرَ في قصيدة "تراكمات" ، حيث يقول الشاعر:

أتراكمُ أجزاءً أجزاءْ

أطلالي تعلو أطلالي...

أتلاشى مثلَ شعاع الضوء.

هذه الأبياتُ تعيدُ إلى الذهن قائمةَ التشرذمِ والتساقطِ التي تفتتحُ قصيدةَ الديوان الأولى، وشعاعُ الضوء هنا يرمزُ للحقيقةِ التي بدأت تختفي معالمُها.

عدمُ التيقنِ إذن من ثبات وخلود الحقيقة، حقيقةِ الإنسان، الكونُ هو ما يسبِّبُ الضَّياعَ والاغترابَ الروحيَّ الوجوديَّ الذي نبصرُه.

في قصيدة " الأدوار " يناجي فيها ذاته: " تنجلي صحراءُ أهلي في ضلوعي" الصحراءُ وهي نقيضُ الخصْبِ والحياة تقطنُ وجدانه لأن ضياعهُ فكريٌّ أخلاقيٌّ، كما أن الصحراءَ ترمز لفقدان الخصْب على المستوى اللغويّ التعبيريّ، الذي رمزتُ إليه سابقًا فاللغةُ هي ما يصنعُ الحضارةَ كما أكد فوكو، لكن في

الزمن الميت الذي يصفه الشاعرُ تصبح اللغةُ ستارَ دخانٍ يُخفي المعانيَ كما وصف بيكيت، لأنه كما يقول شفيق حبيب :

قيَّدَتْ شفتيكَ أحكامُ الرَّقابةْ..

شاءُوا مصادرةَ الحروفِ

وقتلَ فكركَ في السّجون..

إذن...

كيف لا نصبحُ في السيرك قرودًا

وعلى الباب قعودًا

باسمِ "إبداع الأدب"؟؟

ويرثي تراثَ الشعر وبنيتهُ الصّلبة في

ماذا يبقى من طعْمِ الشعرِ ونكهتِهِ

إن مات المبنى والمعنى

وأضاعَ الشاعرُ أوزانه ؟؟

وهذه الأبياتُ في قصيدة " زرياب والخفاشُ الأسود " هي خيرُ تعريفٍ لحركة ما بعد الحداثةفي الفن والأدب حيث سخِرَتْ من كل القوالب البنائية واحتفت بالفوضوية واللابنائية والتشرذم كأصدق تعبيرٍ عن الإنسان، بيدَ أن الشاعرَ لا يقبل هذه

الفوضويّةَ واللابنائيّةَ والتشرذمَ بسذاجة، هو يواجهُها بذعْرٍ وجَزَعٍ، وكل الديوان حلبة يصطرعُ فيها الشاعرُ مع إدراكِهِ أنَّ عالمَه وقيَمَهُ تتناثرُ مع حنينِهِ للقديم، للوحدةِ الجماليةِ والقيَمِ الفروسية، ولعلَّ وعيَهُ وتيقنهُ من عبثيةِ هذا الاصطراعِ هو ما يجعله يجدُ في الصمْتِ بديلاً شرعيًا للوقوع في فخ التدجين الفكريّ، فالصمتُ على الأقل يُخفي الانكسارَ والتمزقَ الداخليَّ ويُعلنُ الرفض :

صمتي السلاحُ،

الزّادُ.. بوصلتي إلى بعث التألق في المجامرْ

صمتي التمرُّدُ كافرًا

في وجهِ أربابِ القوارض

هذا الصَّمْتُ إذن ليس نهائيًا لأنه لو كان كذلك لما وجدنا هذا الديوانَ بين أيدينا، وحتى صرخته "قمْ حطمْ عودكَ يا زرياب!!" هي لحظةُ التأزمِ الوجوديِّ التي تسبقُ الالتزامَ للقضيةِ وللصِّراعِ الفكريِّ القوميّ، والأخلاقيّ...

لنعدْ في هذه المرحلة من التحليل إلى القصيدة الأولى ولنطرحْ السؤالَ التالي : لماذا يختارُ الشاعرُ زرقاءَ اليمامة ؟
هل هو حنينه للتراث؟ أم رغبته في أن ينسِبَ لنفسِهِ قدرةً خارقةً على رؤيةِ ما وراءَ الزمان والمكان ليُعطيَ مصداقية للصُّوَر الشعريةِ التي يعرضُها أمامنا ؟؟

لا أظنُّ أن هذا هو فقط ما في الأمر، لأن اختيارَه لزرقاء اليمامة يلجُ من المأساة التي يعي الشاعرُ إمكانيةَ حدوثِها، فقوْمُ زرقاء اليمامة لم يصدِّقوا نبأها أنّ قومًا سيغزونهم قريبًا، فأنكروا ووقعوا تحت وطأة الغزو ليندموا بعد فوات الأوان، وهذا ما صنع التراجيديا التي لا يريدُ الشاعرُ أن تقعَ في أهلِهِ وأرضِهِ، لذلك نراهُ يقول بسخط:

إنني الناعي..

وحولي كلهم أعمى ويدعو..

إنما العمياءُ زرقاءُ اليمامه...

مرة أخرى نرى صورة النبيِّ الأعمى الذي يكون المُبصِرَ الوحيدَ للحقيقة، كما في أسطورة أوديبوس التي تتحول إلى مأساة، لأن إنذار النبيِّ يُنكرُ ويُسخر منه.

لكن شفيق حبيب لا يبغي الاستسلامَ لعلاماتِ المأساة، فهو ينادي بإيحاءٍ رمزيٍّ في قصيدة "سأنفخُ في البوق" :

سأنفخُ في البوقِ

حولَ قلاعٍ وأسوارِ مهدِ الضّلالْ

سأنفخُ حتى التصَدُّعِ...

والبوق طبعًا بإيحاءاتِه الشعريَّةِ هو الشعر، وبإيحاءاته الدينيَّةِ هو إعلانُ يومِ القيامة، وهذه صورةٌ سوداوية، لكنّ الشاعرَ يدمج مجملَ الإيحاءاتِ الأدبيةِ والدينيَّةِ ليخلقَ بارقةَ أملٍ حقيقيّة، فهو يريدُ لشعره، كبوقِ إسرافيل الذي يبعثُ الأرواحَ من الأجسادِ الميتة، أن يبعثَ القِيَمَ والصِّدقَ من جيَفِ الرِّياءِ والزّيف. بهذا الانبعاث الجديد الذي يصوّره يريدُ الخروجَ من العالم الأبوكالبسي إلى عالمٍ جديدٍ حُرّ.

وإذا أكملنا هذه الدائرةَ نرى الانبعاثَ مرموزًا إليه في صورة الحمامة في القصيدة الأولى: " عاصفٌ حزني كأشواق الحمامة" فالحمامةُ هي الروحُ القدسُ التي تبشر نوحَ بانتهاء الطوفان وولادةِ عالمٍ جديد.

حتى أكثر فإني أجدُ فكرةَ الانبعاثِ مطبّقةً في تلك القصائد من الديوان المنظومةِ بالأسلوب الشعريّ التقليديّ القديم بينما ترثي أمجادَ العرب والحنينَ الصارخَ إلى ما هو أصيلٌ وقديم.

وفي هذه النقطة أريدُ أن أختمَ هذا المقال لأن شفيق حبيب بصدقٍ إنسانيٍّ يحققُ التواصلَ بين الماضي والحاضر ويصطرعُ مع حنينِه وتمزُّقِهِ في كل قصيدةٍ من الديوان ليبثّ ألمَهُ وفكرتَهُ بكثافةٍ وعُمْق.

جريدة " كل العرب " النصراوية

٢٧-١-١٩٩٥

شفيق حبيب

في

" تعاويذ من خزف "

الناقد الأستاذ / نور عامر

ربما نتساءلُ وبشيءٍ من الدَّهشة : لماذا انطلقَ الشاعر شفيق حبيب في ديوانه "تعاويذُ من خزف" من جوهر عقيدة كافكا : اليأس الميتافيزيقي؟

لماذا هذا الشعور بالضَّياع والإحباط؟

لماذا أغمضَ الشاعرُ عينيه حتى ابتراقِ اللحظاتِ الوَمْضِيَّةِ التي تمنحُنا دافعًا في أحلكِ الأوقات؟

لسنا في مجال تحقيقٍ حولَ موقفِ وأحاسيسِ الشاعر، ولكن قضية اليأس هذه قد تضعنا أمامَ سؤالٍ آخر: لماذا يسعى الإنسانُ في ظرفٍ مُعَيَّنٍ إلى تحطيمِ قدُراتِهِ المعْنوية؟

هل هي الرغبةُ في التحَرُّرِ من ضغوطٍ وتوتراتٍ داخليه؟

أم أن المسألةَ تدخلُ عَمْدًا أو اقتناعًا في إطارِ الرّومنطيقيةِ بمفهومِها الاستسلامي روحًا ومادة ؟!

ينسابُ في صوتي الضبابْ

وعلى شراعِ سفينتي...

في بحر ذاتي..

ينطوي أملُ الإيابْ..

الليلُ يلفظني...

فيجرعُني الضَّياعُ والاكتئابْ..

- من قصيدة "ضياعٌ في بحر الذات" -

هذا اليأسُ الميتافيزيقي بوجودهِ وخطرهِ يشكلُ غربةً قاسيةً، ويأخذُ شكلاً آخرَ في قصيدة " تعاويذُ من خزف " إذ نستشِفُّ اللذةَ في الألم، من خلالِ انصهارِ - الذات - "في سراديبِ الفناءِ الحيّ "، تلك القوةِ الجائرةِ الطاغيةِ التي تنتزعُ من الإنسان إرادته، وتبقيهِ جسدًا جافًا يطوفُ في دنيا الهمومِ دونَ أن يفكر بالنجاة، لأنه اعتاد واقعَهُ البائس، بل أصبحَ يستعذبُ هذا البؤسَ دون أن يُعلنَ عن ذلك صراحةً، لو واجَهْنا هذه الحالةَ "استعذابَ الألم" من مُنطلقِ عِلمِ النفس، لوجدناها حالةً شاذةً !! لكنّ الوضعَ قد يختلفُ في ظروفِ اللا اختيار.

أسافرُ فوقَ أجنحةٍ

منَ القصديرِ تقصيني..

وتغويني..

وأغرقُ في مياهِ البحرِ

في أحشاءِ تنينِ

وتقذفني همومُ الموْجِ

فوقَ رمالِ هذا العمرِ

أسمالاً على أشلاءِ مسكينِ...

في قصيدة "لم أجدْ قبري" يعي الشاعرُ مأساتهُ عقليًا، وهذا الوعيُ يتطوّرُ ويتغلغلُ في أعماق التصوُّرات، إنه يتحدّثُ عن عالمِهِ المحسوسِ من خلال حركةٍ ومرونة، ينتقلُ بين الذات وبين الموضوع عَبرَ الصورة الزمنية مُقصِرا إدراكهُ على الكيفيات التي تتساوقُ وتتلاقى في اللا مكان، فتشكل الشيءَ المُدرَك...

الشاعرُ إذن ينطلقُ في هذه القصيدة من " الأنا " : يؤرِّقني... يُمزِّقني... أنا صدأٌ... أنا صدأ..."

فيجب أن لا نفهمَهُ خطأً لأنه بدون "الأنا" لم يكن في وُسعهِ إدراكُ الكيفيَّات " فالكيفيَّات " لا تعدو أن تكونَ إدراكاتٍ منتميةً "للأنا" ويمكنُ للأنا بواسطتها أن تتمثلَ الأشياءَ، كما نستنتج من ظاهريات الفِكر الهيجلي.

يؤرِّقني...

يمزِّقني...

جرادُ القمْعِ والقهرِ

ويحرقُ في شرابيني

بقايا النبضِ في عمري

حملتُ حطامَ أوردتي

وأسلحتي على ظهري...

وجُبْتُ العالمَ المخصيَّ

أنزفُ مثلَ جَذعٍ

دامعِ الجذرِ

ولما عدتُ مكلومًا...

مهيضًا...

لم أجدْ قبري...

حين نتابعُ القصيدة نجدُ أن الشاعر يبرّرُ يأسه بشكل يقبلهُ المنطق، لكن هذا التصوير ليس فوتوغرافيًا، بل قدراتٌ تعبيريّة مدهشة تشكلُ جزءًا حيويًا من القصيدة.

قد تبدو هذه القدراتُ للعين سهلة ؛ فالنسْجِ الإبداعيّ لا يتيسّرُ لكل شاعر، وأعتقدُ أن الشاعريةَ الحَقة تتنوّع، ومنها الشاعريةُ القادرةُ على النفاذ إلى روح الأشياء كما سنرى الآن :

أنا صدأٌ.. أنا صدأٌ..

وصوتٌ غاضَ في لجّ

رُكامًا صارخَ النبرِ

رغيفُ الخبزِ من رملٍ

وماءُ النهرِ مأسونٌ

وأيامي مُحَنطةٌ

تنوءُ على لظى

الأوباءِ.. والصحراءِ.. والقفرِ.

حَلمْتُ بألفِ سوسنةٍ..

وأقمارٍ..

وأكوابٍ منَ الخمْرِ..

حَلمْتُ بشهدِ أيامٍ..

يُبَدِّدُ حنظلَ الفقرِ

أفقتُ على مآسينا

فذابَ المُرُّ في المُرّ...

ويتابعُ شاعرُنا يأسَهُ المنبعثَ أساسًا من معاناته الداخلية عبر تصوراته المحسوسة، حتى يبدو لنا الواقعُ متعَبًا للغاية، وربما نحسّ في لحظة معيّنة أن الشاعر وضع هذه التصوّرات دون

تعقلها كما يفعل "كانتْ " وأتباعُهُ من التصوّريين لكنه مجرّد إحساس ينتج حين تغلق جميع الأبواب...

ونجد أنفسنا نتساءل: أيُعقلُ أن يكون الواقعُ قاتمًا ومخيفًا إلى هذا الحدّ ؟؟؟

وإذا كان لكل شيء نقيضهُ فلماذا تغاضى الشاعرُ عن مسألة التناقض الذي يصبحُ في مدلوله الإيجابي قيمةً جوهرية، وكأني بالشاعر يأخذ بقول " أرسطو " الذي شيَّدَ المنطق على قاعدة جذرية هي قانون عدم التناقض.

كلُّ ما فينا خواءٌ في خواءْ..

نتداعى...

حاضراً يغرقُ في البؤسِ

وأوحالِ الرِّياءْ

نتهاوى مثلما تنهارُ

أحلامُ القوافي في خيالِ الشعَراءْ..

وفي مكان آخر يقول :

نحنُ كالديدان في الظلمةِ

تعشى عندما يبدو الضياءْ

نحن لا نبني حضاراتٍ
ولكن نتغنى بتسابيح الدُّعاءْ
نحن صحراءٌ.. وجَدْبٌ..
وظلامٌ.. وشقاءْ
فِكرُنا قحْط
كغيمِ الصّيْفِ منثورٌ
هباءً في هباءْ..

- من قصيدة : " خواءٌ وانشطار "

في هذه القصيدة نجد أنفسَنا في مواجهةٍ حقيقيةٍ لأفكارٍ لا نستطيعُ أن نقولَ عنها مدمِّرة.. ما دامت مدعومةً في بعض جوانبها بالمحاجّةِ العقليّة التي تستند على الأدلة المنطقية، لكن الطريقة التي قولبت فيها هذه الأفكار تمسحُ عن الخارطة كلَّ الإنجازات العربية وكل التحدِّيات، على الصعيدين الفكري والسياسي!! ومن ثم تضع الإنسان العربيّ في دائرة الإحباط وشلّ القدرات، دون أية إشارة إلى الظروف والملابسات التي أوجدت هذا الواقعَ العربيّ الصعب.

نعرف أن الشعر غيرُ ملزم بتقديم أجوبةٍ عن أسئلة قد تدورُ في ذهن القارئ وهو يتابعُ نصًّا شعريًّا، لا سيّما وأن خيالَ الشاعر بجُموحهِ لا يهمّهُ البحثُ عن علة تكوينِ الأحداث.

لكن ما دام الحديث هنا يجري في معظمه عن حقائق، وتأثيرِ هذه الحقائق على الإنسان، تصبحُ مسألةُ العزف على وتر واحد قابلةً للرفضِ أو القبول، وقابلةً للنقاش الموضوعي، خاصة وأن موضوع الديوان في أكثره يتمحورُ حول قضايا تحمل طابعًا سياسيًا.

آهِ يا شعبَ الفراغِ

الضاربِ الأطنابَ فينا كالوَباءْ

كلُّ ما حولكَ من صُنعِ عقولِ الغرَباءْ

ما الذي أعطيتَ يا مشلولُ للدنيا

سوى ذُلكَ ممزوجًا بآهاتِ البُكاءْ

أنتَ مهزومٌ..

وللمهزومِ موتٌ.. وفناءْ..

لا يهمنا أن الشاعرَ جعل المأساةَ العربيةَ مُلهمَةً له على الإنتاج، فهو حرّ في اختيار نقطة الانطلاق، لكن ما يلفت النظر أن كثافة الأحداث ليست هي الشحنة الناقلة لبلورة الموقف، بل الشعور الوجداني هو السبب المباشر في اشتعال القصيدة.

يناديني...

يشدُّ على شراييني..

ويأخذني قشورًا..

جفّ منها النسغُ عِشقًا

ضاعَ بين الماءِ والطينِ

أرى في كلِّ محرقةٍ..

رجاءً هامَ عصفورًا..

على وجهِ الميادينِ..

يناديني منَ المجهول صوتٌ..

كانبعاث الويلِ

من أعطافِ سكينِ

أنا ورقٌ خريفيّ

تطايَرَ كاشتعال الريحِ

في أحضانِ تشرينِ

- من قصيدة "تعاويذ من خزف" -

وبعد....

لا أزعم أن هذا المقالَ يكفي لإعطاءِ هذه القصائد حقها من التقييم والتحليل، فهذا الديوانُ بمضمونِهِ الفكريّ والأدبيّ، يُشكلُ مادّةً خصبةً ورحبةً للكتابةِ الموضوعية.

من كتاب :

رحلة في أجواء الحروف ٢٠٠٠ (مداخلات نقدية)

جريدة كل العرب النصراوية ٢-٥-١٩٩٧

الفن والالتزام في شعر شفيق حبيب

الناقد الأستاذ / نور عامر

الالتزامُ ليس شرطًا من شروط الشعر، ولا يُمكن أن يُفرضَ على شاعر ما، أما وقد اختار الشاعر شفيق حبيب أن يكون ملتزمًا وبلغةٍ ثورية، فهذا يُضفي على شعره نوعًا من الأهمية.. ويَبرز هذا الالتزامُ في موقف الشاعر من قضية الأرض، الوطن، الإنسان، هذه القضية التي تشكل المحورَ الأساسَ في دواوينه الكثيرة، ذات السياقات المتنوعة التي تنتهي إلى مصبٍّ واحد، هو الرفض لكل مظاهر القهر والعدوان، الذي أحاط بشعبنا الفلسطيني منذ النكبة حتى اليوم.

إن قصائدَه المعاصِرة كرؤيةٍ وأداة تعبير، سواءٌ ما كان منها على النظام التفعيلي أو النظام العمودي، هي في الحقيقة مهيئةٌ فكرًا وفنًا وأيديولوجيًا، لسدّ ثغراتٍ معينة في تخوم عالمنا الشعري، الذي هو دائمًا بحاجةٍ لاستقطاب المزيد من الإبداعات الخصبة، وحيث تكون الخصوبة، تكون عملية التقييم أكثرَ قابليةً للنشاط والحركة، وأكثرَ انفتاحًا على المناهج والنظريات النقدية، وإلا ما معنى أن نستخدم النقد الثيمائي، أي المتجذر من حدود الدالة الأدبية، حين لا تكون في الشعر دلالات، وكيف

نطوّع قصيدةً ما لنظرية "لوك" نظرية التداعي، "الترابط"، إن لم نجد في القصيدة "ظاهرة استدعاء الفكرة، فكرة أخرى في الوعي".

وإن كنتُ أرى في مفهوم " لوك " لهذه النظرية، أكثرَ بهجة للخيال، وأكبرَ تشويقًا للنقد المعاصر، إلا أنني أميل في شعر شفيق حبيب إلى مفهوم " هربرت " لهذه النظرية، باعتبار أن هذا الشعر ليس حالاتٍ نفسيةً بقدر ما هو تجسيدٌ للمعضلة الفلسطينية، وربط الماضي بالحاضر من خلال التراث.

أينَ سُمارُ الليالي ؟؟

وحكايا الزير سالم..

وأبو زيد الهلالي ؟؟

أينَ ولى الدفءُ من حضنِ المواقدْ ؟؟

أينَ جدي...؟؟

يقف النسرُ على شاربهِ

كالمجدِ ماردْ ؟؟

كلُّ ما حَولي سرابٌ

وخرابٌ..

وانكساراتُ الشعاعْ...؟؟

هذه الصورةُ الشعريةُ تعتبر صورةً فنية، بدليل أنها تحدث الافتتان، والافتتان لا يأتي إلا بقوة الفن، لكنه الفنُّ الواقعي لأنه يتجه ناحية المجتمع، ناحية الشعب، وهذا يؤكد ما قاله "إرنست فيشر" : "الفن الواقعي مرتبط بالحركات الشعبية" وهو بخلاف الفن المتشبِّث بالأسلوب والمرتبط عادةً بالنظم الأرستقراطية.

وإذا كان "سدني فنكلشتاين" يرى أن الواقعية في الفن "تضمُّ دائمًا كيانًا من الأفكار عما هو جديد، وكيف يتغير العالم" يصبحُ من الضرورة بمكان أن نفهمَ العالم فهمًا يُتيح لنا رؤيةً صافيةً غيرَ مُشوَّشة، وهذا يتحقق بطرق مختلفة، منها طرحُ الأسئلةِ كما في قصيدة " لماذا ارتحلنا..؟؟ "، إنما السؤال هنا ليس استفسارًا بقدر ما هو ذهولٌ ناتجٌ عن هَوْل الصّدمة / الفاجعة :

لماذا ارتحلنا

عن البحرِ.. والنهرِ والبرتقالْ؟؟

لماذا غدَوْنا رمادَ المقاديرِ

في منفضات المُحالْ..؟؟

ومن فنون الشعر أن يضعَ الشاعرُ التعبيرَ المناسبَ في المكان والظرف المناسب، على أن يكون التعبيرُ مجهولاً في المقام المنشود حتى تلك اللحظة، أي لحظة التعبير عنها... ويصبح

التعبير، أكثرَ جاذبيةً حين يُغلفُ بالرّمز، ومن خلال رؤيةٍ مستقبلية تتمثلُ في كلمةٍ موجزةٍ دالةٍ كقول الشاعر :

أنا باقٍ يا فلسطينُ اشهدي !!
إنما الزائلُ خضراءُ الدِّمَنْ.

الرمز في خضراء الدِّمَن أي المرأة الحسناء في المنبت السوء، وهذه استعملت في مواطن التحذير " إياكَ وخضراءَ الدِّمَن "، لكن شاعرنا لم يقصد المرأة، أظنه قصدَ سياسةَ الاضطهاد التي يحاولون تجميلها، وأن يُخرج الشاعر كلمةً من سياقها المحدَّد، لتخدمَ غرضًا آخرَ ربما هو أكثرُ نفعًا وإلحاحًا، وهذا يُعتبرُ نوعًا من التجديد في الشعر العربيّ المعاصر.

جريدة كل العرب

٢-٥-٢٠٠٣

الشعرُ الذي لا يعرفُ الهزيمة
حول ديوان "صارخٌ في البرِّية "

الناقد الأستاذ / محمد علوش

" أنا لستُ مع شفيق حبيب إلا بأن يبقى على ما هو عليه "

هذا ما قاله الشاعر المرحوم د. عبد اللطيف عقل قبلَ عدة سنوات، يوم صادرت السلطات الإسرائيلية ديوان الشاعر الفلسطيني المناضل شفيق حبيب " العوْدةُ إلى الآتي" في خطوة تستهدف النيلَ من مواقف شعرائنا الوطنيين وكمّ أفواهِهم، وحاكمَتهُ بتهمة ممجوجة وباطلة أصلاً ألا وهي الإرهاب.

وشفيق حبيب كما نعرفه وكما عهدناه منذ البداية شاعرًا صادقًا ومؤمنًا بكل كلمة يقولها أو يكتبها، ورغم كل المِحَن والصّعاب التي واجهته في مسيرته الإبداعية والثقافية والعملية فإنه تخطاها جميعًا بصلابة المثقف الوطني الداعي للحياة وشموخ الفلسطيني المعتز بأرضه ووطنه وشعبه وعشقه الصّوفي وولهه الحقيقي بجمال هذه البلاد.

(وما زال الشاعرُ شفيق حبيب يبدعُ من معين الأرض والوطن والتراث من أجل تحقيق الحرية المنشودة، والعدل المفقود في زمن الاعتقال الفكريّ، والأمل الضائع، وهو صاحبُ قلمٍ متميز، وشاعرية خصبة، ولغة حادّة، ووطنية متأصِّلة، وإنسانية عارمة)... كما يشير الكاتب والناقد الفلسطيني/ القطري د.يحيى زكريا الآغا في استهلال المجموعة والمقتبس من كتابه "إضاءات في الشعر الفلسطيني المعاصر ج ٢، الصادر في غزة سنة ١٩٩٨"

ونحن الآن مع "صارخٌ في البرِّية":

عنوانُ المجموعة كبيرٌ في قيمته الروحية والنفسية والفلسفية والتعبويّة، إذ إنه إضافة إلى هذا فهو عنوان بارز وحاضر في ذاكرتنا الجماعية، أظن إن لم يخبْ ظني بأنه مستمدٌّ من قصة يوحنا الصارخ في البريّة؛ كما جاء في الأثر المقدس في الديانة المسيحية وكتب اللاهوت.

وشاعرنا شفيق حبيب أراد من عنونته لهذه المجموعة، أن يؤكِّدَ تواصله على نفس النهج المناوئ للظلم والظلام، وأن يصرخَ في وجوه الغافلين الذين يميلون حيث تميل الرياح، ولا يشغلهم شاغل سوى الأمور الدونيّة والتافهة، يصرخُ بأعلى صوته لعله يُجدي بعد كل هذا ويحرك فيهم مشاعر النخوة والكرامة أمام شرف وسماوية المقام، ولكن لا حياة لمن تنادي!!

صدر الديوان عن "دار الحكيم للطباعة والنشر بالناصرة" سنة ٢٠٠١م وصمَّم الغلاف وأخرجه عناد حبيب، وتضمُّ المجموعة ٢٥ قصيدة كتبت على فترات متقاربة نسبيًا ونشر بعضها في صحف ومجلات محلية وعربية مختلفة، ويقسم ديوانه إلى ثلاثة أقسام :

- إنكساراتٌ حادّة.
- وردتان فلسطينيتان.
- أغاني الرّفراف.

وبالرغم من التباعد في مضامين ومرامي ودلالات قصائده، إلا أن خطًا رفيعًا يجمعُها في نسيج متكامل مع قوة النبرة وسلاسة اللغة وجمالية الصورة الشعرية والإيقاع الموسيقي والأداء.

في القصيدة الأولى من الديوان " أبو ذر الغفاري والعولمة " يدحضُ الشاعر فكرة وماهية "العولمة" ويعرّيها ويفضح أمرَها بصورة تلقائية واضحة ويصوّر الحقيقة المؤسفة والمؤلمة حيث قارنوا العولمة بالنور والرقيّ الحضاريّ أمام الشعوب المقهورة والمغلوبة على أمرها فهي في عصر التخلف والأمراض النفسية والإعاقية على مستوى الحضارة والثقافة والتفكير، بينما يحاول الغرب "عولمة" الحياة بكل ما فيها وفق قيمتها الاستهلاكية والانتهازية، وفي هذا الصدد يجلجل صوت الشاعر :

نحن لسنا في رحاب العولمة

إنما نحيا عصوراَ مُظلمه (ص ١٣)

ويعدِّدُ الشاعر المأساة تلو الأخرى، محاولاً لفت الأنظار لِما يُحاكُ في الظلام في مواخير العولمة الأمريكية، وما وصلت إليه الأمور إلى وضع لا يُطاق في ظل القهر والظلم والإجحاف.

عنوانُ القصيدة موحٍ ويحثّ الخطى، لِقِيمِ عولمة الغفاري الإصلاحيّة المبنيّة على أسسٍ سليمة وحكيمة مع الدفء الإنساني المتنوّر بدلاً من التقريظ واستيعاب كل دخيل، ويحدِّدُ الشاعرُ دعوته لأبي ذرّ بشيء من الرغبة الجانحة والإلحاح:

يا أبا ذرٍ تقدّمْ !

وازرعِ الثورةَ ضوءاً

في القلوب المُعْتِمَه

عُد إلينا يا أبا ذرٍّ

وقدّمنا لسيفِ المحكمة (ص ١٨)

إذن شاعرُنا يريدُها ثورة تشعلُ الأملَ وتوقدُ الرغبة في النفوس نحو الإصلاح والتغيير وعلى كافة الصعد.

وكعادته لا ينقطع شاعرُنا عن قضية الوطن المكبل بالحصار، ولا يبتعد عن مأساة شعبه الذي بات على مرمى حجر من الحرية والعودة والاستقلال، بفعل بطولات أبنائه العُزّل القابضين على جمر الترقب والولادة، المُدجّجين بالأمل، وصَوْلاتهم وجَوْلاتهم في ميادين النضال الوطني التحرريّ الفلسطينيّ المُشرِّف، ومن رحم الانتفاضة التي تدور رحاها في الأرض المحتلة، يولدُ الشعر التعبوي المقاتل الذي لا يعرف الهوان والخنوع ولا يعرف الهزيمة، وكما عوّدَنا شفيق حبيب في مجموعاته الشعريّة السابقة وكجزء من المشهد الثقافي الفلسطينيّ، يواكبُ الحدث ويعبِّر عن الألم والأمل والطموح الكبير نحو التجلي في الوطن الفسيح، فهو إذن شاعرُ الكلمة الصادقة والملتزمة، شاعرٌ يدرك الأمور جيّدًا ويصيغها برؤيته هو، ويحسّ بالنبض حوله، ويعبِّر كما قلنا بقالبه الشعري الخاص بصدقِ الحاسّة والإحساس، وبالنظرية الثوريّة الواقعية.

وفي قصيدته التي يُهديها إلى شهدائنا الخالدين "عاصفةُ الدهور" يرسلُ برقيةً لشهيد الانتفاضة يُصوِّر فيها مأساة المرحلة بشيء من التحدّي وبإصرارٍ على الحميميّة والتواصل بين أبناء الشعب الواحد في كل أماكن تواجُدِه :

قلبي معكْ

ورصاصُ وحشِ الغابِ

يحرقُ أضلعَكْ

ودماءُ قلبكَ نازفاتٌ

كي تضيءَ الدّربَ

يا زينَ الشبابِ !

فلم أصدِّقْ مصرعَكْ

فعدوّ نور الشمسِ والإنسانِ

من كأسِ المنايا جرّعكْ (ص ٤٣– ٤٤)

وهنا يتجلى الموقفُ المؤثرُ فعلاً، حيث يخشع الشاعر ونخشع معه أمام ضريح فارس الشعب وشهيد الزمان والمكان، وبأسلوبه البسيط، السهل المُمتنع، المُقنع، المشوِّق والجذاب، يوجّه عذوبة كلماته للقبر هذه المرّه، فالبعثُ حتمًا قادم لا محاولة وإن سقط الشهداءُ والفرسان، فلن تسقطَ الرسالة، وهنا يُكمل :

يا قبرُ !!

يرقدُ فيكَ غصنٌ ناضرٌ

يا قبرُ... !!

فيكَ قلوبُنا

وعيوننا

فالشعبُ فارسَهُ المؤزَّرَ أودعَكْ (ص ٤٩)

ويواصل شفيق حبيب بهذه الروح المتوهّجة، المتوثبة، وهنا في قصيدته "يا طائرَ القلب..." نراه رومانسيًّا إلى أبعد الحدود مغموسًا في أحزانه وأشجانه الإنسانية، فهو يبدأ القصيدة بهذه الشفافية وهذا التجلي الحزين معددًا الكروب والأزمات التي تواجهه كإنسان وكشاعر.. ها هو هنا طائر القلب :

للحُــــزنِ لــــونٌ.. ولـــــي في الحُـــزْنِ ألـــوانُ

يـــا طـــائرَ القلـــبِ كـــم أشـــجَتكَ أحـــزانُ

ويعودُ شاعرُنا ـ صاحبُ الموقف هنا ـ ليكشفَ ما في نفوسنا من وهم وأمراض على كافة الاتجاهات وخصوصًا الأزمة الطائفية التي واجهتنا كشعب إثر المحاولات السلطوية المارقة لدقّ إسفين الخلاف والاقتتال الداخلي بين أبناء شعبنا مسلميه ومسيحييه، وهنا في المقام الجلل لا بدّ من كلمةٍ تقال، فجاءَ كلام الشاعر بلسمًا للجرح في روحانية وعفوية صادقة :

والـــدِّينُ عنـــدي، صـــفاءُ الـــنفسِ يُســـكرُني
كـــــم شـــــدّني قـــــرْعُ أجـــــراسٍ وآذانُ

ديـــني مـــع الله.. لا أرضـــى لـــه وَسَـــطًا
مـــا أُنزلـــت للـــدِّما والعنـــفِ أديـــانُ

فـــالله لا يرتضـــي للعـــرشِ حاميـــةً
وحولـــهُ مـــن جنـــودِ النـــورِ فرســـانُ

ولا شك في أن شاعرَنا شموليٌّ في رؤياه ورؤيته، ومثقفٌ جامعٌ تناول في كتاباته معظم المواضيع التي يتطرق إليها معظمُ شعرائنا الفلسطينيين، وما يميّز حبيب هي هذه الاستمرارية وهذا التوهّج المنبثق من معين ثقافته الفلسطينية الواضحة.

ونحن نتصفحُ صفحاتِ الديوان نجدُ مزيجًا من الحزن والفرح والحب والحقد والتصريح والتلميح واللعنة والدُّعاء والتجلي والموقف والنبوءة والعزيمة والانكسارات الحادّة.

في مجموعة شاعرنا الكثير من المفاجآت، يغمرُنا دفءُ وانسيابُ قصائدِهِ ببساطةِ أفكارها وعمقِ معانيها وشاعرية كلماتها وتجليها بين مقامات الشعر.

وإذا كان شفيق حبيب أعلن عن نفسه صارخًا في البرِّية، فهو حتمًا سيتواصلُ في منهجيتِه، وسيؤكدُ صدقَ رؤيته وطموحه نحوَ الوصول، مع الاعتزاز به شاعرًا فلسطينيًا.

جريدة "الاتّحاد" الحيفاوية

١٩-٧-٢٠٠٢

العفوية الجميلة في شعر شفيق حبيب
حول ديوان "صارخٌ في البرِّية "

الدكتور / بطرس دلـه

في هذه المداخلة سأحاولُ استعراضَ شيءٍ مما جاء في هذا الديوان، ولنبدأ أولاً بالتسمية.

فاسم الديوان "صارخٌ في البرِّية" يذكرُنا بالمسيحية أولاً ثم بيوحنا صاحب الإنجيل الشهير الذي يعتبر نفسَه "صوتًا صارخًا في البرِّية" يُعِدّ لطريق الرب ويرجو أن يجعل سبله مستقيمة.

هذا الاستهلالُ، وهذه التسميةُ الشفافة، تغنينا من اللمحة الأولى بفهم ما يريد شاعرُنا شفيق حبيب من أنَّ ديوانه هذا هو صوتُ صارخٍ في البرِّية على شعوب العالم الواسع، والشعوب العربية كي تصحوَ من سُباتها لمعالجة قضية شعبنا العربيّ الفلسطينيّ.

وإذا كان الأستاذ شفيق يقف مناديًا ومُنبِّهًا، فإن دافعَه لذلك هو عشقه لوطنه الجريح ولما عاناه من ملاحقة السلطات ومحاولة كمّ الأفواه التي تمارسُها أجهزةُ الظلام إلى جانب مصادرة الكلمة وحرية الكلمة بالرغم من الادّعاء بأننا نعيش في ظل نظام ديمقراطي أو في واحة الديمقراطية الشرق- أوسطية.

إلى جانبِ هذا كله يُفاجئنا الشاعر بالتذمُّر الشديد من الشعب العربي، كل الشعب لأننا كما يقول: " نلحسُ الأيدي ونستجدي رضا الأسيادِ ذُلاّ " ونقف هامشيين " كذبيح الطير الذي يحيا مأتمَه "، ثم يستنجدُ بأبي ذرٍ الغفاري، كبير الصعاليك كي يقفَ حاكمًا يحاسبُ خونة الشعب على ما جنت أيديهم لأن الجهل صادَرَ فمَ هذا الشعب، وليس لنا من مُنقذٍ سوى الثورة لأن الثورة نارٌ ونورٌ وهدىً لهذا الشعب الذي باع دمَهُ ذلاّ وهوانًا وانكسارات.

في قصيدته " أصواتُ صارخٍ في البرِّية " يحاول شاعرنا أن يعلن ثورته- انتفاضته على الباغي الذي حاول أن يكسرَ جناح الشاعر ليمنعه من التحليق، فهو يؤمن أن الحرفَ أقوى وأبقى من كل مشاريع إسرائيل الصهيونية التي اغتصبت أرض فلسطين كما تغتصبُ الفكرَ العربيَّ الذي أنار الدنيا وألقى علينا وشاحه:

حلّقَ الشاعرُ في الأجواءِ لكن

حاولوا أن يكسِروا يومًا جناحَه..

خسئ الباغي..

فإن الحرفَ أبقى

من مشاريعِ اغتصابِ الأرضِ..

والتاريخِ..

والفكرِ الذي أعلى

على الدنيا وشاحَه..

وإذا اتفقنا على أن الشاعر؛ كلَّ شاعر؛ هو مرآةُ عصره، فإن مَهَمته الأساسيّة تكمن في رؤية المستقبل وتوضيح الحاضر والتحذير من أخطاء الماضي.

من أجل هذا التوضيح والتحذير، نجد شاعرَنا مستعدًا لأن ينكأ جراحَه فيجهشَ الحرفُ بالبكاء انحسارًا.. وانكسارًا ويسمع الله نواحَه فيقدِّس كفاحَ الشاعر.. أجل يقدسه ليصبحَ عزيزَ الله.

وفي مكان آخر يرى نفسه " عصفور القرن الضِّليّل " فيأخذ من الأناجيل صورة السيد المسيح مُعلقًا على الصليب مطعونًا في خاصرته؛ وليس له حولٌ ولا قوةٌ ولا سلاحٌ يدافع به عن نفسه سوى بعض التمائم والتعاويذ والأدعية، وتاريخُ هذا العصفور، هو تاريخُ قمعٍ ورياءٍ وبيوتِ بغاء وأرصفةٍ أكلت لحمَ الفقراء، وهو يشكو أن زمانه مشروخٌ منكفئ كمرايا حدباء، ومع ذلك فهو يرى أن من واجبه التغريدَ على الرغم من الأشواك الكثيرة التي فقأت أحداقه كما التهمت النيران كلَّ أوراقه فباتت دنياه صحراءَ كما باتت أفكارُه عجفاء.

- **قضيةُ اللاجئين :**

نحن نعرفُ كما تعرف كافة شعوب الأرض أن ما من قضية لاجئين إلا ووجدت حلاً ما عدا قضية اللجوء الفلسطينيّ، فاللاجئ الفلسطينيّ هو غريبٌ حيثما حلَّ وارتحل، غريبٌ في لبنان وسوريا العرب، وغريبٌ في أردنّ السلالة الهاشمية كما هو غريبٌ في ليبيا القذافي مطرودٌ منها.

يتحدث شاعرُنا في قصيدته " لنا مَوْعِدٌ " عن تاريخ اللاجئين الفلسطينيين بلسان المتكلم:

كانت لنا،

لعبنا صغاراً..

هربنا كباراً، وعادت جموع القبائل

عادت فلولاً

(لتحيا فلولاً)

على الخبز والسّمن من مانحات المُؤن.

ويختصر كل المعاناة فيصِل إلى اتفاقية غزه وأريحا أولاً، ويهزأ من هذه الاتفاقية الهزيلة بقوله:

إذا ما أعادوا لنا كِسْرةً

من ترابِ الوطنْ...

تغنَّيكَ شطآنُ غزّةَ يا سيِّدي !!

ويبكي الجليلُ انهيارَ الجبالِ

وموْتَ الرّجالِ

ونصرَ الوَثنْ....

وهو يعيش على أمل المستقبل الكفيل بقيام الكيان الفلسطينيّ إلا أن هذا الكيانَ لم تأتِ ساعته بعد:

لنا مَوْعِدٌ سوف يأتي..

فما زالَ سِراًّ دفينا

في ضميرِ الكبيرِ..

....

سنشربُ من بحرِ غزّةَ

وحْلاً..

وذُلا..

وخلاّ..

وهكذا فإنه يعيش كما يعيشُ جميعُ اللاجئين على هذا الأمل الموعود، وإلى أن تقومَ الدولة الفلسطينية سنشربُ نحن العربَ من بحر غزة وحلاً وذلاً وانكسارًا على " ناضِرات الدِّمَن "، أي بقايا القرى التي هدمتها جرافات الاحتلال.

وقد بلغ به الحزن أي مبلغ لأنه يرى أن الإنسانَ العربيَّ يشكو وضعَه إلى الله ولا يلجأ للقوة المسلحة كما جاء في ديوانه السابق "تعاويذ من خزف" ، حيث يقول في قصيدته " أغلقتُ أبوابي":

تمضــــي بنـــا الأيـــامُ تأكـــلُ لحمَنـــا
فنقـــولُ تلـــكَ مشــــيئةُ الأقـــدارِ

كما يدخل أحيانًا في مقارنة، يعرف أنها خاسرة ولكنه يرمي من ورائها إلى كشف مَواطن الضعف لدى الإنسان العربيّ.
ففي ديوانه المذكور يقول:

غيرُنا يغزو مجاهيلَ الفضاءْ
يزرعُ الدّنيا
علومًا.. ونجومًا.. وسناءْ
ويظلّ الناسُ في شرقي عبيدًا
جُهَلاءْ..

من هنا فإنه لا يرى النور في آخر السرداب وكأنَّ العالم سينتهي غدًا أو بعد غدٍ وسيظلّ اللاجئ الفلسطينيٌّ على لجوئه غريبًا ومطاردًا وغير مرغوب فيه حيث حلَّ.

وبما أن العالمَ العربيّ، يتهافتُ على توقيع الاتفاقيات مع إسرائيل، فإن القضية الفلسطينية ليس لها إلا البارود والشهادة أو الاستشهاد.

في قصيدته " عاصفةُ الدّهور " لم أتمالك نفسي عن البُكاء، فنحن شعبُ الانتفاضة الثانية، انتفاضة الأقصى نقدّم الشهداءَ كل يوم، والأمهات الثكالى يبكين بصمت، ويُطلقن زغاريدهن عندما يستشهدُ أبناؤهن الصغار، ولسوف ينتظرن عودة هؤلاء الأبناء في كل صباح وهنّ واثقات من أنهم لن يعودوا، وطالما كانت النتيجة كذلك فإن شاعرَنا غيرُ راضٍ عن النتيجة، لا بل ثائرٌ متمردٌ عليها لأن العمل الفلسطينيّ يودِّعُ الشهداء يومًا بعدَ يوم ومع الشهداء نودِّعُ عيوننا وقلوبَنا، فحتى متى....؟؟!.

إن الانتفاضة هي حلم الشاعر المنشود، لأن الدول العربية كما ذكرنا تلهث خلف أمريكا والعولمة، وضمير العالم مُهْترئٌ يجثو لمن يغزو ويغتصبُ الأرض بقوله:

وضـــميرُ هـــذا الكـــونِ مُهـــترىءٌ

يجثـــو لمـــن يغـــزو ويغتصِـــبُ

وعلى الرغم من نداءات الشعراء لكل شعوب العالم وللدول العربية، إلا أنه لا سميع ولا مُجيب:

أنادي.. أنادي..

صدى الصوتِ يخبو

وفوقَ بلادي يموتُ القمرْ

وفي جَوفِ هذا الثرى عظمة..

صرخة.. :

- إنني الصّوتَ كنتُ

وأنت المدى والخبرْ

ثمّ يعود ليتساءل:

لماذا يجفُّ النهَرْ ؟

لماذا تجفو الحمائمُ أعشاشها الدافئةَ

ويغادرُ فوْحُ الزهر الخميلة ؟

وتموتُ ألحانُ الوترْ

ليبقى الحنينُ والذكريات في رماد السيَرْ ؟.

على صفحة ٩٠ ينصِّبُ الشاعرُ نفسه شاهدًا على ويلات العصر، فالشهادةُ هنا هي وثيقةٌ وتوثيقُ إدانةٍ لمأساة شعبنا الحقيقية، وهو يؤرخُ هذه الشهادةَ لئلا تضيع على مزبلة التاريخ وهو واثقٌ أنه لن يستطيع أحد تكذيبه في المستقبل حيث أن شهادته هي من مصدر أول ورأى ملاحقة الإنسان الفلسطيني بعينه، وأحسَّ الكثير من الملاحقات على جلده...!!.

أنا شاهدُ العصْرِ

والقهرِ... والقسْرِ

والأزمنة...

تدورُ الدوائرُ...

تبكي المصائرُ...

يعلو على كلّ صوتٍ

صريرُ رَحى المطحنة...

في ديوانه السابق " تعاويذ من خزف" الصادر عام ١٩٩٦م يدعو الأستاذ شفيق بشكل واضح إلى أن روعة الحرف والكلمة تكون أحيانًا أقوى من كل الأسلحة، وقد تبيد الحضارات المختلفة، إلا أن الحرف يظلّ مشعاعًا في قوله :

ارفعْ عيونكَ نحوَ أروقةِ الخيالْ

واكتبْ !!

فإنّ الحرفَ مُلتهبًا

أشدّ منَ النصالْ

بادتْ حضاراتٌ..

وظلّ الحرفُ مِشعاعًا

ونارًا لا تطالْ....

ومع ذلك يشعر القارئ من حين لآخر، أن شاعرَنا ملتهبُ العواطف متحمسٌ جدًا في كل ما يكتب، إلا أن نغمة الحزن تسيطرُ عليه، الحزن على أربعة ملايين ونصف لاجئ فلسطيني مُشرَّد، يحلمون بأمل العودة ويحلمون بالآتي وكأنه قريب المنال إلا أنه يتوب فجأة من هذا الحماس، ويتذكر ما مرَّ به من عناء لأيام الرجوع ولعودة اللاجئين الفلسطينيين، فيتنبه إلى أن فرسان الخنوع من حكام العالم العربي، كانوا قد خيَّبوا آماله بالعودة :

كم تغنَّينا بأحلامِ الرُّجوعْ

خيَّبَ الآمالَ فرسانُ الخنوعْ

▪ **الناحيةُ الفنيّةُ في الدِّيوان :**

يقول الدكتور عبد الهادي محبوبة في مقدمته لكتاب نازك الملائكة "قضايا الشعر المعاصر" ما يلي:
(إن شعرَنا العربيَّ - بين الآداب والفنون الجميلة العالمية كان ولم يزلْ في طليعة فنِّ القول من حيثُ معانيه وأساليبُه، ومن حيثُ مضامينه وأغراضه، وصُوَرُ التعبير فيه، ثم من حيثُ موازينُ عَروضِهِ وقافيتِهِ وتنوُّعُ أشكالِه.. فقد دلتنا المجموعاتُ الضخمة من الدواوين المطبوعة والمخطوطة.. على مدى الخصب الذهني والعاطفي، والثراء اللغوي - التعبيري الذي كان يتميز به الشاعرُ العربيّ).

تعتبر نازك الملائكة، أولى شعراء العربية التي كتبت الشعر الحرّ واستجاب لها العَروضُ العربيّ وذلك منذ عام ١٩٤٩م، ونحن نعي فكرة أن الأدبَ؛ كلَّ أدب، ليس له تاريخ ليدَّعي الباحث أن الشعر العربي يتغير في كل زمان ومكان.

الأستاذ الشاعر شفيق حبيب، يتألقُ في ديوانه هذا والذي نحن بصدده حيث أجاد في بعض القصائد العمودية، أي ذات تفاعيلَ وبحرٍ عربيّ - كما هي قصائدُ الشعر الحر- أيضًا التي جند فيها كل طاقاته فجاءت على أوزان بحور الشعر العربي للخليل بن أحمد - واضع أسس علم العَروض، وبما أن الشعر وكل إنتاج

شعري وُضع أساسًا ليُغنى فإن الأستاذ الشاعر أجاد في استعمال بحور الشعر في القصائد العمودية المقفاة كما أجاد في قصائد الشعر الحرّ أيّما إجادة.

ولذلك أيضًا لم يتنازل عن إدخال بعض القصائد العمودية إلى جانب القصائد غير العمودية.

وبما أنه شاعرٌ متمرسٌ في كتابة الشعر، فهو ليس بحاجة لإثبات أن لديه موهبةً في كتابة الشعر من أي لون، وفوق ذلك وهذا هو الأهم ؛ لم ألاحظ صناعةً لغويةً خاصةً على مدى هذا الديوان، بل بالعكس ما نلمَسه هو أن معظمَ القصائد سلِسَةٌ منسوجة، والمعنى هو الأهم، أما القالب اللغوي فهو مُسَخرٌ لديه لنقل المعنى ليصلَ ويدخلَ نفسَ كل قارئ، وقلتُ في الصفحات السابقة إنني لم أتمالك نفسي من الدموع في قصيدته "عاصفة الدّهور" التي منها ما يلي:

قلبي معَكْ..

ورصاصُ وحشِ الغابِ

يحرقُ أضلعَكْ..

قلبي معكْ..

ودماءُ قلبكَ نازفاتٌ

كي تضيءَ الدربَ..

- يا زينَ الشبابِ -

فلم أُصَدِّقْ مَصْرعَكْ..

يا أيها الثاوي !!

على صدرٍ حنونٍ أرضعكْ

تدعوكَ أمكَ في الصّباحِ

فمَن يُجيبُ ؟؟؟

وصوتها الباكي يُهدهِدُ مَسْمَعَكْ :

- عُدْ يا بنيَّ !!!

فكيف تهجُرُ مضجعَك ؟؟!.

وإذا كان شاعرنا لم يعتنِ بشكل خاص بالصناعة اللغوية؛ فليس معنى ذلك أن الديوان خالٍ من المحسنات البلاغية بل على العكس من ذلك، تجد المحسنات منتشرةً على مساحة كل القصائد؛ ولكن بشكل طبيعي وليس مصطنعًا فالجناس مثلا يردُ على الشكل التالي في صفحة ٤٢:

سنشربُ من وحْلِ غزَةَ وحْلاً وذُلاّ وخلاّ..

والاستعارة في كل بيت تقريبًا؛

فجذوري عششَ فيها الدّاءْ / فسلاحي بعضُ تميماتٍ وصلاةٌ خاسرةٌ ودُعاءْ

أو في صفحة ٣١ يقول:

إنَّا في زمنٍ مشروخٍ / منكفئ كمرايا حدباءْ !

فكيف يكون الزمن مشروخًا ؟! وكيف ينكفئُ كمرايا حدباء؟

ثم أنه لا يبخل على القارئ عندما يقول: أنا أومن..! فالدِّين عندي صفاءُ النفس.. مع الله، حيث يقول :

ديــــني مـــع اللهِ لا أرضـــى لـــه وســـطًا
مـــا أُنزلـــتْ للـــدّما والعُنـــفِ أديـــانُ
والجَهـــلُ يطغـــى علـــى عقـــلِ الـــذين غَـــدَوْا
كـــالعيسِ في البيـــدِ لا قيـــدٌ وأرســـانُ
والعـــدلُ أضـــحى قتـــيلاً في ضـــمائِرهِم
والنـــاسُ فـــوقَ دروب البَغـــيِ ذؤبـــانُ

هذه مقابلة جميلة بين العدل والدِّين، بين الناس والذؤبان، بين زارع الأرض وبين جامع الخير والغلات لأن ذلك منبوذ ومحتقر وجوعان وهذا مُتخمٌ وهلمَّ جرا...

ما نلمسه أيضًا بشكل واضح هو الحرية في اختيار الأوزان والقوافي الحُرّة، ثم الموسيقية التي تزيد الكلمات روعةً وبهاءً، ولكن فوق ذلك كله نلاحظ التدفق المتفجر كمياه المطر الزاحفة في مجاري الأنهار والوديان مما يجعلُ قصائدَ الديوان كلها قريبةً

من النفس سريعة المنال لا تعقيد فيها ولا صناعة تؤثرُ أثرًا سلبيًا في نفس القارئ بل عفوية جميلة مُحببة تطبع الديوان بطابعها الخاص وتمَيِّز شعر الأستاذ شفيق بميزة خاصّة وتنقله في طفرة نوعية خاصّة مبتعدًا عما اعتدنا قراءتهُ لهذا الشاعر.

ولا يفوتنا أن نذكر أن المضامين باتت لدى شاعرنا أهمّ من القوالب الشعرية، وهذا ما جعله يلجأ إلى الشعر الحرّ، وفي هذا الشيء الكثير من النضوج الفني الإبداعي والوعي السياسي الاجتماعي، ونحن نعرف أن الإنسان إذا ما قاسى وعانى من وضعٍ مُعيّن ولم يجد له منفذًا منه فإنه سوف يلجأ إلى إبداعٍ من نوع خاص يُعينه على التغلب على ظرفه والخروج منه شامخًا مرفوعَ الرأس، وهذا هو جوهر الانتقال والتداخل بين الشعر الحرّ والشعر الموزون المُقفى اللذَيْن يتبادلان مواقعَهما على صفحات ديوان "صارخ في البرِّية"، كما أن اتحاد الشكل بالمضمون يترك في نفس القارئ الذوّاقة أثرًا كبيرًا بسبب الانصهار الأصيل في اتحاد هذين العنصرين (أعني الشكل والمضمون) اللذَيْنِ تصاحبُهما حركةٌ متدفقةٌ لا نهائية.

دَوْرُ الكلمة في الشعر أن تتجاوز معناها الحقيقي الذي وُجدت من أجله إلى ما هو أكبر وأعمق، فالكلمةُ يجب أن تعلوَ على ذاتها، وأن تزخرَ بأكثرَ مما وُجدت له، وأن تشير إلى أكثر من مدلولها الحقيقي.

يقول أدونيس في كتابه "زمن الشعر" ص١٧: "علينا في الشعر أن نخرجَ الكلمات من ليلِها العتيق، أن نضيئَها، فنغيِّر علائقها ونعلو بأبعادها".

ولا شك أن شاعرنا الأستاذ شفيق حبيب قد وُفقَ إلى مثل هذا كثيرًا، والنماذج على ذلك لا عدَّ لها لأنها تبرز في جميع صفحات الديوان، والقارئ النبيه سوف يلاحظ ذلك منذ الصفحة الأولى والشطر الأول في كلمة عيون حيث يقول :

نحن شعبٌ نتغنى بعيون العولمة

فهل للعولمة عيون؟؟.

إذن هو يُحمِّل كلمة عيون شيئًا آخرَ أكبرَ مما وُجدت له؛ كما يحوّل العولمة إلى كائن له عيون؛ وفي هذا وذاك يبرز التجديدُ والإبداعُ بشكل مميّز.

جريدة "الاتحاد" الحيفاوية ٨-٦-٢٠٠٢

مداخلات أدبية دراسات وأبحاث - ٢٠٠٢

ألمٌ يختزلهُ قلم

قراءة في ديوان " أنا الجاني" للشاعر شفيق حبيب

الدكتور / منير تـوما

كان الأستاذ الشاعر شفيق حبيب، قد أهداني مشكورًا ديوانه الأخير الذي يحملُ عنوان " أنا الجاني "، مع أنني لم أتشرف بمعرفة الشاعر شخصيًّا، إلا إنني كنت قد قرأتُ له العديد من القصائد المنشورة في الصحف المحلية حيث برز دائمًا كشاعر مُجيد متألق في عالم الشعر، لا سيما وأنه عريقٌ في نظم الشعر وله الكثير من الدواوين الشعريّة، التي صدرت له في السنوات الماضية.

يبدو من خلال قصائد القسم الأول للديوان، أن الشاعر يحملُ همًّا من الهموم العربية الكبرى التي تقضّ مضجعَه، فالشاعر يعاني الألمَ والمرارةَ من الواقع العربي الذي يتسِم بالضَّعف والتخاذل والانحطاط، نتيجةً لسوءِ الحال والنيّات السيئة والانقسامات المفتعلة، فالعرب في تصور الشاعر، بحاجةٍ لمحاسبة الذات والوقوفِ قليلا مع النفس واستعادة أحداث الماضي بكل أبعاده وتفصيلاته، ومناقشةِ الأمور كلها بحُريّة،

وديمقراطية لكي يكونَ الإنسان حُرًّا قادرًا على استعادة كرامته المهدورة أمام الهجمات الشرسة الكاسحة التي يتعرض لها، منطلِقًا من ثقته بنفسه وقدراته.

ويحاولُ الشاعرُ بأسلوبه الشعري الخاص إيقاظَ العرب من غفلتهم وتنبيههم إلى أخطائهم وتذكيرهم بها، بالسّخرية تارة وبالتقريع واللوم تارة أخرى فالهزائمُ والانتكاساتُ زرعتْ اليأسَ في قلوب الناس وكرّست الشعور بالموت، وقطعت كل ما تبقى من أمل وطموح، وهذا ما جعل الشاعر يثورُ غاضبًا، مُتألمًا من حال العرب الذين أدمنوا الذلّ والهزيمةَ مسرعين إلى إضاعة الوقت في كل ما لا يُفيد ولا يسمن أو يغني من جوع، وهو يعبِّر عن ذلك قائلاً:

أضـــحى الضَّـــياعُ مـــواقفي وعواصـــفي
والحـــــزنُ أصـــبح مـــأكلي وشـــرابي
(ص ١٤)

ويجلدُ الشاعرُ المتخاذلين من الحكام العرب، ويصوِّر مآسي قومه وقتامه واقعهم بعد رحلة حزينة مؤلمة فيقول :

صَـــمَتَ الزنـــاةُ.. فأرضُـــنا محروقـــةٌ
والنـــارُ تأكـــلُ أحـــرفي وكتـــابي
فمزابـــلُ التـــاريخ جَـــوعي للـــذي
يحيـــا حيـــاةَ مذلـــةٍ وكـــلابِ

ويتعرّض الشاعر لقضايا الشعب العربي المصيريّة، ويحمّل المآسي المتعاقبة لمن تسبّبوا بها من العرب الذين نسُوا سنوات الشموخ وتراثَ الأجداد، فغرقوا في وحول ملذاتهم وشهواتهم حيث يقول :

كلابُ عُروبتي تقعي...
على أعتابهم جوعي..
لعلّ الله يُعطيها...
عظامَ موائدِ الأسيادِ والجانِ
وتشغلها حواراتٌ
عن النسوانِ.. والفتيانِ.. والخصيانِ
عن طاقات شيطانِ
يضاجعُ ألفَ أنثى كل يومٍ
يفتحُ الدّنيا...
فهذا الشرقُ ماخورٌ
وبحرُ قذىً وأدرانِ
ننادي.....
عاش هذا الزيرُ
رافعَ هامةِ العربانِ
من طرشٍ وعُميانِ
(ص ٢٨)

لقد عصف الواقعُ العربيُّ بأحلام الشاعر وآماله، وفقد العالم العربي أولى الحتميات وهي الثقة بالنفس، وازداد الشعور بالمرارة واليأس، ولما كان الشعراءُ يمتلكون رهافة الحسِّ والمشاعر، كانوا أسبقَ الناس تأثرًا ومعاناة، والشاعر شفيق حبيب يعترف بذلك:

لم يبــقَ في حاضــري شــيءٌ أقدّسُــهُ
أضــحيتُ بــينَ الــورى عنــوانَ إجــرامِ

الــذلّ في الشــرق مــوروثٌ نتيــهُ بــهِ
ســائلْ فلــولَ قيــاداتٍ وحكــامِ

يــا أمــةً نشــرتْ يومًــا حضــارتها
مــالي أراكِ بــإظلامٍ وإعتــامِ

مــالي أرى شمسَــكِ الغــرّاءَ غاربــةً
كيــف المصــيرُ إذا مــا انهــار أقــوامي؟

يــا أمــةَ العُــرْبِ هــلا يســتفيقُ بنــا
عقــلٌ يقــودُ إلى المينــاء أعلامــي؟

لا كــانَ شــعري ولا كانــت قلائــدُهُ
إنــي سأكسِــرُ بعــدَ اليــومِ أقلامــي
(ص ٣٢)

إنَّ المتأمِّلَ في هذه الأبيات سوف يرى بوضوح أنَّ لغةَ الشاعر هنا هي لغة اليأس ولغة الحزن، ومن خلالها يعلن كُفْرَهُ بالموجودات كلها، فقد تحوّلت حياة الشاعر اليوميّة إلى النقيض، فحزنُ الإحباط العربي بدّلَ مُتعته ألمًا يغزو الجسدَ والنفسَ كما تصوِّرُها تلك الصّورةُ الكئيبةُ والحالةُ النفسيةُ السيئةُ التي أحاطت بالشاعر.

إنّ الشاعر لا يكشفُ عن واقع، لكنه يكشف عن الحزنِ الذي يسكنه، والمرارةِ التي تعتريه، فهو يُبرز العاهاتِ والعيوبَ التي تشلّ أجسادَ ونفوسَ العرب، وتوقفُ تحركهم الطبيعي في القضايا المصيرية، فالطبيعة العربية، والشخصية العربية وما جُبلت عليه، قد خالفها العرب، فأصبحوا ضدَّ قِيَمِ العرب وفخرِ العرب وشرفِ العرب :

لماذا يصْمتُ الشعراءْ

لماذا ينزوي البُلغاءُ والخطباءُ

والبُصَراءْ..؟؟

فهل باعوا ضمائرَهم

لنخّاسي قصورِ البغيِ والغوغاءْ...؟؟

وهل يهبون ألسنةً نعالاً

يحتذيها السّادةُ الأمراءْ..؟؟

إذا ديست كرامتنا

إذا ضُربت على الهاماتِ أمتنا..

بعُرفِ شراذمِ الجُهَلاءْ...

(ص ٥٠-٥١)

ويرى الشاعر أنّ الشعوبَ هي التي تصنع جلاديها الذين يحوّلونهم إلى قطيع أشبه بالحيوان، يساقُ سَوْقَ الأنعام، ويَسلبون إرادتهم ويكتمون أنفاسهم، وهو يتهم أمّة العرب بأنها فقدت أملها في المستقبل لأنَّ الفصام قد أصابها، ففي نفسها شيء، وفي سلوكها شيءٌ آخر، فإرادتها مسحوقة، ولا تنطق ضدّ الجور والطغيان ببنت شفة، وأبناءُ هذه الأمة أصبحوا موتى في صورة أحياء قد أعياهم الانكسارُ والهزيمةُ والذلُّ :

يا إخوتي!!

في مرجلِ النيرانِ

في الكرِّ..

وفي الفرِّ..

وفي الخصامْ..

هذي حميرُ الوحشِ..

من قحطانَ..

من عدنانَ..

أعياها..

وأدمى نفسَها الفصامْ

إني أرى جهنمًا تحرقهم..

لكنهم.. نعامْ...

لكنهم.. نِيامْ...

(ص ٦٣)

إنّ الشاعرَ يحاولُ بروحه الشعرية أن يُعرّي الفسادَ المتفشّي في الوطن العربي على صعيد الإعلام مستعيرًا مرض الكلب كرمز للكذب والنفاق والتلفيق والخداع والرذيلة والزور والادعاء، فيتوجه إلى الحكام العرب قائلاً :

أيها القادةُ في دنيا العربْ !!

أغلِقوا كلَّ الإذاعات

وشاشاتِ المراني

قد أُصيبت بالكلبْ..

أصبح الطمْثُ..

وعَوْراتُ الغواني

كلَّ ما يعني أساطينَ الخطبْ..

ونسينا أين كنا....

أين أصبحنا...

وما الآتي سوى جهلٍ

وحزنٍ... ووصَبْ....

(ص ٦٦)

ويتابع الشاعر متحسِّرًا على ما آلت إليه حالة الأمّة العربية من تردٍّ وضياع بعد أن كانت تفاخر الأمم بأمجادها الغابرة المشرقة:

أمَّتي تمشي على

دربِ انهياراتِ الحِقبْ

كيف كنا سادةَ الدنيا

وأصْبحنا حذاءً... وذنبْ..؟؟

(ص ٦٧)

إنَّ الشاعرَ في هذا الشعر لا يدعو إلى تحطيم معنويات العرب، والقضاء على كبريائهم، وإنما يضع يديه على الجرح، ويصرخ بصوته القويّ كاشفًا الستارة عن الحقيقة المؤلمة البشعة، وعن نقاط ضَعف الأمّة، فالشاعر يوضح الأخطاء ويدعو إلى تجاوزها وإن استخدم أساليب اللوْم والتعنيف والسخرية، فهو شاعر حُرٌّ وغيورٌ على شعبه، ومُحِبٌّ لوطنه، يرفضُ له ما

يرفضه لنفسه من خنوع واستسلام وذلّ، ويتألم لهذه الأوضاع المهينة المأساوية التي تجسِّدها الأبيات التالية:

ينـــــامونَ ســـــكرى في قــــرونٍ ســـــحيقةٍ
وتشـــعِلهم في الصّـــحو دنيـــا الرذائـــلِ
دواجـــنُ هـــذا العصـــر أبنـــاءُ يَعـــرُبٍ
فنـــامي هنيئًـــا يـــا فلـــولَ القبائـــلِ
فـــلا الـــدّينُ يُجـــدي في زمـــانِ الجحافـــلِ
ولا اللهُ يُعطـــي في عُصـــورِ التخـــاذلِ

(ص ٣٩)

ويلجأ شاعرُنا في قصيدة "يسوعُ ابن الإنسان" إلى الاستغاثة بالسيد المسيح باعتباره رمزًا للألم والخلاص والسلام ونصيرًا للمستضعَفين والمعذبين في الأرض حيث يجدُ الشاعرُ في ذلك عزاءً روحيًا يخفف من وطأة آلامِهِ ومعاناته النفسية النابعة من الأحوال المتردِّية لأمته أو شعبه الرازح تحت نير القهر والظلم والاستغلال، والسّادر عن مجابهة واقعه القاتم الأليم...

وها نحن نستمعُ إلى الشاعر وهو يخاطب السيد المسيح قائلاً:

أيّهــــا المـــــاردُ القـــــويُّ أجرْنـــــا

نحـــنُ في خنـــــدقٍ ظلـــومِ المقـــامِ

أنـــت نـــورُ الـــدُّنى إذا جـــنّ ليـــلٌ

أنـــت حـــقٌّ يُبيـــدُ نـــارَ الخصـــامِ

أنـــت نـــورُ الحيـــاةِ في كـــلِّ عصـــرٍ

أنـــت بـــدءٌ وأنـــت مِسْـــكُ الختـــامِ

(ص ٨٠)

ومن الجدير بالإشارة هنا إلى أنَّ ديوان الشاعر شفيق حبيب الذي نحن بصدده، يتضمن في قسميه الأخيرين قصائدَ تقعُ وتندرجُ في إطار الرثائيّات وشعر المناسبات، ويبرز في هذه القصائد صدقُ الشاعر في التعبير عن أحاسيسه ومشاعره تجاهَ المواقف التي تناولها بلغةٍ وجدانيةٍ شفافةٍ رقيقة، ذاتِ نزعاتٍ إنسانيةٍ جديرةٍ بالتقدير والاحترام.

وخلاصةُ القول إن الأستاذ الشاعر شفيق حبيب مطبوعٌ بطابع الحساسيّة المرهفة والذي سعى بحرصٍ متناهي الجوانب في ديوانه هذا، إلى الانخراط بقصائده، في مضمون السياسة الوطنية القومية القويمة الهادفة. وحين نتعمقُ في خبايا شاعريته، نقف على تطوّر الأحداث التي عصفت وما زالت تعصف بالشرق العربي، لترينا وقعَها على نفسه، وانجذابَه إليها بنزعات سليمة التواصل، مضمونة الأهواء والمرامي. وقد

عبر الشاعر عن أحاسيسه الحقيقية في محبة شعبه وأمّته ووطنه وإن كان قاسيًا أحيانًا من منطلق غيرته عليهم. إنه في كل قصيدة من قصائده ذات النمط الجريء، ينطلقُ في قضيته انطلاقَ عنفوان، ويُظهر من الكبرياء الجريح، والعَزّة المُسْتباحة، ما يوقظ الضمائر، ويبسطُ من مشاهد الظلم والفتك ما يستثير الهمم الغافية، ويفتحُ من صفحات التاريخ ما يبعثُ الشوق إلى المجدِ الذي هو غاية كل الشعوب الكريمة.

ولذلك نرى أن الشاعر يدرك بأنّ نهضة الأمّة المسلوبة الإرادة لا تقوم إلا على وعي أبنائها، والخروجِ بهم من ظلمة الجهل والتخاذل، وهو بذلك يحسّ آلامَ شعبه ومجتمعه، وآلامَ نفسه المعذبة في أوطانٍ مُستباحَة لا يجدُ المستبدّون عنها انفكاكًا. لذا فإنه يبذل كل طاقته الشعرية لإيقاظ الضّمائر النائمة ونشر الكلمةِ المسئولة، وإن كانت تطفحُ ببعض المعاناة المتراكمة في صدره.

وأخيرًا، أصدق التحيات، وأطيب التمنيات للأستاذ الشاعر شفيق حبيب بدوام الإبداعِ وارتقاءِ القمّة من الإحساس الجماليّ، والصِّدقِ الوجدانيّ.

جريدة "الاتحاد" الحيفاوية ١-٦-٢٠٠٥

وقفة مع ديوان " أنا الجاني "

للشاعر شفيق حبيب

الناقد / شاكر فريد حسن

"أنا الجاني" هو عنوانُ الدّيوان الشعريّ الأخير للشاعر شفيق حبيب والذي أهدانيه مشكورًا، وشفيق ليس بالاسم الجديد المطروح، وإنما هو من الوجوه الأدبية الفلسطينية المخضرمة والمثابرة الملتصقة بالأرض والتراب وبصخور وحجارة الوطن، عانى من التعتيم ولم يُسوَّق إعلاميًا ردحًا من الزمن وتعرّض للاعتقال والتعذيب والإقامة الجبرية بسبب ديوانه "العودة إلى الآتي" الذي يتغنى بالانتفاضة وبشهداءِ الحجارة، وكان قد صدر له سابقًا ثلاثةَ عشرَ ديوانًا شعريًا وهي – قناديل وغربان – مأساة القرن الضليل – دروب ملتهبة – وطن وعبير – أنادي أيها المنفى – أحزان المراكب الهائمة – الدم والميلاد – العودة إلى الآتي – ليكونَ لكم فيَّ سلام – آهِ يا أسوار عكا !! – تعاويذ من خزف – لماذا..؟؟ - وصارخ في البرِّيَّة.

رُؤى ديوان "أنا الجاني" ومضامينه موزّعةٌ ومنوعةٌ بين الوطنيّ والمناسباتيّ والدّفقِ الوجدانيِّ الإنسانيّ، وهي تصوِّرُ الحالةَ العربيةَ الراهنةَ، والوضعَ الفلسطينيّ العامّ والهمومَ الوطنيةَ والقوميةَ وأحلامَ شعبنا في الحرية والاستقلال الوطنيّ وتعبِّر عن إحساسه الفاجع بالحياة ومشاعر الألم والإحباط والمرارة وخيبة الأمل التي يعيشها جرّاء ما آلت إليه الأوضاعُ العربية من تردّ وتخاذلٍ وهزيمةٍ وخنوع، فيصرخ في وجوه القادة والحكام العرب المتخاذلين والمتواطئين قائلاً :

يـــا قـــادةَ القطعـــانِ!! مـــا أنـــتم ســـوى
قِطـــعٍ علـــى قِطـــعٍ مِـــن الأخشـــابِ
أضـــحى كيـــانُ عـــروبتي وعقيـــدتي
تمثـــالَ شمْـــعٍ في اللـــهيبِ مُـــذابِ
يـــتكلمُ الحجـــرُ الجـــريحُ منافحًـــا
وملأتمـــو أفـــواهكم بـــترابِ
صـــمتَ الزُّنـــاةُ فأرضُـــنا محروقـــةٌ
والنـــارُ تأكـــلُ أحـــرُفي وكتـــابي

ويُعرّي الفسادَ والنفاقَ والرياءَ المتفشّيَ في المجتمع العربي، ويكتبُ بالجمر الحارق عن الجرح الفلسطينيّ الدامي والقدس المتألمة وعن الذلّ والهوان ووعي الأمة العربية المفقود:

لم يبـــقَ في حاضــري شـــيءٌ أقدّسُـــهُ
أضــحيتُ بـــينَ الـــورى عنـــوانَ إجـــرامِ
الـــذلُّ في الشـــرقِ مـــوروثٌ نتيـــهُ بـــه
ســـائلْ فلـــولَ قيـــاداتٍ وحُكّـــامِ
يـــا أمّـــةً نشـــرتْ يومًـــا حضـــارتها
مـــالي أراكِ بـــإظلامٍ... وإعتـــامِ
مـــالي أرى شمسَـــكِ الغـــرّاءَ غاربـــةً
كيـــف المصـــيرُ إذا مـــا انهـــارَ أقـــوامي؟

ويبكي بغدادَ العزّ والمجدِ والتاريخ وشعلةَ العلم وبصرةَ النور وكربلاءَ الطهر ونجفَ الأشراف ويتساءل بحرقة وألم :

يـــا دجلـــةَ الخـــير ! مـــاذا حـــلّ وا لهفـــي
عـــاث التتـــارُ دمـــارًا حيثمـــا انتشـــروا
أرضُ الحضـــارات نـــاءَت تحـــتَ مغتصِـــبٍ
مـــا مـــن مُجـــيرٍ ونـــارُ الحقـــدِ تســـتعرُ
عـــادت جحافـــلُ هولاكـــو تمزّقهـــا
لا خـــيرَ في أمّـــةٍ تـــذوي وتنكســـرُ

ويحكي عن أطفال فلسطين، زنابقِ القبورِ وينابيعِ المستقبل، ويسألُ عن صَمْتِ الشعراء في هذا الزمن الرديء الذي تداس فيه الكراماتُ وتضرب الهاماتُ وتصادرُ الحرِّيات، ويخاطِبُ المسيحَ ابنَ الإنسان ورسولَ السلام ومبعثَ إشراقةِ النورِ في عصور الظلام ويستغيثُ به ليُخلصَ شعبَه وأمته من القهر والظلم والمعاناة النفسية والجوع الكافر...

أيهـــا المـــاردُ القـــويُّ أجرْنـــا
نحـــن في خنـــدقٍ ظلـــومٍ المقـــامِ
أنـــت نـــور الـــدُّجى إذا جـــنَّ ليـــلٌ
أنـــت حـــقٌّ يُبيـــدُ نـــارَ الخِصـــامِ
أنـــت نـــورُ الحيـــاةِ في كـــلِّ عصـــر
أنـــتَ بـــدْءٌ وأنـــت مِسْـــكُ الخِتـــامِ

ويذرفُ الدموعَ على فيصل الحسيني الفارسِ الذي رحلَ بشموخٍ وإباء وعانقَ أمجادَ القِنن وعاش مسكونًا بعشق الأرض والتاريخ والقدس وعاد محمولا في كفن ويحزن لرحيل توفيق العفيفي (أبو أحمد) السابح في طيفه بين الأحبة كالنسائم فوق كل الأمكنة، ويتألم لموت وغياب الشاعر شكيب جهشان، شاعرِ مجدِ الحرف الذي كتب بحروف من دم ملحمةَ شعبه الذي يحرقه لهبُ النيران ويُدميه العدوان، ويشدو لملائكيّة الصوت

الملائكي الساحر والأخاذ فيروز التي تسكرنا وتشجينا بأنغامِها وألحانِها وبوشوشات نجوم الليل، ويبعثُ برسالة حبٍّ وودّ للأمهات في عيدهن السعيد في آذار...

وتمتاز قصائدُ الديوان بالتنوّع في بنائية النص وبالوضوح والبساطة والسلاسة ووهج المشاعر والانفعالات والدفء الإنساني الحميمي والعفوية الجميلة، وفيها حِدَّةٌ وانفعالٌ وتوترٌ ورونقٌ وجماليةٌ وقدرةٌ تعبيريةٌ تمسّ أعمقَ المشاعر وتتجلى من خلالها العاطفةُ الوطنيةُ المشبوبة الملتهبة والصادقةُ وفيضُ المعاني والصّورُ الجذابة والخلابة وبلغة أحلى من تمْر أريحا وبيسان كما أنها تزخرُ بالدلالات والإشارات والتوصيفات والتشبيهات والمفردات الحية والتعابير الشفافة التي تواكبُ ركبَ الحداثة والتطوّر، بالإضافة إلى توظيف الرموز والأسماء التاريخية.

شفيق حبيب الشاعرُ المتألمُ والغاضب، غنيُّ الإحساس ويخوضُ غمارَ المعركةِ لتحرُّر الإنسان العربي من أحكام المجتمع وتقاليدِه ومن قيودِ الظلم والخنوع ويمثل الحسَّ الوجدانيَّ الفلسطينيَّ، وقصائدُه تصلُ إلى قلوب الناس بدون وسائطَ نقديةٍ ونستشفُّ فيها الحزنَ والشجنَ والأنينَ والمرارةَ والتحدّيَ والغضب، وهو صادقٌ إلى أبعد الحدود ويكتبُ بسلاسةٍ وتلقائيةٍ وبساطةٍ وصدقٍ متدفق، ومعانيه معبرةٌ وجُمَلهُ

مموْسَقة وأبياته موزونة، والقضايا الوطنيةُ والقوميةُ والسياسيةُ المختلفة، هي شاغلهُ الشاغل وتطغى على قصائده..

وأخيرًا يبقى القول : إن ديوان " أنا الجاني " إضافةٌ جديدةٌ لشعرنا الفلسطينيّ الوطنيّ والسياسيّ والاحتجاجيّ وهو ومضاتٌ شعريةٌ تنمُّ عن موهبةِ الشاعر وسيطرتِه على مجريات نصِّه، وإننا نرحِّبُ بالديوان ونتمنى للشاعر شفيق حبيب دوامَ العطاءِ والإنجازِ الإبداعيّ...

حديث الناس النصراوية

١٨-١١-٢٠٠٥

"صارخٌ في البرِّية"

شفيق حبيب : شاعرٌ يؤمنُ بالكلمة قبل أن "يصرخَ بها"

الناقد / نبيل عودة

بعد صدور ديوان " صارخٌ في البرِّية " للشاعر شفيق حبيب، وجدتها مناسبةً لأحققَ ما يراودني منذ فترة طويلة، وبإلحاح، أن أكتبَ عن أعمال الشاعر الذي يتواصلُ حضورُه ونكهته الشعرية المميزة منذ أكثر من أربعة عقود.. وعبر ١٤ ديوانًا شعريًا.

ورغم هذا الزخم من الإنتاج والحضور الأدبي النشيط والمتواصل إلا أن شفيق حبيب مثل الكثير من المبدعين الجادّين لم يُسَوَّق إعلاميًا، وبقي شاعرًا "غير لامع" وربما لهذا السبب ألحّ عليَّ دافعُ الكتابة عن شفيق حبيب ويبدو أني أفعل ذلك تمشيًّا مع حديث تراثي لا أذكر قائله جاء فيه : "أفضلُ الجهاد كلمةُ حقٍّ عندَ سلطانٍ جائر"، وشفيق حبيب يُعطيني شعورًا أنه لا يكتب بالقلم إنما بأظافره، ولا يردعُه أنّ لوحةَ الكتابةِ من الصخر أحيانًا، ورغم أصابعه الدامية يواصلُ نقشَ كلماته بإصرارٍ وصدقٍ وتصميم وإيمانٍ بكلِّ كلمة.

يا أبا ذرٍّ تقدَمْ !!!

وازرعِ الثورةَ ضوءًا

في القلوب المُعْتِمَه

كما جاء في قصيدته " أبو ذر الغفاري والعولمة " ويشرح دعوته لأبي ذر :

نحن شعبٌ...

صادرًا الجهلُ فمَه

عُد إلينا يا أبا ذرّ !!

وقدِّمْنا لسيف المحكمة...

من الخطأ رؤيةُ هذا الألمِ الذي يمتزجُ بكلمات هذه القصيدة كانهزاميّةٍ وتشاؤمٍ واستسلام، إنما استنفارٌ، لأنقى ما في تاريخ الفقراء الشرفاء ضحايا الاستبداد منذ قديم الزمان وصولاً للعولمة، بأن يجيءَ زعيمُهم أبو ذر شاهرًا سيفه لأننا :

نحن لسنا في رحابِ العولمة

إنما نحيا عصورًا مظلمة

هذه الروح الشعرية المتوثبة، نلقاها تمتد على مساحة معظم قصائده الوطنية، بل وحتى في المقاطع الغزلية من شِعره.

في قصيدته "لنا مَوْعِدٌ" يقودنا عبرَ المأساة والحزن إلى باب الأمل والمستقبل أحيانًا، يُشعِرُكَ أنه يبكي بيأس، غير أن بكاءَهُ أو يأسَه هو المخاضُ الذي لا بدّ منه لكي يولدَ المستقبل / الحلم...

على أرض هذا الوطنْ..
لِعبنا صغارًا هربنا كبارً..
ودارت بنا دائراتُ المِحَنْ...

وينهي قصيدته بإصرار المقاتلين :

سنشربُ من بحرِ غزَّةَ
وحْلاً... وذلاّ...
وخلاّ...
ونحيا على ناضرات الدّمنْ..
لنا موعدٌ يا مخاضَ السنين !!
فمولودُنا...
دولةٌ من شجن.

الشاعر شفيق حبيب يبني هذه القصيدة بحذر، وأكادُ أقولُ بإحكام، مبتعِدًا عن كل ما يمسُّ تدفقَ المعنى، ومميزات قصيدتِه هذه أنك تتحمّسُ لتعيد قراءتها.

على أرضِ هذا الوطنْ

لعِبنا صِغارًا

هربنا كِبارًا

بكلمات قليلة وبسيطة، يُدخلك شفيق حبيب بجوّ المأساة، وتعبير "هربنا كبارًا" فيه سخريةٌ ونقدٌ ذاتي عنيف، بل دامٍ، لروح الاستسلام والضّعف والوهن في الدفاع عن الحق.. وأي حق ؟؟ الحقّ في الوطن والأرض والبيت، الحقّ أن نكون شعبًا له تاريخٌ وحاضرٌ ومستقبل، وبمفهوم آخر ألحقُّ في أن نكونَ بشرًا....

الملاحظ أن الشاعر شفيق حبيب هو شاعرُ الكلمة الغاضبة، وقد يميلُ البعضُ لتسمية ذلك بشاعر الكلمة الثائرة، وأنا عن قصدٍ ابتعدتُ عن استعمالِ صياغاتٍ مثل شاعر الغضب أو شاعر الثورة، حتى لا أدخل في مبالغات فكرية، وحتى أحافظ على دلالات الكلام بحدودها الواقعية، ولأن الغضبَ عند شفيق حبيب هو غضبٌ على الواقع المُعرَّف، وليس غضبًا بلا حدود، فنجده في غزلياته رائقًا مسحورًا ولهذا ترقصُ كلماته بجذل :

مـــا زلـــتُ مُـــرتحلاً في شـــهقةِ العســـلِ
والليــلُ يجمعنــا بحــراً مــن الغــزلِ
تـــأتين عِشـــقًا وفي عينيـــكِ أغنيـــةٌ
أشـــهى مـــن الـــوردِ والأطيـــابِ والقبَـــلِ

من هنا غضبُ الشاعر شفيق حبيب هو غضبٌ له عنوانٌ واضح، وهو غضبٌ ينطلقُ من رؤيةٍ واعيةٍ لحقيقةِ الواقع، ويهدفُ إلى استنفار قوى الخير للعمل على تغيير الواقع، فنجدُه مرة يستنجد بأبي ذر الغفاري، ومرة يستنجد بأجداده في نجران وتاريخِه الأصيل.. (قصيدة "آهِ لو عدتُ") وحتى لا يخطئ أحدٌ في حنين الشاعر لأجداده في نجران يقول :

إنَّ في نجرانَ أجدادي...
وتاريخي الأصيلْ...
ولساني عربيّ
جاءَ من ينبوع قرآنٍ جليلْ

الشاعر شفيق حبيب يثبتُ في شعره أن للكلمة دورًا أكبرَ من مجرّد أن تشكلَ لبنةً في مبنى القصيدة..

للكلمة مسؤولية، وهو من رعيل الأدباء الذين لم يُسَوِّقوا أنفسهم بل " سوَّقهم أدبُهم " إذا صحّ هذا التعبير...

ويجيئني هنا قولُ الخليفة عمر بن عبد العزيز : " إن هذه الأمةَ لم تختلفْ في ربِّها ولا في كتابها، وإنما اختلفت في الدّينار والدّرهم ". ومن هذه الزاوية أفهم قصيدته "انكساراتٌ حادّة" التي يُهديها "إلى مدّعي المسؤولية الذين ينكرون على الشعر صوته في مناسباتنا الوطنية وإلى الشعراء الزاحفين على بطونهم كالأفاعي" فيقول :

كان صوتُ الشعر أسمى آيةٍ

في سِفرِ آيات النضالْ..

ألهبَ الجمهورَ في يومِ التصدّي والنزالْ..

وأخافَ الحاكمَ المأفونَ...

ثم ينتقد الذين "استكانوا كالسِّخال" ويقول :

أصبح الشعرُ شعيرًا

بين أسنان البغالْ..

إلى أن يُلقي صرخته ورؤيته :

يا جراحي..!!

يا جراحات الوطنْ..!!

أصْلبُ القاماتِ عودًا..

قامةٌ طهَّرَها جمرُ المِحنْ...

ومع ذلك على غير العادة، نهاية القصيدة فيها من المرارة ما يُقرّبها من الانهزامية، ولكنها تبدو في النغمة العامّة ككبوة همام، ينطلق بعدها إلى أين ؟؟ :

آهِ يا شبّاكَ هذا العمرِ

يعلوكَ الغبارْ

جفتِ الأزهارُ والأنهارُ

فالأرضُ يبابٌ واحتضارْ..

وينهي قصيدتهُ :

بات للسُّمارِ والأوتارِ والأحرارِ

في البالِ

حكايا.. ومرايا.. وشظايا...

ومشاريعُ انتحارْ...

وفي الحقيقة طرحتُ على نفسي سؤالاً : لماذا نفهم الانتحار كانهزامٍ وليس كقمّةٍ في البطولة ؟؟

ولكن ما أرجوه ألا يكون موقفُ الشاعر شفيق حبيب هنا مثلَ ذلك المتصوِّف الذي لم يكن يستجيبُ للدعوات على الطعام، وعندما سُئِلَ عن السبب قال : " انتظارُ المرق ذلّ " بمعنى أن انتظار الفجر الجديد مأساويّ لدرجة شديدة القسوة تدفع المناضل للانتحار...

شفيق حبيب في لغتهِ الشعريةِ لا يميلُ للرمزيّةِ المركبة...جُمَلهُ واضحة، ويرى بالشعر سلاحًا ثقافيًا ليس للحماسة فقط، إنما للتوجيه بوعيٍ ومسؤولية، وقصائدُه قريبة للحياة اليوميّة بصعودها وهبوطها، وبالصراع بين الخير والشر... وفي كل الصّياغات والأساليب الشعرية، نجدُه يحافظُ على موسيقى شعرية تعطي لكلماته أبعادًا حماسية.

ويبدو أن قناعاتِ الشاعر شفيق حبيب ورؤيتهُ لمهمةِ الشعر ودورهُ النضاليّ في الظروف العينية التي يحياها شعبُنا تدفعُه أكثرَ للشعر المهرجانيّ.. وأعني الشعرَ النضاليّ الذي يتناسب والمهرجانات والمسيرات السياسية، ولكن يبدو أن البعضَ لم يعودوا بحاجةٍ إلى هذا السلاح أو يرتعبون من ارتفاعِ شأن قصائدَ شعريةٍ نضالية على "تمثيلياتهم" الوطنية ويريدون أن تبقى سطوتهم على كل الأسماء الشعرية..
"فمَنْ مَلكَ استبدّ" كما جاء في نهج البلاغة ومع ذلك، كما يقول أبو ذر الغفاري : "يخضمون ونقضم.. والموعدُ لله..."

جريدة "العين" النصراوية

١٢-١٠-٢٠٠١

الشاعر شفيق حبيب ، وديوان "شآبيب"

الناقد / نبيل عودة

بعد انقطاع يبدو أنه طالَ كثيرًا، يُطلُّ علينا الشاعر شفيق حبيب بديوان جديد يحمل عنوان "شآبيب" والتي يفسرها "المنجد" بأنها (أول ما يظهر من الحسن) ولعله ليس الدهن في العتاقي فقط، إنما حسن النظم أيضًا، فنحن نعتقد أن "الحُسْن الأدبي" ظهَرَ في شعر شفيق قبل أن يرسو على شاطئ السبعين واليوم يُضيف لحسنه حسنًا، يقول عن سبعينيته:

علـــى شـــاطئ الســـبعينَ حطـــتْ مـــراكبي
ونــــاءَت بأعبــــاءِ الرزايــــا منــــاكبي

ولكنه يعلن هويته بصوت مجلجل:

أحـــبُّ فلســـطيني وأهلـــي وأرضَـــها
إذا مسَّـــهم ضَـــرٌّ تنـــادت كتـــائبي

نعرف أن الشاعرَ كلماته، وما أشدَّ بأسَ الكلمة حين تصدر من عمق الإنسان. شفيق حبيب مثل سائر شعراء فلسطين، لا

يستطيع العيش بدون موقف، وبدون الخوض في الصراع السياسي، أيًا كان نوعه. فها هو لا يوفر نقده من الواقع المُعيب، يقول:

وأصبح لي عَرْشَانِ يا عارَ عارنا
وخيرُ بني أمّي طعامُ النواعبِ

وكيف لا يغضب وهو القائل في نفس القصيدة :

أنا شاعرٌ تغذوهُ آمالُ أمَّةٍ
وآلامُهَا، والحرفُ ثرٌّ المواهبِ

وأكاد أقول إنها أكثر من قصيدة، هي بيانٌ إنسانيٌّ لشاعرٍ فلسطينيّ، يرى ما يؤلم، ولكنه متفائل بحزن وألم.

للشاعر شفيق حبيب ١٥ ديوانًا شعريًا مع "شآبيب" وضَعَتهُ على خارطة الأدب الفلسطيني، صوتًا جهورًا واضحًا، تتميز قصائده بالوضوح والتكثيف، ويبدو لي أيضًا أن جيل السبعين هو محطة للتفكير بالطريق الصعبة التي قطعناها. فها هو يثبت رؤيته الأساسية على الغلاف الأخير:

لعنَ الله السياسة...

وثعابينَ السياسة...

لعن اللهُ أساطينَ السياسة

وجهُهُم ينضحُ لؤمًا وخساسه

ملأوا الدين شعاراتٍ

صُراخا... وحماسه

...

حقًا كلامٌ مباشر، أشبه ببيان سياسيّ ولكنها خيرُ تجربةِ العقود السبعة. هنا قد نختلف في التقييم، ولكننا لا نختلف أن ما تبقى لا يرقى للمستوى الذي نستحقه.

الصوت الوطني لشفيق حبيب يكاد يجلجل حتى حين يكتب غزلاً:

أحْـــزانُ عَينَيـــكِ أمْ أحـــزانُ أوطـــاني
تنهَـــلُّ بُركـــانَ وَجْـــدٍ فـــوقَ بُركـــانِ ؟؟

(من قصيدة أحزان وأحزان)

وفي قصيدته التي تشع بالسخرية المرة : أصبحتْ لي دولتان" يُعلنها بألمٍ سوداويٍّ ساخر :

أسمعي أيتها الدنيا !!

أهازيجَ البيانْ...

أصبحتْ لي دولتان...

دولةٌ :

تأكلُ رملَ البحرِ

تحيا في تلافيفِ الرِّهانْ

غابَ عنها الماءُ.. والنورُ..

وأفراحُ المكانْ.

دولةٌ أخرى

تجيدُ القفزَ من حِضْنٍ لحِضْنٍ

فوق كفيْ بهلوانْ . . .

القصيدة تكاد تكون رثاءً لحلمٍ على شفا الضياع لعلّ الضميرَ يستيقظ :

هاكمو أموالَ قارونَ

وأعطونا ترابَ القدسِ تِبرًا

وسلامًا.. وأمانْ..

يا سواقينا ! ارجعي نهرًا

وقلبًا واحدًا..

روحًا . . . دِماءً.. ولِسانْ . . .

هذه لمحة سريعة عن ديوان شآبيب، ديوان جيل السبعين، ولكن السنوات لا تضعف إيمانَ الشاعر بالكلمة، بل نراه يزدادُ حكمة، وفي الوقت نفسه يزداد قلقه، فنجده في قصيدة "لعنه"، يلعن السياسة، ويجعلها أشبه بالموقف الفكري على الغلاف الأخير.

صحيفة المساء

موقع : كتّاب من أجل الحريّة : ٩-٤-٢٠١١

موقع : الفينيق : ٩-٤-٢٠١١

شفيق حبيب

في

ديوان" تعاويذ من خزف "

الشاعر / محمود مرعي

(شاعرٌ وصلَ حافةَ اليأسِ والإحباط، ترى إلى أين بعد هذه المجموعة؟)

قسمَ الشاعرُ ديوانه إلى ستة أبواب هي: ضَياعٌ في بحر الذات - الطحالب - سُقوطُ القِناع - دروبُ السفر - أغلقتُ أبوابي - معزوفةُ الخروج واللاعَوْدة.

مجموعُ القصائد في الدّيوان أربعٌ وعشرون قصيدة، تتوزعُ بين الشعر العموديّ وشعر التفعيلة غير الجاري، وهذا هو المؤلف الثاني عشر للشاعر شفيق حبيب؛ ويتميّز الشاعر بالتزامهِ عَروضياً، وخبرتهُ في هذا المجال ليست موضعَ شكّ، وينطلقُ أحيانًا إلى شعر التفعيلة أو (شبه العَروضي) وهو من المُجيدين، وصاحبُ قريحةٍ غزيرة.

من القراءةِ الأولى للمجموعة، يظهرُ أنّ نفسَ الشاعر ونبرتهُ لا تتغيّر من أول قصيدة حتى آخر قصيدة في الكتاب، وحتى قصائدُ الرثاء فيها نفسُ الصّوت رغم جوِّ الحزن والألم لفقد الأحبة.

من القصيدة الأولى يُدخلنا الشاعر معه في أجواءٍ من اليأس والسَّوداويّة التي تخيِّمُ عليه بسبب تلاحقِ النكبات على أمّتِهِ وشعبهِ وحتى السلام، يراهُ عكسَ ما يراهُ الآخرون.

أنـــــا لا أرى في الأرضِ سِـــــــلمًا

وإنمـــا سأصـــبحُ عبْـــدًا في بـــلاطِ المُحـــاربِ

يبيعـــونني الآمـــالَ، يغـــدو رواؤُهـــا

عـــويلاً ودمعًـــا في بـــلادِ الطحالـــبِ

(ص ٧٦)

إذن شاعرُنا مُصابٌ بالإحباطِ وخيبةِ الأمل، ولندخلْ معه في أجواء القصيدة الأولى:

ينسابُ في صوتـي الضبابْ...

وعلى شراعِ سفينتي،...

في بحرِ ذاتـي

ينطوي أملُ الإيابْ..

الليلُ يلفظني...

فيجرعُني الضَّياعُ والاكتئابْ.

(ص٧)

وحتى لا يتركنا في حيرة التساؤل، يُجيب:

هذا أنا...

كأسٌ من المُرِّ المُحنظلِ والعذابْ...

هذا أنا...

طيفٌ تطاردهُ النوائبُ

والسوائبُ... والكلابْ..

شِلوٌ قضتْ أشلاؤهُ

بينَ التخندُقِ

والتمزُّقِ في الشعابْ.

(ص٨)

ثمّ يحاولُ شاعرُنا تبرئةَ الذئاب(السّوائب والكلاب) فليس لها ذنب :

لا الذنبُ ذنبكِ يا ذئابْ

بل ذنبُ كلِّ الراقصينَ.. الهائمينَ

على متاهاتِ الخرابْ.

(ص٨)

الشاعرُ لا يدعُ القارئ يلتقطُ أنفاسه فيدخلهُ مباشرةً في حالة التصوُّر، وبعدما استعرض حالتهُ وصوَّرَ أوضاعه، يتساءل :

أين اخضرارُ ربيعِ أوردتي..

وأجنحتي التي طالت شماريخَ السّحابْ ؟

أين الهوى ؟.. والعِشقُ ؟..

والصّدرُ المُشَرَّعُ للتحدّي والخضابْ..

ومواسمُ النار التي تهدي السنابلَ

والبلابلَ والجداولَ والغلالَ

وعِطرَ أفراحِ الشباب ؟؟.

ومباشرةً بعد هذه الأسئلة المؤلمة يأتي بما هو أشدّ إيلامًا :

ما للغريبِ سوى نعيقِكَ يا غرابْ..

(ص١٠)

وأسئلتهُ ليست لمجرّد السؤال بل هي للوخز في الضمير.

ويمكن أن نقسِّم هذه القصيدة إلى ثلاث مراحل، الأولى: التعريف... الثانية: التساؤل أو الوخز للإيقاظ... والثالثة: التقرير...

وهذه هي ما سنوردهُ الآن وهي آخر القصيدة :

لا الشمسُ شمسُكَ

لا النجومُ نجومُ ليلى والرّبابْ

فاشربْ كؤوسَ القهرِ...

واستعذبْ ثمالاتِ الشرابْ

واصبرْ على مُرِّ التلظي

والتشظي... والعِقابْ

فالموتُ شهْدُ العاشقينَ القابضينَ

على القصيدةِ... والعقيدةِ... والكتابْ.

ولكَ أن تسألَ عن نجوم ليلى والرّباب وإلى أين يتجهُ حنينُ الشاعر من خلال الإشارة إلى ليلى والرّباب والسبب أنه لا يرى سوى خواءٍ وانشطار :

كلُّ ما فينا خواءٌ في خواءْ

نتداعى حاضراً يغرقُ في البؤسِ

وأوحالِ الرِّياءْ

....

ربُّنا المالُ

وفي أخلاقِنا عهرٌ وفسقٌ واهتراءْ

نحن كالديدان في الظلمةِ

تعشى عندما يبدو الضياءْ

نحن لا نبني حضاراتٍ
ولكن نتغنى بتسابيحِ الدُّعاءْ
نحنُ صحراءٌ..وجَدْبٌ
وظلامٌ.. وشقاءْ
فِكرُنا قحْطٌ كغيمِ الصَّيفِ
منثورًا..هباءًا في هباءْ
كلُّ ما فينا...
ركوعٌ.. وسجودٌ.. وانحِناءْ.

(ص٤٤-٤٥)

بهذا الوضوح الذي لا يحتاجُ ركضًا خلفَ المُفرَدات، ولعلّ من الواجب أن نشيرَ إلى صِدْقِ الشاعر، وصِدْقِ رؤيتهِ:

آهِ يا شعبَ الفراغ!
الضارب الأطنابَ فينا كالوَباءْ...
كلّ ما حولكَ من صنعِ عقولِ الغرَباءْ
ما الذي أعطيْتَ يا مشلولُ للدنيا
سوى ذُلكَ ممزوجًا بآهات البكاءْ
أنتَ مهزومٌ وللمهزومِ موتٌ وفناءْ.

(ص٤٦)

والآن سأستقصي "الأنا" لدى الشاعر فهي خيرُ من يصوّرُ هذا الإحباطَ، وهي ربما تكفي القارئ لفهم المجموعةِ كلها.

هذا أنا،

كأسٌ من المُرِّ المُحنظلِ والعذابْ

هذا أنا،

طيفٌ تطارِدُهُ النوائبُ.. والسّوائبُ الكلابْ

شِلوٌ قضت أشلاؤهُ..

بين التخندقِ والتمزّقِ والعذابْ.

(ص٨)

....

أنا فارسٌ،

ضاعت سنابكُ خيْلهِ

في حانةِ الزمن الوضيعِ

أنا شاعرٌ،

ضاعت قوافي شِعرهِ

في هزَّةِ الرِّدفِ الخليعِ

(ص ٢١)

....

أنا أيّها الحلاجُ زلزلةٌ
يُخبِّئها نجيعي.
(ص٢٢)

....

أنا ورقٌ خريفيٌّ
تطاير كاشتعال الريحِ في أحضانِ تشرينِ.
(ص٢٤)

....

أنا صداٌ..
أنا صدأٌ..
وصوتٌ غاضَ في لجٍّ
رُكامًا صارخَ النبرِ
رغيفُ الخبزِ من رملٍ
وماءُ النهرِ مأسونٌ
وأيامي مُحنطةٌ
تنوءُ على لظى الأوباءِ، والصحراءِ، والفقرِ..
(ص ٣١)

....

إني أضعتُ ملامحي، وتفرُّدي وجوارحي

وغدوتُ عنوانًا على صدر النوائبْ.

(ص ٣٨)

....

أنا شاعرٌ يقتاتُ من مُرِّ الهزيمة.

(ص ٣٩)

....

إني كفرتُ بذاتِ ذاتي (ص٤٠)/ إنني أكرهُ نفسي/ حاضري مرآةُ نفسي/ كلما رُمْتُ انعتاقًا / شدّني جهلي لرمسي (ص٥٢)/ أنا ما كنتُ يومًا كالبعيرِ/على رمالِ البيدِ في نجدٍ وفي نجرانْ. (ص٦٣)/ أنا الباقي/أنا الباقي/إذا انهارَ الجرادُ على دروبِ /البيفِ... والكوكا/وماك- دونالدزَ والأجبانْ / أظلُّ على الطوي شبعانْ (ص٦٦)/ أنا لا أرى في الأرض سِلمًا وإنما/سأصبحُ عبدًا في بلاطِ المُحاربِ (ص٧٦)/ ألا أيها البعد!!/ هذا أنا/ أنادي طلولَ الدِّيارِ / وفحمَ الدّمارِ/ وخيلَ القبائلِ في المنحَدَرْ (ص٩٤)/ ألا أيها السِّلمُ !!/ هذا أنا... جريحٌ يوَدِّعُ ما قد غبرْ. (ص٩٥)/ يا رملَ ضياعي / في الصحراءْ.../ إني منثورٌ كرمادٍ/ في قبضةِ عاصفةٍ هوجاءْ (ص١٠٤)/ سردابًا أضحت دائرتي/ وأنا شرنقةٌ ضامرةٌ/ تملأها ألغازٌ حَيْرى/ وينوحُ خواءْ.(ص١٠٥).

إنـــي ســـجينٌ كـــالهَزارِ ومـــأمَلي

هــذا الفضــاءُ الرّحْــبُ خلــفَ إســاري

(ص١١١)

إنـــي أضــعتُ العُمــرَ خلــفَ سَــرابها

وأضــعتُ دربـــي في شِــعابِ قِفـــاري

(ص١١٣)

هذه هي "الأنا" لدى شاعرنا شفيق حبيب وهي كما يراها القارئ مُحْبَطةً تتفجّرُ حسرةً وألمًا ولا ترى منفذًا واحدًا للأمل، حتى أنني لم أعثر في المجموعة كلها على قصيدة غزلٍ واحدة.

هناك ثلاثةُ أبياتٍ جاءت فيها "الأنا" لدى الشاعر بشكلٍ مُغاير ولكنها في نفس الوضع والواقع.

- البيتُ الأول:

إنـــي انتصــبتُ مــعَ القــوافي شــاهرًا

حـــرفي بوجـــهِ الظـــالمِ الجبّـــارِ

والواقع هو الظلم، وما دام الظلمُ موجودًا فإنّ هناك ظالمًا ومظلومًا، والشاعر نفسه في مواجهة الظالم.

- البيت الثاني:

أنـــا في سمائـــكَ يـــا جليلـــي! راصـــدٌ
أنـــا في فضـــائكَ صَـــيْحةُ الأحـــرارِ

وهذا البيت ينطلقُ من نفس الرؤية.

- البيتُ الثالث:

هـــذا أنـــا صـــوتٌ يشـــقُّ صـــدورَهم
ونعيـــبُهم كالنـــارِ في أعصـــابي

وهنا أيضًا الشاعر في مواجهةٍ معهم ولكنّ نعيبَهم كالنار في أعصابه.

لقد آثرتُ أن أذكرَ في المقالة جميعَ الحالاتِ التي وردت فيها "الأنا" لدى الشاعر لأثبتَ ما زعمتُ من أن الشاعرَ يقفُ على حافةِ اليأس والإحباط ممّا يرى حولهُ، ويصحّ بالتالي أن نطلقَ عليه "شاعر الوَجع" ؛ ولعلّ قولهُ الآتي يختصرُ حالته :

أشعَلتُ مجامرَ أقلامي...
وحمَلتُ قناديلي ظهْرًا...
أبحثُ عن مَوْتى أحلامي...

ذاتي هائمةٌ... شاحبةٌ...

تبحثُ عن ذاتي وحُطامي...

جريدة بانوراما النصراوية

١٩-٧-١٩٩٦

نظرات في ديوان " شآبيب"

الشاعر / محمود مرعي

▪ أصدر الشاعرُ الفلسطينيّ شفيق حبيب، ابن قرية دير حنا، مجموعته الشعرية الجديدة "شآبيب" وهي المجموعة رقم ١٦ خلال مسيرة شعرية وعطاء قاربت نصف قرن، أمدَّ اللهُ في عمر شاعرنا ليمتعنا بشعره وحروفه العذبة.

▪ لا بدَّ قبل الولوج والسفر في أحشاء المجموعة، من التوقف مع العنوان اللافت، فهو عنوان من مفردة واحدة، اختاره الشاعر بدقة متناهية، كما يظهر، فهذه المفردة رغم كونها لفظة واحدة، إلا أن معانيها متعددة، فمنها: دفعات وزخات المطر، ومنها في العدْو، والدموع، والحُسن كذلك.

في "اللسان": الشَّآبِيبُ مِن المَطر: الدُّفعاتُ. وشُؤْبُوبُ العَدْوِ مثله. ابن سيده: الشُّؤْبُوبُ : الدُّفْعةُ من المطر وغيره.

واستعيرت شآبيب في الدّموع، وأنشد الخليل في هذا الموضع:

إذا مـــا التَقيْنـــا ســـالَ مـــن عَبَراتنـــا

شـــآبيبُ يُنـــأى سَـــيْلها بالأصـــابعِ

الشُّؤْبوبُ: أوّلُ ما يَظْهَرُ من الحُسْنِ، وشِدَّةُ حَرِّ الشَّمْسِ، وطَريقتها، ج : "شآبيبُ". اه.

▪ حين نقرأ فهرس المجموعة، نجد أنها تتألف من أربعة أقسام، ولكل قسم عنوان، وهذا يشير إلى معنى من معاني الشآبيب، قياسًا على معناها ـ دفعات ـ فهي دفعات من نفث روحه ودموعه، والدموع تكون في الحزن والفرح، والشعر مخرجه الروح والنفس، وليس طرف اللسان؛ لكن أيضًا، حين نطل على عناوين القسم الأول "شآبيب" نجد أنه أيضًا يحمل وجهًا من المعنى، لكنها دفعات ودفقات من الحزن والقهر، وحتى في قصيدته الأولى في ذكرى مولده، لم يستطع الشاعر التخلص من حزنه وألمه وغضبه، ولذا نرى أن تفسيرَ العنوان أقربُ ما يكون إلى دفعات، سواء من حيث تقسيم المجموعة إلى عدة أقسام ـ على القياس، أو دفعات الحزن وما يختلج في روحه. ونرجح معنى دفعات من الدموع هنا، كتفسير للشآبيب، فقصائد المجموعة كلها، سواء ما حملت أنفاس القهر والغضب وما إلى ذلك، أو ما حملت أنفاس الفرح والوجدانيات، يمكنها أن تسيل دمع الشاعر، كونها خلجاته في السرور والغضب.

▪ القصيدة الأولى، على بحر الطويل، استعمل التصريع في البيت الأول والبيت قبل الأخير، وجريًا على منهج الشعر الأصيل، كونه حقًا الشعر الأصيل، وسندع التسميات التي يكثر استعمالها حديثًا، مثل كلاسيكي تقليدي، وما شئت من تسميات ونقول: إنه الشعر الأصيل الذي يستحق اسم الشعر.. في

القصيدة الأولى، ومن البيت الأول الذي يختزل فيه الشاعر تجربة عمرية ويصف حاله:

على شاطئ السّبعين حطتْ مراكبي
وناءتْ بأحمال الرزايا مناكبي
(ص٥)

لنقف قليلا مع قول زهير بن أبي سلمى:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يعش
ثمانين حوْلاً -لا أبا لكَ- يسأمِ

إن بين السبعين والثمانين عقدًا، وقياسًا مع ما مرَّ من العمر، يصبح هذا العقد قصيرًا، كغفوة؛ زهير في بيته سئم الحياة وتكاليفها، ومن يعش ثمانين حولاً يسأم، كما يقرر، لكن شاعرنا لا نرى عنده السأم، بل استعمل مفردة الشاطئ والمراكب، والمراكب تأتي للشاطئ ثم تعاود السفر والرحيل لترسو على شاطئ آخر، رغم أنه في ختام القصيدة أوضح أن المراكب ستمضي نحو المغارب، ونجد الألم لدى الشاعرين، رغم الفارق بينهما، فألم زهير يتبدّى من خلال السأم وتكاليف الحياة، وإن لم يذكره، ولدى شاعرنا من أحمال الرزايا، وهذه الأحمال لم يحملها طائعًا راغبًا، فلا أحد يرغب بأحمال الرزايا؛ فبدلاً من أن يكون شاطئ السبعين للاستقرار والراحة، نجده ينوءُ بحمل، أقل ما يقال عنه أنه بغيض إلى كل حر.

في البيت الثاني يفصح الشاعر عن حاله ورحلته، ليتضح لنا أن حمل الرزايا طارئ عليه وليس منه، ولا هو مسببه، لكنه حمله مكرهًا، وفي البيت الثاني يمكن أن نلمح تشبهًا بالمتنبي في قوله:

الخيـــل والليـــل والبيـــداء تعـــرفني
والســيفُ والــرمحُ والقرطــاسُ والقلــمُ

أما شاعرنا فيقول:

مخــرتُ عُبــابَ الليــل والويــل شــاعرًا
ولم يثننِــي قهــرٌ وأحقــادُ غاصــبِ

(ص٥)

(الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني) و (مخرتُ عُبابَ الليل والويل شاعرًا)، التشبه هنا في البأس والإقدام وعدم الخوف والرهبة.

- ويصرِّحُ شاعرنا عن هويته:

أحــبُّ فلســطيني وأهلــي وأرضَــها
إذا مسّــهم ضــرٌّ، تنــادت كتــائبي

(ص ٥)

وقوله: (تنادت كتائبي..) يكشف أنه مع الشعب (أهله) ومنه، وعنه لا يتخلى.

▪ في المقطع الثاني من القصيدة، نجد الشاعر الرقيق الذي تعذبه عيون الغواني، حتى وهو في السبعين، لكن تأخيره الغزل عن بداية القصيدة، ربما قصده عمدًا، فقد كان من عادة قسم من الشعراء قديمًا البدء بالغزل في مطالع القصيد، وقد قال المتنبي في هذا المعنى:

إذا كـــانَ مَـــدحٌ فالنســـيبُ المُقَـــدَّمُ
أكُـــلُّ فَصِـــيحٍ قـــالَ شِـــعرًا مُتَـــيَّمُ ؟؟

والنسيب هو الغزل والتشبيب بالنساء، وهو في الشعر حصرًا، لكن شاعرنا خالف هذا المنهج وأخر الغزل، وجرى على طريقة أبي نواس، الذي سخر من الشعراء السابقين الذين اعتادوا بدءَ قصائدهم بالوقوف على الديار والبكاء على الآثار:

عـــاجَ الشـــقيُّ علـــى رســـمٍ يســـائلهُ
وعُجـــتُ أســـألُ عـــن خمّـــارةِ البلـــدِ
لا يـــرحمُ اللهُ عـــينيْ مَـــن بكـــى حجـــرًا
ولا شـــفى وجـــدَ مـــن يصـــبو الى وتـــدِ
قـــالوا ذكـــرتَ ديـــارَ الحـــيِّ مـــن أســـدٍ
لا درَّ درُّك قـــل لـــي مـــن بنـــو أســـدِ؟

حتى من البيت الأول تظهر مخالفة أبي نواس وسخريته، بل يعتبر من يسأل عن الطلل شقيًّا، وشاعرُنا يشارك أبا نواس في مخالفة الدارج، إن جاز القول، فقد أخر الغزل عن المطلع كنوع من المخالفة، لكنه لا يظهر ابن سبعين في تغزله، فهو شاب:

تمــرُّ بـــيَ الأيـــامُ والعمــرُ نـــازفٌ
وما زلــتُ في الســبعين غــضَّ الرغائــبِ

وإنـــي جميـــلُ الـــنفس حـــرٌّ عفيفهـــا
ولكنهـــا تـــزدادُ شـــهْدًا تجـــاربي

أنـــا شـــاعرٌ والشـــعرُ في كـــل نبضـــةٍ
كبركـــانِ عِشْـــقٍ ثـــائرٍ في تـــرائبي

عيـــونُ الغـــواني كـــم يعـــذبنَ خـــافقي
ويصـــرعُني عَمْـــدًا صُـــدودُ الكواعـــبِ

عشـــقتُ حســـانَ الحـــيِّ عشـــقًا مراوغًـــا
وقاتلـــتُ حتـــى قيـــلَ : خـــيرُ محـــاربِ

نشـــيدُ ســـليمانٍ صـــدًى في محـــابري
وأمطـــارُ قـــيسٍ قطـــرةٌ في ســـحائبي

تغنيـــتُ بالعشـــقِ الإلهـــيِّ مُـــدنفا
وعـــدتُ قتـــيلاً في ســـيوفِ اللواعـــبِ

(ص ٧- ٨)

▪ في هذه القطعة، على جمالياتها، نجدُ ما يقال، فهو ما زال في السبعين غضُّ الرغائب، ثم جميلُ النفس حرٌّ عفيفها، لكن تجاربه تزداد شهدًا، ثم يشكو من عيون الغواني، وصدودهن الذي يصرعه، وقد عبّر عن الكل بالجزء بطريقة جميلة في قوله (ترائبي) كناية عن الصدر، والترائب جزءٌ من الصدر وليست كله، ثم أمطار قيس قطرة في سحائبه، ثم آخر بيت، والذي نرى فيه نوعًا من عدم التوافق، فالعشق الإلهي أبعد ما يكون عن اللواعب وسيوفهن، ولا نرى جامعًا يجمع بينهما، إلا أن يكون تغنيه بالعشق الإلهيّ لسحرهنّ.

بعد هذا تعاوده أوجاعُه وآلامُه، وهي ليست أوجاعَ وآلامَ جسد، إنما أوجاع روح لحال أمته وما دهاها وأصابها :

زرعتُ على التاريخ راياتِ نصرها
ونكستها حين استبيحَت ملاعبي

وإني عدوّ العنفِ والقهر والخنى
وأعلو بنفسي عن صراعِ المذاهبِ

ويبقى أخي الإنسانُ في الكون سيدًا
ولا أرتضي إذلالَهُ في الغياهبِ

رفعتُ لواءَ السِّلم فارتاع طامعٌ
وأصبحتُ صيدًا في شفار المخالبِ

(ص ٨- ٩)

▪ تعبير عن موقف ومبدأ في الحياة (عدو العنف/ يسمو عن صراع المذاهب/ الأخوّة في الإنسانية/ يسعى للسلم)، وفي البيت الثاني، كلمة (وأعلو) لا نجد شاعرنا وُفق فيها، ولو قال: (وأربا / وأسمو) لأصاب المعنى المقصود بدقة أكثر، ويجوز شعرًا تخفيف همزة (وأربأ)، وشاعرنا يعلم ذلك.

ويختم الشاعر القصيدة ببيتين:

علـــى شـــاطئ الســـبعين ترســـو مـــراكبي
ســـتقلعُ عنـــد الفجـــرِ صـــوبَ المغـــاربِ

ومـــاذا ســـيبقى غـــيرُ حـــرفٍ كتبتـــه
علـــى وجـــهِ مـــاءٍ في بحـــار النوائـــبِ

(ص٩)

ونحن لا نسلم بقوله (ستقلع عند الفجر صوب المغارب)، بل ستقلع في رحلة متجددة لترسو على شاطئ الثمانين والتسعين إلى ما شاء الله، ونتمنى لشاعرنا العمر المديد، وأن يكون الحرف منقوشًا في الصدور وعلى صفحات الخلود، وليس على ماءِ النوائب، والدهُر دولابٌ يُعلي قومًا وينكس آخرين، لكنه يدور، ولن يبقى المعتلي صهوته فوقها، وسيحلُّ محله سواه.

▪ هذه القصيدة تمثل برأينا عصارةَ حياةٍ وخلاصةَ تجربةٍ واختزالَ معاناةٍ ممتدةٍ في الزمن عمرًا، صوَّرَها الشاعرُ فأجاد

واختزل فجاءت من الروعة والإبداع بمكان، وبحرُ الطويل يناسب موضوعَها جدًّا، من حيثُ مضمونُ القصيدة، ففيه حسرةٌ وتفجعٌ وآه، ويصلح لها الطويل، ويظهر جودته لحن الشروقي الزجلي، فبينهما قرب، رغم أن الشروقي الزجلي على البسيط، ولا عجب أنهما يخرجان من نفس الدائرة.

▪ القصيدة الثانية في المجموعة (يا غبارَ الزمن !!) وهي " إلى روح الشاعر محمود درويش.. إنسانًا وزمانًا ومكانًا"، وقد جمع فيها وزنين، المتدارك ومجزوء الخفيف، وهذا الأسلوب سلكه محمود درويش بكثرة أيضًا، بل استعمله كثيرٌ من الشعراء، والمزج بين الأوزان أسلوبٌ قديم وليس جديدًا، وما زلنا نسمع النشيد الوطني المصري :

بـــلادي بـــلادي بـــلادي   **لــــكِ حبّـــــي وفـــؤادي**

فالصدر من مجزوء المتقارب والعجز من مجزوء الرّمَل.

يقول الشاعر :

" يا غبارَ الزمنْ / عاصفًا / هادرًا في الوهنْ / يا غبارَ الزمنْ / يا مرايا وجودِنا ! / يا خوابي المِحَنْ !! /كلما لاح بارقٌ / أو غزا الليلَ طارقٌ /ضيَّعتني خيوله / في صحارى الذي مضى / في حنايا الفِتنْ". (ص ١٠)

امتزج المتدارك ومجزوء الخفيف أعلاه فجاء المزج خفيفًا على الشدو ولا يبدو غير مستساغ، تمامًا كنشيد (بلادي) لكن الإيقاع واختلاف الوزنين سيخفى على غير ذي العلم بالوزن.

ورغم كون القصيدة تفعيلية إلا أن سطوة القافية ظلت مسيطرة على الشاعر ولم يستطع منها فكاكًا، فتراه يعود إليها بعد كل سطرين أو أكثر، وحتى عندما يأتي السطر على مجزوء الخفيف فإنه أحيانًا يستعمل نفس الرَّويّ :

" أنكرتني منابري / وتلاشت شعائري/ في ثنايا الدِّمنْ / أين صوت الذي/ ذاب في عشقه الوطنْ / كلّ ما حولنا غدا / زائفًا / راعفًا / نازفًا / وانهياراتِ قادمٍ/ من مِهادي إلى الجَننْ ". (ص ١١)

قوله (في ثنايا الدِّمَنْ) مُتدارك، وقوله (ذاب في عشقه الوطنْ) (من مِهادي إلى الجننْ) مجزوء الخفيف.

▪ القصيدة الثالثة (الغولُ والعنقاء)، جاءت على الكامل الأحَذّ، ولكن عنوانها وهو جزء من مثل، يعبر عن المستحيلات، وقد قالت العرب: المستحيلات ثلاثة: (الغول والعنقاءُ والخلُّ الوفيّ) وقد حذف الشاعر الأخيرة وأبقى اثنتين، وقد ورد العنوان في بيت من القصيدة، سنأتي على ذكره :

تعِـــبٌ أنـــا بعـــروبتي تعِـــبُ   تغتـــالني الأحـــزانُ والنـــوَبُ

يـا أمـةً هزلـتْ ومـا برحـتْ   تجـترُّ مجـدًا كـاد ينعطـبُ
مـا المجـدُ إن لم يسقِهِ خلـفٌ   بحضـارةٍ تـبني وتكتسِـبُ
(ص ١٦)

وتطفح القصيدة بالمرارة والألم لحال الأمة، ويصل حدّ الهجاء لشدة ألمه ولما يراه، كقوله :

فاسـجُدْ لأمريكـا وزمرتِهـا   مَـن أنـت؟ لا حسـبٌ ولا نسـبُ
(ص ١٧)

بعد هذا البيت وقسوته والألم الذي يكتنفه، لدرجه السؤال : من أنت؟ وإنكار الحسب والنسب، يصرخ بعده مباشرة في البيت الذي يليه:

حـدِّقْ بشمسِـك وانتـزع قـدرًا   يسـمو.. فـدأبُ الخـائرِ الهـربُ
(ص ١٧)

ويمضي حتى يختم القصيدة بقوله :

الخـزيُ ينخـركم ويقـتلني   أنـتم طعـامُ السّـوس يـا خشـبُ
أقلامُكـم خِـرَقٌ مُلوَّثـةٌ   أحلامُهـا اليـاقوتُ والـذهَبُ
تتمرّغـون بقبـو حـاكمِكم   أنفاسُـهُ الطـاعونُ والكَلَـبُ
هـذي جبـاهُ المـارقينَ هـوتْ   نقشـوا عليهـا : إننـا الـذنَبُ
(ص ١٩)

في المعتاد والمعروف أن السّوس ينخر، لكن هنا بلغ الحال أن الخزي هو الذي ينخر، واستعاض عن نخر السوس في عجز البيت بقوله (أنتم طعام السوس)، وما داموا طعام السوس، فهو أيضًا ينخرهم، لأنهم خشب.

▪ ومن شدة وطأة الحال ومرارته على الشاعر، ترك خطاب البشر واتجه بالخطاب إلى سيد الأكوان:

يا سيدَ الأكوانِ ! صرختنا وصَلاتنا يا سيِّدي! عَتَبُ
إنّا نلومُك كيف لا وهبتْ كفاك نصرًا؟ إننا السببُ
هذا الرّمادُ أنا، فلا عجبٌ أني أنا النيرانُ والحطبُ
الغولُ والعنقاءُ وحدتنا لا الدين يجمعنا ولا الأدبُ
(ص ٢٠)

قبل أن نغادر القصيدة إلى غيرها نتوقف مع قوله :

الدينُ لله الذي هُدمتْ أركانُ دورٍ وانتشتْ رِيَبُ
(ص ١٨)

▪ قصيدة (زاد الغريب)، وهي كغيرها لا تخرج عن إطار الحزن والألم، وما زاد الغريب سوى لحمنا الذي يأكله ويدخره الغزاة الذين احتلوا العراق مؤونة لهم، وانظر إلى وصفه الحال يوم احتلوا العراق:

" قالوا : / أتينا بالخلاصِ / وبالرّصاصِ/ يدق أعناقا رصينهْ / ويدكُّ أسوارًا حصينهْ / جاء الغزاةُ / ورأسُ حربتهم طوابيرٌ خؤونهْ/ لحمي غدا زادَ الغريب / وفي خزائنه مؤونهْ". (ص ٢٤)

ولا بد من وقفة قبل المضي، فقد ورد في القصيدة قوله :

" والجذعُ ضيّعَ في ليالي القهرِ/ والجورِ غصونهْ " (ص ٢٣)

في قوله (والجور غصونه / جور غصونه= مُفْتعلاتنْ) اعترى (متفاعلن) الإضمار والطي فسكن الثاني وسقط الرابع وهو الألف، وأغلب العروضيين حديثا، والشعراء لا يستسيغون طيّ متفاعلن)، ولا ندري وفق أي قاعدة لا يستسيغونها، والقراءة الإيقاعية الإنشادية لا تظهر أي نشاز في الطيّ هنا، وذلك لأن الراء متحركة، ولا يمدّ في الحشو إلا هاء ضمير الغائب بعد متحرك، والطيّ هنا سائغ وليس فيه أي نشاز.

▪ قصيدة (قصائدي منزوعة السلاح) وهي قصيدة تفعيلية على السريع، وسنتوقف معها عروضيًّا لبيان وزنها.
القصيدة تشيع أنفاس مظفر النواب في جانب من مفرداتها، وكذلك معانيها، وحتى سخريتها اللاذعة، كقوله:

" وأمّتي مشغولةٌ بالجنس/ واللواط والنكاحْ

فالحبّة الزرقاءُ بيّضتْ وجوههم

وغذّتِ الأعضاءَ والأشلاءَ / في مخادعِ الملاحْ ". (ص ٣١)

ندخل إلى باب عروض القصيدة، وفيها مواضع لم تسلم من خلل في الوزن، كقوله :

"وشوهتْ ملامحي الصُّروفُ

والظروفُ..

في صحارى الجدْبِ والنواحْ ". (ص ٣٢)

القراءة الصحيحة هي القراءة المتصلة، لكن سيختل الوزن في السطر الأخير، لأن (في) تكملة للتفعيلة السابقة، وسنخرج إلى تفعيلة أخرى مع بداية (صحارى)، وإشباع حركة الفاء من(والظروفُ) لا يبدو مستساغًا.

قوله:

"وفي الخفاءِ

أنتمُ سادةُ النفاقِ والجناحْ ". (ص ٣٤)

كلمة (أنتمْ) يجب تحريك آخرها، لتتم التفعيلة التي تبدأ بهمزة الخفاءِ)، لكن بعدها يختل الوزن.

وردت (فَعو أو فعَلْ) في أكثر من سطر، كقوله :

" فالحبَّةُ الزرقاء بَيَّضتْ وجوهَهمْ ". (ص ٣١)

مستفعلن مستفعلن مُتَفعلن فَعَلْ

" من خبز جدتي ". (ص ٣٥)

مستفعلن فعَلْ.

وفي كثير من الحوارات حكمنا أن (فعو) لا يمكن أن تكون من تخريجات مستفعلن، لأنها ليست منها، فـ(مستفعلن) بعد دخول علة القطع تصبح (مُسْتَفْعِلْ = مفعولنْ) وهنا أصبح آخرها سببًا خفيفًا، وتلزمنا علة أخرى هي علة الحذف، فالقطع يدخل على الأوتاد والحذف على الأسباب، وبإدخال الحذف (مفعو= مُسْتف) والخبن سقوط الثاني، السين، تبقى (مُفْ = فَعَلْ)، لكن هنا فات من يقول بهذا أمر هام، وهو أن التفعيلة تعاقبت عليها علتان متتاليتان، فبعد دخول علة القطع دخلت علة الحذف؛ أما مفعولاتُ في السريع، فالتخريج عليها هو الصحيح والمقبول ولا يشذ في شيء ؛ فقد دخل عليها الخبن فصارت (معولاتُ) ثم اعترتها علة الصلم فسقط الوتد المفروق فبقيت (معو)، وتقرأ(فَعَلْ أو فعو). وعليه، حكمنا على القصيدة في حال اشتملت على (فعلْ) أنها من السريع وليست من الرجز.

▪ قصيدة (ضاع مني)، وهي على المديد التام، وهي كغيرها في أحزانها ومرارتها والغصة التي لا تفارق الشاعر، بدأها بقوله:

ضاع مني ذات صَحْوٍ ضياعي   وانزوى خلف الظلال يراعي

(ص ٥٦)

ويطابق اللحن الشعبي الذي تغنى عليه في الأعراس الشعبية أغنية (شيِّعوا لولاد عمّو يجولو) وهو لحنٌ عذبٌ سماعه.

وقد خالط الخفيف أحد أبياتها، وذلك في قوله :

من يعيدُ الإنسانَ سيِّدَ أرض   وقبورُ الأهلِ ملءَ البقاعِ

(ص ٥٨)

صدر البيت من الخفيف وعجزه من المديد، وقد وقع لشعراء سابقين مثل هذا، ولعل السبب في ذلك، أن اللحن يناسب الوزنين، لذا قد يلتبس الأمر على الشاعر، وهذا البيت رغم أنه من بحرين مختلفين، إذا أديناه غناءً على لحن (شيِّعوا لولاد عمو يجولو)، فلن نشعر بخلل في الغناء رغم زيادة سبب في الخفيف.

▪ قصيدة (يا هداسا !!) وهي إهداء لطبيب جراح في مستشفى هداسا، وجاءت تفعيلية (فاعلاتن) بجوازاتها، ونجد فيها شيئًا من الشبه في الحالة مع محمود درويش في (جدارية)، يقول شاعرنا :

"حقنة كالسِّحرِ/ تغذوني شرودًا.. ونعاسًا / هل أنا في الأرضِ؟ / أمْ فوقَ الطباقِ السبعِ؟ / لا أدري/ضياعًا / وصراعًا / ووجومًا.. واحتراسًا / إنني أبكي على المُلقى هزيلاً / بين أسدافٍ تؤاسيني / وأحلامٍ تواسيني / وآلامٍ بكتني / تطحنُ الأخضرَ واليابسَ / في عمري / وتذروه انهيارًا / وانحسارًا.. وانتكاسًا"... (ص ٧٤-٧٥)

ولدى الشاعر محمود درويش، نجد نفس الحالة تقريبًا، بفارق أن بعض الجمل عند محمود دوريش تسبق ما عند شفيق حبيب، يقول درويش:

" أرى جسدي هناك، ولا أحس

بعنفوان الموت، أو بحياتيَ الأولى.

كأني لست مني. من أنا ؟ أأنا

الفقيد أم الوليد؟ " ... جدارية / (ص ٢٨)

" تقول ممرضتي: أنت أحسن حالاً.

وتحقنني بالمخدر: كن هادئا

وجديرًا بما سوف تحلم

عما قليل " ... جدارية / (ص ٢٩)

الشبه في المشهدين واضح، وهناك سواه في القصيدة لدى شفيق حبيب، كأنه مرَّ بنفس حالة درويش من قبل وهو ملقى على السرير في المستشفى بين يدي الطبيب.

▪ قصيدة (كن جميلاً) على بحر الخفيف، وهي مهداة إلى شفيق حبيب الحفيد، فشفيق الجد يهدي شفيق الحفيد، وفيها يظهر شاعرنا حكيمًا ومعلمًا ومربيًا وواعظًا للصغير يعلمه الخير والبعد عما يشين، وجاءت بعض الأبيات حِكمًا بليغة، تصلح أن تدرَّس في المناهج، وأرى أن هذه القصيدة تستحق أن تدخل مناهج التعليم، لما فيها من جماليات وبلاغة وحكمة.

يبدأ الشاعر القصيدة بالعرفان للباري عز وجل على النعمة (الحفيد) وقدومه إلى الدنيا، ويصور أثر ضحكة الطفل في نفس الجد :

ضـــحكة تمـــلأُ الحنايـــا حبـــورًا
بســـمة منـــكَ ذابَ فيهـــا السّـــناءُ
بســـمة تبعـــثُ الصـــحارى اخضـــرارًا
إن همـــتْ منـــك دمعـــة.. فالـــدّعاءُ
يـــا حفيـــدي ! وكـــل طفـــلٍ حفيـــدي
أنـــتمُ الخـــيرُ غـــامِرًا والصّـــفاءُ

إنـــك الغيـــث في صـــحارى وجـــودي

أنـــت شـــهدُ الحيـــاة.. أنـــت الرجـــاءُ

أنـــت لحـــنُ الربيـــع ينســـابُ بِشْـــرًا

فالحساســـــــينُ سُـــــــجّدٌ والغناءُ

لثغـــةٌ منكَ يـــا خمـــورَ الـــدّوالي

يـــا تـــرانيمَ صـــوتِه يـــا دواءُ

(ص ٨٠-٨١)

بعد هذا التصوير والوصف للأثر النفسي عند الشاعر وفرحه بحفيده، الذي لثغته تعادل الخمر، ينتقل إلى لون آخر وهو التعليم والتربية الحميدة لهذا الحفيد أو الوصايا وما يجب أن يتخلق به الحفيد في حياته :

جـــدّكَ الصَّـــلبُ لم يَهُـــن لِسَـــفيهٍ

مـــن يهـــنْ ذلَّ... فـــالهوانُ انحنـــاءُ

جـــدّكَ الســـيفُ لم يـــداهنْ نفاقـــا

زمـــرةَ الفحـــش إن طغـــى الأغبيـــاءُ

صـــادقِ الخيِّـــرين واطـــرحْ لئامًـــا

يســـتوي الصِّـــدقُ عنـــدهم والرِّيـــاءُ

لا تكـــن للنضـــار عبـــدًا ولكـــن

كـــنْ عفيفـــا كمـــا الإلـــهُ يَشـــاءُ

واطلـــبِ العلـــمَ فالجهـــالاتُ بـــؤسٌ
والحضـــــاراتُ نورُنـــــا واللـــــواءُ
كـــن وفيّـــا ولا تهـــادنْ حقـــيرًا
عـــزةُ الـــنفسِ كنزنـــا والوفـــاءُ
يـــا امتـــدادي علـــى صـــدورِ زمـــانٍ
غـــادرٍ ســـادَ في حِمـــاهُ الشـــقاءُ
كـــن جمـــيلاً كخـــالق النـــاس وانبـــذْ
ظلـــمَ قـــومٍ إذا بغـــى الأدعِيـــاءُ

(ص٨٣-٨٤)

هذا المسلك التربوي الجميل والأصيل، الذي سلكه الجد مع الحفيد مقتفيًا آثار الأجداد في التربية وزرع الخير والعزة والكرامة في نفوس الناشئة، جدير أن يكون ضمن منهاج الدراسة، فما أحوجنا للأصالة مقابل ما نراه اليوم.

▪ قصيدة (سماهر وعلاء) وهي بمناسبة زواج كريمته سماهر حبيب وعلاء غنطوس، وقد جاءت على المتدارك التام، وفيها لزوم ما لا يلزم، حيث التزم ترفيل العروض والضرب على طول القصيدة، كذلك جاء فيها ب (فاعِلُ) إلى جانب (فاعلنْ)، وهناك من لا يتقبل هذا، ويعتبر المتدارك وزنًا والخبب وزنًا آخر، وكثيرًا ما قلنا إن الخبب ليس وزنًا، بل هو إيقاع نجده في

المتدارك وغيره، حتى لو اختلطت أشكال فاعلن، وفاعلُ أحد أوجه فاعلن وليست شاذة، ويناسب المتدارك لحن الأغنية الشعبية التي انتشرت في سوريا وفلسطين (شفتك يا جفره عالبيدر طالعهْ)، ولاحظ أن مطلع الأغنية متدارك خببي، جاءت تفاعيلها (فعْلنْ) ما عدا الأخيرة، جاءت فاعِلنْ)، وعندما قرأت القصيدة غناء لم أجد أن (فاعلُ) أحدثت نشازًا، بل جاءت سائغة منسجمة مع اللحن.

القصيدة كما قلنا بمناسبة زفاف كريمة الشاعر، فهي تعبر عن نفسه وفرحته بالحدث وصاحبته وزوجها، لذا جاءت رقيقة تفيض حبًّا وترحابًا وجاشت فيها عاطفة الشاعر فأظهر مكنونهُ بجماليةٍ لا تخفى...

أما البيت الذي اشتمل على (فاعلُ) فهو آخر بيت في القصيدة:

ليلـــة العمـــر زانـــت جميـــعَ الليـــالي

فالعروســـــــان سمــــــــاهرٌ وعـــــــــلاءُ

(ص ٨٦)

ظهرت (فاعلُ) في عجز البيت، ولم تخلَّ بموسيقى القصيدة، وذكرنا اللحن المناسب لها.

▪ قصيدة (يا أجمل الناس) وهي رثائية لـ(سالي ذياب وأليكس بوبان) اللذين توفيا في حادث طرق، وفيها خرج الشاعر عن البسيط العروضي، إلى وزن مستنبط منه، ربما بسبب الحالة النفسية للشاعر عند سماعه الحدث، أو محاولة للخروج على المألوف، والخروج هنا، استعمال (متفاعلن) مكان (مستفعلن)، وقد ذكرنا الوزن في كتابنا (العروض الزاخر واحتمالات الدوائر)، ونرى شيوعًا للوزن على مستوى العالم العربي، بل إن للمطرب العراقي أغنيةً على هذا الوزن، وقد جرى حوار بيني وبين زميل عروضي من العالم العربي، يرفض حلول (متفاعلن) مكان (مستفعلن) في البسيط، ونحن نرى الوضع أشبه بالرجز والكامل، أو الرمل والمتوفر، وسنذكر شيئًا منه للفائدة ؛ استمعت يومها إلى أغنية كاظم، وكانت جميلة جدًّا، ومنها هذا البيت :

صـــفعت وجهـــي أهـــذا يازمـــان أنـــا
أنـــا الـــذي الحـــب أخرســـني وأعمـــاني

وردت متفاعلن في عجز البيت (رسني وأع/متفاعلن)، وكان أداء الفنان العراقي كاظم الساهر، رائعًا جدًّا؛ اضف إلى ذلك، اللحن الشعبي عندنا في فلسطين وديار الشام (سَبّل عيونو ومدّ ايدو يحَنونو) وهي أغنية تغنى في ساعة حناء العريس، ويمكن لمن شاء التجريب وغناء البسيط والمنبسط على لحنها، وهنا

نشير إلى أن اللحن الشعبي سينقطع في حال جاءت (مستفعلن) المتوسطة (متفاعلن)، لكن وجدناها في أغنية كاظم رائعة الأداء، ويمكن ابتكار الألحان بسهولة.

بدأ الشاعر قصيدته بقوله:

أرثيكمـــا.. ورثـــائي الـــدمعُ ينهمـــرُ
والحـــزنُ في جَنبـــات الصّـــدر يســـتعرُ
ألَـــمٌ يمزِّقنـــا مـــن هَـــوْل فاجعـــةٍ
أدمـــتْ قلوبًـــا مـــدى الأيـــام تنشـــطرُ

(ص ٩١)

مطلع البيت الثاني (ألمٌ يُمزِّ /متفاعلن)، وقد استعملها الشاعر أكثر من مرة :

فـــإلى جنـــان إلـــهٍ، حيـــث عشـــكما
ففـــي الســـماوات لا مـــوتٌ ولا قـــدرُ

(ص ٩٣)

أمَلتمـــاهُ مُقامًـــا في جوانحنـــا؟؟
وكنتمـــا النـــورَ والآمـــالَ تزدهـــرُ

(ص ٩٢)

نذكر الآن ما أشرنا إليه من الرمل والمتوفر، وأن اللحن هو الحكم الفصل في جواز أو عدم جواز أي وزن، والمتوفر موجود

في أصل الدوائر وليس طارئًا مستحدثًا، وتركيبه (فاعلاتكَ فاعلاتكَ فاعلاتكَ)، والأخيرة تسكن كافها لأن العربية لا تقف على متحرك.

لنأخذ لحنًا شعبيًا عندنا ونطبق الرمل والمتوفر عليه، فمثلاً في الأعراس نغني خلال صف السّحْجة:

(خيلنا تدوس المنايا خيلنا) ونغني أيضًا (يا صديقي لا تْبيع مْودتي) (يا هلا حيِّ الضيوفِ/ بالرماحِ وْبالسيوفِ) الوزن في جميعها الرمل.

لنأخذ هذا المثال: (خيلِنا تدوس المنايا خيلِنا) (يا صديقي لا تِبيع مْودتي) : (يا صديقي لا تُنَكِّسْ رايتي)، هنا الرمل واللحن سائغ، ولنأخذ أيضًا (يا صديقِيَ لنْ تُنَكِّسَ رايتي)، هنا المتوفر، وهو واضح واللحن سائغ أيضًا.

لنأخذ الآن مجزوء الرمل (يا هلا حيِّ الضيوفِ/ بالرماحِ وْبالسيوفِ) ونأخذ كمثال (طلع البدر علينا) فاللحن سائغ؛ لنغير في تشكيل البيت الشعبي (يا هلا حيِّ الضيوفِ/ بالرماحِ وَبالسيوفِ)، لاحظ (بالرماحِ وَبالسيوف) مجزوء المتوفر ولحنها سائغ مستعذب.

نلفت الانتباه إلى أمر هام، وهو أن الألحان الشعبية هي ألحان العروض الخليلي، حملها الزجل معه منذ الأندلس، وبقيت على بساطتها وحلاوتها، لذا يستعذبها الناس، وبقي الزجّال حاضرًا

ينشد بين الناس، فمال الناس إلى ألحانه، التي هي ألحان العروض ؛ أما الشعر الفصيح، فخلال مسيرته تخلى عن أمرين هامين، هما حضور الشاعر والإنشاد، ولهذا نرى الزجل بسبب الإنشاد والغناء مستحبًّا لدى الجمهور ويجتمع عليه، بينما الشعر الفصيح أصبح يُقرأ قراءة، وقلَّ مستمعوه؛ وقد قال الخليل :

تغنَّ بالشعر إمّا كنتَ قائلهُ   إن الغناءَ لهذا الشعر مضمارُ

▪ بقيت أمور قليلة نشير إليها، وهي ربما تندرج ضمن الأخطاء المطبعية، وصدرت عمن طبع المادة، لكن لا يعفى شاعرنا وهو العارف باللغة - من هذه المسؤولية، ففي المجموعة تثبت همزة القطع في مواضع لا يجب أن تثبت، مثل (ألغول والعنقاء) وهذا عنوان القصيدة، وقد أثبتت الهمزة في بداية كلمة (الغول)، وتكرر إثباتها في ثنايا القصيدة (أَلغول والعنقاء وحْدَتنا)، كذلك، وفي نفس القصيدة أثبتت الهمزة في فعل الأمر (أُقتل أخاك)، وفعل الأمر لا تثبت فيه الهمزة، بل يستعاض عنها بالضمة (أُقتلْ)، أو في مطلع قصيدة (زاد الغريب) حيث يقول (أُنشرْ قصائدك الحزينهْ)، أثبتت همزة فعل الأمر.

▪ ختامًا نقول: شاعرنا متألق ومبدع، ويغوص في خضم الإبداع بلا تهيُّب، وقد كان في مجموعته مُحَلقا في فضاءات من الشاعرية العذبة، وملتزمًا بالطريق الأصيل، رغم خروجه، لكنه خروج زاد من العذوبة ولم يهدم، بل أضاف لبنة في جدار الأصالة، ولا نملك إلا أن نحيي شاعرنا، شفيق حبيب، ونتمنى أن يطولَ نزفُ يراعِهِ دهورًا.

موقع : أمجاد العرب

١٦-٤-٢٠١١

ديوان " لـمـاذا " للشاعر شفيق حبيب

(الصادر عام ١٩٩٨)

دراسةٌ نقدية

الشاعر / حاتم جوعيه

▪ مقدمة

الشاعر شفيق حبيب من الشعراء الوطنيين المبدعين الأوائل في البلاد، يكتبُ الشعرَ الكلاسيكيّ (العموديّ) والتفعيلة، أصدر حتى (١٩٩٨) اثني عشر ديوانًا شعريًا، وشارك في الكثير من الندوات والمهرجانات الأدبية محليًا وخارج البلاد، مُورِسَ ضدَّه سابقًا التعتيم الإعلامي على نشاطه الأدبي والثقافي والشعري، وهوجم أيضًا بنقد لاذع وعنيف من قِبَل أحد الذين يكتبون النقد دون مبرر إلا لهدف في نفس يعقوب.

والجدير بالذكر أن أحد دواوينه عن الانتفاضة وهو "العودة إلى الآتي" صادرته الرقابة العسكرية ومنعت توزيعه وأحرقته، وسُجن الشاعر بعد ذلك وفُرضت عليه الإقامة الجبرية في منزله، وقد تضامن معه معظم الكتاب والأدباء والمثقفين المحليين، عربًا ويهودًا، وجميع أبناء شعبنا الفلسطيني، وكان

لقضيّة سجنه صدى كبيرٌ محليًّا وخارجيًا، وبعد هذه الحادثة بدأ اسمه يتألق بصورة مذهلة وحقَّق شهرة كبيرة وانتشارًا واسعًا محليًا وعربيًا.. حتى أن بعض وسائل الإعلام التي كانت تعتم عليه بالذات، بدأت تنشر نتاجه الشعري بغزارة وترحِّب به وتغطي أخباره الأدبية بشكل مكثف، وأصبح من أكثر الشعراء المحليين شهرة، ونجد له دائمًا موادّ وقصائد منشورة في جميع الصحف والمجلات، وحتى الأُطر المشبوهة والمأجورة والمشكوك بنقائها الوطني نشرت قصائدَه مُرغمةً وما زالت، بشكل مكثف، لأننا نحن الشعراء الوطنيون لدينا الكثير من المنابر النظيفة ونعرف كيف نصل إلى قلوب وضمائر أبناء شعبنا الأحرار ولأمتنا العربية في الخارج.

ولنرجع إلى الشاعر شفيق حبيب من قرية دير حنا الجليلية، فشعرُه من الناحية الشكلية، كما ذكرت، خاضعٌ لقيود الوزن الكلاسيكي والتفعيلة، وهو متمكن من اللغة العربية بشكل لافت رائع، ومتمكن من أدواته الشعرية والفنية، وبكونه له سنوات طويلة على ميادين الأدب، أصبحت لديه تجربة خصبة ومتميزة ورائدة في هذا المضمار، ولكن شعره يتفاوت من حيث المستوى، فلا يستطيع الدارس أن يحكم عليه من خلال قصيدة أو اثنتين... بل على كل من يريد الكتابة عنه أو ليفهم ويدرس شعره بعمق، عليه أن يقرأ الكثير من دواوينه الشعرية،

ولشفيق حبيب قصائد مميزة وخاصة التفعيلية منها فهي على مستوى راقٍ وعميقة حافلة بالمعاني والرموز والمرادفات البلاغية الجديدة وبالصور الشعرية الحديثة.. فهو كثيرا ما يأتينا بالجديد المبتكر ولا يكتفي بالقوالب الجاهزة، القديمة بيد أننا نجد لديه كثيرا من المعاني المألوفة والمعهودة في الكثير من قصائده خاصة الكلاسيكية ونجد بعض العبارات والمعاني والصور مكررة ومعادة، ولكن هذا الأمر لا يعيب الشاعر لأن هناك شعراءَ كبارًا وروّادًا من العصر الجاهلي حتى اليوم يكررون بعض المعاني والعبارات حرفيًا في عدة قصائد لهم، أما شاعرنا شفيق حبيب فقد تميَّز وانفرد في بعض الجوانب والمواضيع عن معظم الشعراء المحليين، وخاصة في وصف الطبيعة وسحرها وجمالها، فهو من الشعراء المحليين القلائل الذين تعمّقوا وتوسعوا في وصف الطبيعة وجمالها وبهائها فتغنى بالسهول والجبال والسواقي والأزهار والطيور والشفق الوردي من منطلق وطني، عكس الكثير من الشعراء المحليين الوطنيين ممن جاء شعرُهم الوطنيّ والسياسيّ مجرد شعارات وهتافات رنانة مفتقرا إلى الصور الشعرية والإيحاءات الجمالية، فشعر شفيق حبيب أو الكثير منه حافل بالصور الشعرية المدهشة وتكريس وتوظيف عناصره ورموزه للمعاني والأهداف التي يريدها، حافلٌ بالمعاني العميقة وبالرؤى الفلسفية والمستقبلية الشاملة.

ولكن أحد "العيوب" في شعره أن قليله تقريري ومنبري مباشر وخطابي وقد جاء لشحن الجماهير، مثل العديد من الشعراء السياسيين والقوميين، كما ونجد عنده نزعة التشاؤم واليأس والاستسلام، ففي الكثير من قصائده الوجدانية والسياسية يتحدث عن الوضع الفلسطيني والعربي المزري والصعب، وأن الحكام العرب والعروبة جمعاء ليس بهم أمل أو رجاء إطلاقًا، فهو بشكل مباشر ومقصود يدعو الجماهير العربية والفلسطينية أحيانًا إلى اليأس، ونحن أيضًا لا ننكر أن الوضع العربي سيِّءٌ جدًا ولا يُحسد عليه ولكن بإمكان شاعرنا شفيق حبيب أن يزرع بصيصًا من الأمل والتفاؤل في شعره كغيره من الشعراء الملتزمين لأنه يكتب لأبناء شعبه وأمته العربية فهو لسان حالهم، وعليه أن يعمل على إدخال الأمل وشوقِ النصر وحلم بزوغ الفجر في قلوبهم ووجدانهم من خلال كتاباته وليس أن يكتب لهم لدفعهم إلى اليأس ولاستسلامهم وخنوعهم.

وشاعرنا جريء جدًا وعنيف أحيانًا في كتاباته، لا يهتمّ لأحد ويكتب ما يجيش في وجدانه وقلبه وفي وجدان كل إنسان فلسطيني وعربي حرٍّ وشريف يحب الكرامة والكبرياء والمجد والسؤدد العربي.

- **مدخل**

إن ديوانه الذي بين أيدينا "لماذا؟" هو المجموعة الثانية عشرة التي يصدرها الشاعر حتى الآن (عام ١٩٩٨) على نفقته الخاصة؛ كسائر كتبه السابقة، يقع الكتاب في ١٢٠ صفحة من الحجم المتوسط، ومقدمة الديوان مأخوذة ومقتطفة من كتاب "إضاءات في الشعر الفلسطيني المعاصر الجزء الثاني" من تأليف الناقد والكاتب الفلسطيني د. يحيى زكريا الآغا - الدوحة - قطر، وفيها يشيد بمكانة ومنزلة شاعرنا الشعرية وعبقريته الإبداعية.

والجدير بالذكر أن الشاعر شفيق حبيب قد حقَّق شهرة وانتشارًا واسعَين في الدول العربية، ونشرَ الكثير من قصائده في مختلف الصحف والمجلات الصادرة في العالم العربي، خاصة بعد قضية اعتقاله وسجنه من قِبَل السلطة الإسرائيلية عندما أصدر ديوانه عن الانتفاضة (العودة إلى الآتي)، فقد تألقت شهرته بعدها بشكل سريع وواسع جدًا محليًا وعربيًا لصِدقِ مواقفه.

والشاعر شفيق حبيب قد تجاوز في شعره حدود الزمان والمكان وتصدّى لكل محاولات طمس الهوية الفلسطينية، وخرج من بوتقة الظلم السياسي أشدَّ صلابةً وعزمًا وعنفوانًا، ولم يكترث بالسجن والإقامة الجبرية التي فُرضت عليه، وأصبح شعره وصوته في طليعة الأصوات القومية المقاومة المعبرة

والمُجسِّدة كلَّ ما يختلج من أحاسيس ومشاعر وآمال وأحلام الفلسطينيين في الداخل والخارج.

وديوانه هذا بعنوان "لماذا ؟؟" مثل جميع دواوينه الشعرية السابقة، يبقى الهمُّ الوطني هو همَّه ومدارَ وإطارَ فنه وإبداعِه، فيُظهر فيه أحاسيسَه المرهفة ولغته الثورية النابضة ورمزيته الشفافة القوية.. إضافةً إلى عظمته بالتزامه القومي العربي ومنهجه... وفي إدارته الفكرية والفنية المميزة، ويظهر أحيانًا في شعره الخروج عن دائرة البحور الشعرية الرتيبة والولوج إلى أبواب الشعر المعاصر، حيث أبدع في كليهما إبداعًا رائعًا لأن المضمون والفحوى لديه هما الأكثر التصاقًا ورسوخًا بالتجربة، وما الشكل الخارجي للقصيدة الكلاسيكية أو التفعيلية سوى إطار ولباس خارجي يستطيع أن يتحكم فيه ويتفنن كما يشاء.

ويتميز في شعر حبيب القوميُّ الملتزم، الوطنُ والأرضُ والقرى والشهداء والسجون والحياة، وكلها هموم يعيشها مع شعبه، وتحرِّكُ فيه الثورةَ الشعرية والذاتية، فلا تكتمل عنده التجربة أو الصورة الشعرية إلا بعد أن تلتحم ذاتهُ بالحَدَث والواقع فيتكوَّن النصُّ الشعريّ لديه في صورته التي يشاؤها ولنختر بعض النماذج والنصوص من ديوانه الجديد "لماذا ؟؟ "..مثلاً قصيدة:

" لماذا ارتحلنا؟؟..."

لماذا ارتحَلنا؟؟؟

عن البحرِ...

والنهرِ...

والبرتقالْ؟؟؟

لماذا غدَوْنا رمادَ المقاديرِ

في منفضات المحالْ ؟؟

تركنا النجومَ وراءَ الظهورِ

وسرْنا إلى الليلِ في الليلِ

صَوْبَ اسودادِ المآلْ..

لماذا تركنا السهولَ؟؟

تركنا التلالْ ؟؟؟

فهذا جليلي لظىً لا يزالْ...

يقبِّلُ مثوى مسيحي

ويدعو مقامَ شعَيبٍ

ومسرى الرسولِ

وأقصى الهلالْ....

ويختتم شاعرُنا هذه القصيدة بهذه الكلمات النازفة:

من البيدِ جئتُ...

وإني سأرجعُ يوما لأرعى الشياهَ

وأرعى الجمالْ..

هناكَ التردّي...

وموتُ التحَدّي...

وبَوْسُ الأيادي..

ولثمُ النعالْ...

هذه القصيدة تتحدّث عن مأساة الشعب الفلسطينيّ وتشرُّدِهِ ورحيله عن أرضِه ودياره وتشتتِه في بقاع الأرض، ولكن شاعرنا ينهي قصيدته كما هو واضح بنبرة الحزن واليأس والاستسلام والخضوع، فكان عليه أن يُعطينا صبغة الأمل والإشراق والتفاؤل من منطلق كونه يكتب لشعبه ويمثل ويجسّد نضاله وقضاياه المصيرية وعليه العمل على النهوض به وعلى شحذ الهمم والعزم للانطلاق وخوض معركة الحياة والبقاء والاستمرارية وليس الاستسلام بهذا الشكل وبوس الأيادي ولثم النعال وكأن كل شيء قد انتهى.

وفي مكان آخر يقول شاعرنا:

لا تلمْــــني في هــــوى هـــذا الثـــرى
إنــــه في الســـرِّ عِشـــقي والعَلـــنْ

جوَّعــــوني... فأنـــا لا أنحـــني
مـــن صـــخورِ الأرضِ خبـــزي في المِحَـــنْ

لـــن أخـــونَ العهـــدَ إن جـــنّ القضـــا
مـــن دمـــي المهـــراقِ أعطيـــهِ الـــثمنْ

مســـجدي هـــذا.. وهـــذا هيكلـــي
هـــذه قدســـي... وإنـــي المُـــؤتمَنْ

وأنـــا البحـــرُ وأنهـــارُ الشّـــذا
وأنـــا خضْـــرُ الروابـــي والفـــننْ

وأنـــا حيفـــا ويافـــا... وأنـــا
ســـورُ عكـــا وتبـــاريخُ الشـــجَنْ

إن يَطـــلْ ليلـــي ففجـــري هـــادِرٌ
يبعـــثُ الأضـــواءَ في الليـــلِ الـــدّجنْ

أنـــا بـــاقٍ يـــا فلســـطينُ! اشـــهدي
إنمـــا الزائـــلُ خضـــراءُ الـــدِمَنْ

في هذه القصيدة التي اخترتُ منها بعض الأبيات، يُلخصُ شاعرُنا تجربته الذاتية والفنية ومعاناته ونضاله ضدّ العنف والأحكام الجائرة التي وُجِّهت ضده بصدد أشعاره الوطنية الحماسية ويجَسِّد نضال شعبه الفلسطيني، ونحسُّ بكل همسة وبكل عبارة وكلمة، صِدقَ الشاعر وانتماءَهُ القوميّ ومدى حبه وعشقه وتعلقهِ بالأرض والوطن وانتمائه ومدى تلاحمه ونضاله وتضحيته..

وفي هذه القصيدة نجد روحَ المقاومة والنضال بكل معنى الكلمة، ونجد الأمل المشرق رغم الليل الجاثم على صدر هذا الشرق، ورغم المآسي التي مرّ بها شعبنا الفلسطيني، سيأتي اليوم الذي ينتصر فيه الحق ويبزغ الفجر فجر الحرية ويأخذ شعبنا الفلسطيني حقوقه الكاملة، وتقرّ عينه في ثرى وطنه وتراب الأهل والأجداد. فالقصيدة رائعة من جميع النواحي الفنية واللغوية والمعنوية والذوقية والبلاغية.

وفي قصيدة أخرى يتحفنا شاعرنا بقوله:

تظلـــينَ في عـــينيَّ أحلـــى فراشـــةٍ
وفي خـــاطري أسمـــى حـــروفِ المعـــاجمِ
تجيـــئينَ رعـــدًا ثـــمّ برقًـــا فهـــاطِلاً
تضـــيئينَ في هـــذي الليـــالي القـــواتمِ

فهـــل أنـــتِ نـــورٌ في مجاهيـــلِ غـــربتي؟
وهـــل أنـــتِ نصـــرٌ بعـــدَ كـــلِّ الهـــزائمِ

لقـــد علمَـــتني جولـــةُ العِشـــقِ أنـــني
كســـيرٌ وغـــيري مســـتبيحٌ غنـــائمي

في هذه الرائعة تبدو محاولة شاعرنا بالسير نحو التجديد والخروج عن المعاني المألوفة والقوالب الشعرية والعبارات التقليدية الجاهزة، مع محاولة تطوير وترميم بعض الصور والمعاني المستعملة سابقا، ففي القصيدة يتحدث عن فتاته فيشبهها بالأرض والوطن، ويوظف بعض العناصر والظواهر الطبيعية ليدعم فكرته وموضوعَه الذي يصبو إليه، فهذه الحبيبة أو الوطن أصبحا لدى الشاعر جسدًا واحدًا وكيانًا واحدًا، فللإنسان الملتزم تبقى الأرض والعرض أغلى ما يملك حيث أن الاثنين صنوان لا ينفصلان.

ويظهر في القصيدة مقدرة شفيق حبيب اللغوية والشعرية والفنية وقدرته الفائقة على التجديد والإبداع في الشعر الكلاسيكي (العمودي) الشاق والمُقيد لخيال وفن الشاعر وشطحاته وارتقائه.

وأخيرًا، إن شفيق حبيب شاعرٌ كبيرٌ وعملاق، وركنٌ أساس في حركتنا الشعرية والأدبية، فعندما نذكر الشعراء الملتزمين فهو في الطليعة، استطاع أن يفرض حضوره على الساحة الأدبية بفضل مستواه الإبداعي الراقي وتواصله النضالي القومي، رغم جميع المحاولات الإعلامية الآثمة والنقدية الرجعية المأجورة التي حاولت النيل منه والتعتيم عليه والتشويش والتخريب وعرقلة انطلاقته الشعرية الرائدة وشهرته وانتشاره، وهو من أكثر الشعراء المحليين إنتاجًا وحضورًا وعطاءً متواصلاً وإبداعًا...

فنتمنى له العمر المديد وأن يتحفنا دائمًا بالكثير من الإبداعات الشعرية والإصدارات الأدبية المميزة.

صحيفة " الفينيق " الأردنية

١-٦-٢٠٠٠

قصائد
تحت المجهر النقدي

شفيق حبيب

على شاطئ السَّبعين

لذكرى يوم مولدي :

الاثنين ٨-١٢-١٩٤١م / ٢٠-١١-١٣٦٠هـ

علـــى شـــاطئ السَّـــبعينَ حَطـــتْ مـــراكبي
ونـــاءَت بأعبـــاءِ الرّزايـــا منـــاكبي
مَخـــرْتُ عُبـــابَ الليـــلِ والوَيْـــلِ شـــاعرًا
ولم يَثـــنِني قهـــرٌ وأحقـــادُ غاصِـــبِ
أحـــبُّ فلســـطيني وأهلـــي وأرضَـــها
إذا مَسَّـــهم ضـــرٌّ، تنـــادت كتـــائبي
وتـــترى عقـــودٌ والليـــالي ثقيلـــة
ومـــا زال شـــعبي نـــازلاً في الحقائـــبِ
شـــربْنا علـــى نعـــشِ الـــدُّويلات حـــنظلاً
وعِشـــنا يتـــامى في ظِـــلال الثعالـــبِ

وأصبحَ لي عَرْشانِ يا عارَ عارنا
وخيرُ بني أمّي طعامُ النواعِبِ

أرادوكَ سقاءً وطفلكَ حاطِبا
وأصبحتَ فأرًا عندهم للتجاربِ

أنادي ضميرًا غارقًا في سُباتِهِ
يردُّ الصّدى: سائلْ فلولَ الأعاربِ

وهل يرجعُ الحقُّ السّليبُ وأرضنا
ملاعبُ قطعانِ البُغاةِ السّوائبِ

أُسائلُ عمري هل سيَمْتدّ كي أرى
زغاريدَ أرضي في خواءِ الخرائبِ؟

••••

تمُرُّ بيَ الأيامُ والعُمرُ نازفٌ
وما زلتُ في السّبعينَ غضَّ الرغائبِ

وإنّي جميلُ النفسِ حُرٌّ، عفيفها
ولكنها تزدادُ شهدًا تجاربي

أنا شاعرٌ والشعْرُ في كلِّ نبضَةٍ
كبركانِ عِشقٍ ثائرٍ في ترائبي

عيـــونُ الغـــواني كـــم يُعـــذِبنَ خـــافقي
وَيصـــرعُني عَمْـــدًا صـــدودُ الكواعِـــبِ
عشـــقتُ حِســـانَ الحـــيِّ عِشـــقًا مُراوغًـــا
وقاتلـــتُ حتـــى قيـــلَ: خـــيرُ مُحـــارِبِ
نشـــيدُ ســـليمانٍ صـــدىً في محـــابري
وأمطـــارُ قـــيسٍ قطـــرةٌ في ســـحائبي
تغنيْـــتُ بالعِشـــقِ الإلهـــيِّ مُـــدْنفًا
وعـــدتُ قتـــيلاً في ســـيوفِ اللواعـــبِ

••••

علـــى جبهـــةِ الأيـــامِ تعلـــو قصـــائدي
وتـبقـــى شـــهودَ العصْـــرِ، عصْـــرِ النواكـــبِ
أنـــا المجـــدُ والتـــاريخُ والصّـــوتُ والصّـــدى
غـــدتْ كبـــوةُ الفرســـانِ لـــبَّ المَصـــائبِ
أنـــا شـــاعرٌ تغـــذوهُ آمـــالُ أمَّـــةٍ
وآلامُهـــا، والحـــرفُ ثـــرُّ المواهـــبِ
زرعـــتُ علـــى التـــاريخِ رايـــاتِ نصْـــرِها
ونكسْـــتها حـــين اســـتبيحَتْ ملاعـــبي

وإنـــــي عـــــدوٌّ العُنـــفِ والقهْـــرِ والخنـــا

وأعلـــو بنفســـي عـــن صِـــراعِ المَـــذاهِبِ

ويبقـــى أخـــي الإنســـانُ في الكـــونِ ســـيِّدًا

ولا أرتضـــــي إذلالـــــهُ في الغياهِـــــبِ

رفعـــتُ لـــواءَ السِّـــلمِ فارتـــاعَ طـــامِعٌ

وأصـــبحتُ صَـــيْدًا في شِـــفارِ المَخالِـــبِ

••••

علـــى شـــاطئ السّـــبعينَ ترســـو مـــراكبي

ســـتقلِعُ عنـــدَ الفجـــرِ صَـــوْبَ المَغـــارِبِ

ومـــاذا ســـيبقى غـــيرُ حـــرفٍ كتبْتـــهُ

علـــى وجـــهِ مـــاءٍ في بحـــارِ النوائِـــبِ؟

دير حنا

٨-١٢-٢٠١٠م // ٢-١-١٤٣٢هـ

جريدة "كل العرب" النصراوية
١٤-١-٢٠١١

جريدة "الاتحاد" الحيفاوية
١٧-١-٢٠١١

قصيدة للتشريح

شفيق حبيب في عامه السبعين

الناقد / نور عامر

كنتُ في وقتٍ مضى قد تناولتُ بإعجاب بعضَ نتاج الشاعر المبدع شفيق حبيب، وها أنا ألتقي معه مجدَّدًا في قصيدة جديدة عنوانها : " على شاطئ السبعين" نشرها بمناسبة بلوغه العقد السابع.

يسعدنا أن تمتدَّ به الأيام حتى يرى ما تمناه في قصيدته :

أُســـائِلُ عمـــري هـــل ســـيَمْتدّ كـــي أرى
زغاريـــدَ أرضـــي في خـــواءِ الخرائـــبِ؟

ستة وعشرون بيتًا من البحر الطويل، قصيدة موزونة تمامًا يمتاز مطلعها بما يُسمّى التصريع المستحسَن في الشعر العموديّ، دأبْنا على قراءته عند الشعراء الكبار :

علـــى شـــاطئ السّـــبعينَ حَطـــتْ مـــراكبي
ونـــاءَت بأعبـــاءِ الرّزايـــا منـــاكبي

استهلالٌ رائع يليه موقفٌ أروعُ في التعبير عن الصّمود وحبِّ الوطن :

مَخـــرْتُ عُبـــابَ الليـــلِ والوَيْـــلِ شـــاعرًا
ولم يَثْـــنِني قهـــرٌ وأحقـــادُ غاصِـــبِ

أحـــبُّ فلســـطيني وأهلـــي وأرضَـــها
إذا مَسَّـــهم ضُـــرٌّ، تنـــادت كتـــائبي

يتابع شاعرُنا، ولعلّ في ذهنه قول محمود درويش: "وطني ليس حقيبة، وأنا لست مسافر".

وتـــترى عقـــودٌ والليـــالي ثقيلـــة
ومـــا زال شـــعبي نـــازلاً في الحقائـــبِ

هذا البيت لشفيق حبيب يعاني من الضعف بالقياس عمّا سبقه من أبيات قوية ثائرة. وكذلك البيت السابع :

أرادوكَ ســـقاءً وطفلـــكَ حاطِبـــا
وأصـــبحتَ فـــأرًا عنـــدهم للتجـــاربِ

لو افترضنا أن هذا البيت مدمكٌ لتصدّعَ وأضرّ بكل البناء. لم أفاجأ بصدر البيت، ولم استسغ أصبحت فأرا !

وأين هذا البيت من البيت الحادي عشر والذي اعتبره البيت المحور بالنسبة للموضوع الأساس.

تمُـــرُّ بـــيَ الأيـــامُ والعُمـــرُ نـــازفٌ

وما زلـتُ في السّـبعينَ غـضَّ الرغائـبِ

يتجلّى حبُّ الشاعر للحياة وتمجيدُه لها، ثم شعوره بالشباب والعنفوان. ولعل هذا الإحساس هو ما فجَّر قريحته لفتح صفحة المرأة التي تحظى عنده بمكانة كبيرة.

عيـونُ الغـواني كـم يُعـذِبنَ خـافقي

ويصـرعُني عَمْـدًا صـدودُ الكواعِـبِ

صورةٌ شعريةٌ مثيرة، الرغبة والصّد، الاندفاع والإخفاق، التناقض في التشكيل وفي ملامح الزمن : الامتداد النضوج والكم (الشاعر)، والزهور البكر (الكواعب) مفرد : الجارية نهد ثدياها.

ويستهويه هذا العشق حتى نراه يتعالى على سليمان في" نشيد الإنشاد" ويتعالى على قيس !

نشـيدُ سـليمانٍ صـدىً في محـابري

وأمطـارُ قـيسٍ قطـرةٌ في سـحائبي

ويزداد حماسه فلا يترك في الحي حسناء، يعشق بالجملة !!

عشـــقتُ حِســـانَ الحـــيِّ عِشـــقًا مُراوغًـــا

وقاتلـــتُ حتـــى قيـــلَ: خـــيرُ مُحـــاربِ

ولا يرى غضاضة في الخلط بين العشق الصوفي، وعشق المرأة، خاصةً الفتاةَ اللعوب.

تغنيْـــتُ بالعِشـــقِ الإلهـــيِّ مُـــدْنفًا

وعـــدتُ قتـــيلاً في ســـيوفِ اللواعـــبِ

هذه المفارقة تحتاج إلى التفكّر لتفسير ما قصده الشاعر. الصواب في نظري أن ندع المسألة مفتوحة.. وأن نلتفت إلى براعة الشاعر في التمهيد قبل دخوله عالم الأنثى؛ ربما ليحصّن نفسه من الظنون...

وإنـــي جميـــلُ الـــنفسِ حُـــرٌّ، عفيفهـــا

ولكنهـــا تـــزدادُ شـــهدًا تجـــاربي

من خلال معرفتنا به نقرّ له بهذه الصفة النبيلة، ولا تفوتنا الإشارة أنه شاعر من أجل قضية يجسِّدها بموهبته المشبعة بالتجربة والمعرفة:

أنـــــا شـــــاعرٌ تغــــذوهُ آمـــــالُ أمَّـــــةٍ

وآلامُهـــــا ، والحـــــرفُ ثـــــرُّ المواهـــــبِ

زرعـــتُ علـــى التـــاريخِ رايـــاتِ نصْـــرِها

ونكسْـــتها حـــين اســـتبيحَتْ ملاعـــبي

نلحظ بوضوح الفجوة الواسعة بين صدر البيت الثاني وعجزه. مصرعان متنافران بحدّة !.. ليته جعل عجز البيت موازيا لصدره فخرًا وشموخًا، كما فعل النابغة الجعدي مفتخرًا بقومه:

بلغنـــا الســـماءَ مجـــدُنا وجـــدودُنا

وإنـــا لنرجـــو فـــوقَ ذلـــك مظهـــرا

وبخصوص القافية فإن الشاعر يتحكم بها في معظم قصيدته، لكن بعض القوافي تخرج عن طوعه، بمعنى إنها تثبت من اجل القافية ليس إلا. كقوله على سبيل المثال:

علـــى جبهـــةِ الأيـــامِ تعلـــو قصـــائدي

وتبقـــى شـــهودَ العصْـــرِ، عصْـــرِ النواكـــبِ

يُعرف بدون شك إن الصحيح لغويًّا (نكبات) جمع نكبة، وليس النواكب. لكنه اضطر لوضعها كي تستقيم القافية.

إن لشفيق حبيب صولاتٍ كثيرةً في شعر التفعيلة، لكنه في الحقيقة مولعٌ بالشعر القديم، ومن نتائج هذا الولع أنه في قصيدته هذه تنازل قليلاً عن لغة العصر في وصفه الأخطار التي تحيق بأمّتنا في ظل الهيمنة والمكر وسطوة السلاح، كقوله :

(شفار المخالب.. ظلال الثعالب.. طعامُ النواعب).

ومع ذلك تبقى هذه الألفاظ القديمة محبَّبة إلى نفوسنا من منطلق عشقنا للغتنا العربية.

لعلَّ دافعي الأول في نقد هذه القصيدة أن شاعرَنا الكريم صادقُ الشعور صريحُ العبارة، لدرجة أنك لا تجد في قصيدته فقرةً واحدةً ملتويةً أو مخادِعة، لذلك نقرأ هذا النص المميز بكثير من التفاعل والتقدير.

صحيفة " كل العرب " النصراوية

١٨-٢-٢٠١١

صحيفة " الحقيقة " المحلية

٢٥-٢-٢٠١١

تصحيح ما جاء في التشريح
وكلمات للذاكرة

شفيق حبيب

▪ الناقد الأديب الصديق "نور عامر" صاحبُ قلمٍ متميِّز له مكانه ومكانته على كرسيّ النقد في صومعة الأدب المحليّ؛ وأتابعُ ما يكتبُ منذ مدة طويلة، خاصة وأن له منهجًا خاصًّا لا يداهِن به ولا يتملق أحدًا في زمنٍ باتت فيه العلاقاتُ الشخصية لها مفعولُ المخدِّر.

▪ كي لا يُفسَّر كلامي على غير مراميه ليس بيني وبين نور أيةُ علاقة معرفيّة سوى على ميادين النشر ولا أراه إلا فيما ندر، وبهذه المناسبة أشكر الصديق الشاعر عيسى خوري؛ ابن قرية معليا؛ على سخائه بإعطائي رقم جوّال ناقدنا نور عامر لأشكرَهُ على هذا الاهتمام بما تجود به قريحتي المتواضعة.

▪ تابعتُ بعض كتابات نور بعد أن تناول ديواني "تعاويذ من خزف" بنقدٍ موضوعيّ بناء تحت عنوان "شفيق حبيب ينطلقُ من جوهر عقيدة كافكا" وذلك على صفحات "كل العرب" في ٢-٥-١٩٩٧م وما يكتبه ناقدُنا ينمّ عن درايةٍ واسعةٍ بالنقد دون

التعصّب لهذه المدرسة النقدية أو تلك، حيث يبتعدُ عن فلسفة الأمور بتحميلها فوق ما تحتمل أو تعني، كما يحاول البعضُ أن يُغرق القارئ أو الدارس بحفنة ماء، كذلك وردتْ الدراسة المذكورة في كتابه: "رحلة في أجواء الحروف-مداخلات نقدية" ودعمًا لقولي أعلاه، ها هو ناقدنا نور عامر بتواضع جمّ ودون أن يعتبر قولهُ القولَ الفصل في نهاية نقده لديواني أعلاه، يدعو إلى المزيد من دراسة الديوان فيقول :

" لا أزعم أن هذا المقال يكفي لإعطاءِ هذه القصائد حقها من التقييم والتحليل، فهذا الديوان بمضمونه الفكري والأدبي يُشكل مادّةً خصبة ورحبة للكتابة الموضوعية ".

▪ حين يتناول ناقدٌ متمرّس قصيدة واحدة "للتشريح" وليس "للتجريح" كما يفعل السِّوى، فهذا يعني أن ناقدنا نور عامر ذو عين ناقدة ثاقبة، كذلك فعل الصديق الدكتور فاروق مواسي حين تناول بالنقد قصيدتيَّ : "لقاءٌ وأمل" وَ "تراكمات" منذ سنوات بعيدة.

▪ من خلال ما ورد أعلاه، فإني راضٍ عن نقد نبيلٍ جميل "مع بعض التحفظات" ولكنني أخذتُ على خاطري عندما قرأتُ ما جاء في متن النقد : (وبخصوص القافية فإن الشاعر يتحكم بها في معظم قصيدته، لكن بعض القوافي تخرج عن طوعه، بمعنى أنها تثبت(!!) من أجل القافية ليس إلا، كقوله على سبيل المثال:

علـــى جبهـــةِ الأيــــامِ تعلـــو قصــــائدي

وتبقـــى شــــهودَ العصْـــرِ، عصْـــرِ النواكـــبِ

ويضيف ناقدُنا: (يُعرف بدون شك أن الصَّحيح لغويًا "نكبات" جمع نكبة وليس "النواكب" لكنه اضطرَّ لوضعها كي تستقيم القافية).

▪ عزيزي نور أسعد الله أوقاتك بكل خير !!
إن شاعرًا يرتفع إلى ما فوق منكبَي المتنبي هو الشاعر العباسي ابن الرومي الذي فضله البرقوقي على المتنبي لا يُمكن له هو الآخر أن يُضطر لوضع كلمة "النواكب" كي تستقيم القافية عنده أيضًا، فاسمعه يقول :

فتلقـــى الـــدّلافينُ الكــــريمُ طباعُهــــا

هنــــاكَ رعــــالاً عنــــدَ نكــــبِ النواكِـــبِ

وفي التفسير جاء أن الرِّعال هي الجماعات والنواكب جمع نكبة...

▪ وأضيف : كلما استعمل شاعرٌ منا كلمة "حقيبة" يتبادر إلي أذهان النقاد أنها منقولة عن الشاعر الراحل الكبير محمود درويش وكأن هذه الكلمة من وضْع شاعرنا ولم تكن قبله في معاجم اللغة العربية وهي حكرٌ عليه، وما هذا سوى مأخذ على حصر الفكر واللغة في بوتقة ضيقة على مدّ التاريخ الأدبي.

▪ ومن أجمل أبيات قصيدتي، البيت القائل:

زرعتُ على التاريخِ راياتِ نصْرِها

ونكسْتها حين استبيحَتْ ملاعبي

وهذا البيت جاء نتيجة للانكسارات والهزائم التي لحقت بنا بعد عصور ذهبية من العلوم والفلسفة والترجمة من اليونانية وغيرها، فأين نحن اليوم على المستوى المحلي والدولي ؟؟؟
ففي رأيي ليس هناك أي تضارب بين الصّدر والعجز (حمانا الله منهما) إذا ما أخذنا في الحسبان تداول الأيام وتقلباتها منذ النابغة الجعدي حتى شفيق حبيب ونور عامر.

▪ وللمعلومية سيصدر لي قريبًا ديوان شعريّ جديد تحت عنوان "شآبيب" وستكون قصيدتي قيد النقد "على شاطئ السّبعين..." افتتاحيةً لقصائد الديوان، أرجو أن ينال إعجابَك وإعجابَ محبّي الأدب.
كذلك فإني جادٌّ بجمع معظم ما كتب من نقد حول نتاجي الشعري محليًا وخارجيًا خلال خمسين عاما ولَّت في كتاب تحت عنوان : "شفيق حبيب شاعرًا في مرايا النقد" وأعلن اعتزازي بما كتبه ناقدنا الأستاذ نور عامر وتقديري له واردًا في كتابي القادم.
على الخير والمحبة نلتقي دائمًا.

صحيفة "كل العرب " النصراوية

٢٠-٢-٢٠١١

الدكتور فاروق مواسي يقرأ :

" لقاءٌ.. وأمل "

شعر : شفيق حبيب

والتقيْنا... وتلاقتْ دمعتانْ

دمعةٌ تأبى الهَوانْ

ما هَمَتْ إلا رُجوله،

عانقتْ دمعةَ عينٍ

من ينابيعِ البطوله،

لحظةٌ تجمعُ ماضينا

وما في الحاضرِ المحزونِ من رؤيا ذليله

قال : إني أزرعُ الشمسَ على ذروةِ تله

أزرعُ المستقبلَ الآتي نجومًا وأهِله

وأنا ما زلتُ في الظلمةِ أرنو للصباحْ

أتغنى بالعواصفْ

وأغني للرياحْ

علها تبزغُ من وحلِ حياتي

وردةٌ تحضنُ فله

••••

أنت يا نسْري طليقْ

أنت نبراسٌ على مَدِّ الطريقْ

أنت شعله

نحن صِنوانِ ولكن

أثخنتْ قلبي الجراحْ

مُدَّ لي هذا الجناحْ

إنني يا نسرُ أصبحتُ غريقْ

آهِ لو أغدو حسامْ

لاجتثثتُ الشرَّ من أرضِ السلامْ....

جريدة "الأنباء" - القدس

١٩٧١-٦-٤

النقد والتحليل :

بقلم : الدكتور فاروق مواسي

شفيق حبيب في هذه القصيدة ليس تائهًا ولا هائمًا، تعاوِدُنا موسيقاه بأنغامٍ شجية، ويرجعُ الصوتُ متسقًا، كلُّ ذلك من خلال أطرٍ تبتعدُ عن الترَفِ اللفظي... وتمازِجُ بين الرومانسيّة والواقعيّة تمازجًا يلامسُ المناجاة، مناجاة من نوع خاصٍّ تنصهرُ في بوتقة التحدي :

والتقينا... وتلاقتْ دمعتانْ

دمعةٌ تأبى الهوانْ

ما هَمت إلا رُجوله

دمعةُ الأوّل التقت بدمعةٍ ذرفها بطل، خرجتْ قسرًا فطاوَعَها تحت جنح العاطفة، جمع فيها ماضيًا تليدًا وحاضرًا محزونًا برؤاه الذليلة ليُطِلَّ منه على مستقبلٍ أجملَ وأزهى، هذا الإنسانُ العظيمُ الذي هلَّ على شفيق، سيزرعُ الشمسَ على ذروة تلة، سيزرعُ المستقبلَ أهِلة، سيخلقُ المعجزات ويحققها...

ولنعدْ إلى شفيق وحاله:

وأنا

ما زلتُ في الظلمةِ أرنو للصباحْ

وأغني للرياحْ

كم أحِبُّ الشعرَ الذي يعترفُ بواقعهِ ويعايشُهُ، يلامسهُ ولا يبسطهُ، فالوضوح المفرطُ قتلٌ للشعر، وشاعرُنا هنا يدلُّ على معانٍ يفهمُها السامعُ من الرنةِ والوقع، رمزيةٍ لا تصلُ إلى الإيغال، وفي قراءتها ارتياحٌ للتشابه والحركة وما يلازمُ ذلك من تلوينٍ عفوي.

اسمع الشاعر وهو يخاطبُ صاحبَ دمعةِ الرجولة:

أنتَ يا نسري طليقْ

أنتَ نبراسٌ على مدّ الطريقْ

لا فضَّ فوك يا شفيق !!، فصاحبُك شعلة سيمدّ لك بعضَ جناحِه. أرأيتَ كيف يصبحُ النسْرُ شعلة؟ إنه طائرُ الفينيق الذي ذكره أدونيس في شعره ـ كلما احترق تسري به روحُ الحياة.

لا أدري إن كان النسرُ طليقًا حقًا، وما معنى استعداده هذا للموت دون حريته إن كان طليقًا ؟؟

شفيق!! أنتَ في قصيدتك حسام، فأهلاً بكَ شاعرًا يثيرُ الإعجابَ برمزيتهِ الشفافة، وجرأتهَ الأدبيّة.

كلماتُ القصيدة رائعة اللهُمَّ إلا كلمة ـ لاجتثثتُ ـ التي أراها غير لائقة، وربما يشفع لها أن إخراج الكلمة صعبٌ كاستئصال الشر، أي إن الكلمةَ ملائمة لمدلولِها... كما نشعرُ بالثقل في قوله تعالى "... اثاقلتم" وبالتدرج في قوله تعالى "... سنستدرجهم ".

وإلى اللقاء في قصائدَ نلتقي بك فيها على أمل...

عن كتاب : "عرض ونقد في الشعر المحلي"

جريدة "الأنباء" - القدس

٢٥-٦-١٩٧١

الدكتور فاروق مواسي يقرأ :

" تراكمات "

شعر : شفيق حبيب

بعْضي ينهارُ على بعْضي...
أتراكمُ أجزاءً أجزاءْ
أطلالي تعلو أطلالي...
وصلاتي صوتٌ من حالي،
والكفرُ دُعاءْ...
أتلاشى مثلَ شعاعِ الضوءِ
الباكي في ثغرِ الظلماءْ
أنا لستُ سوى قطعةِ ثلجٍ
تتعرّى في كأسِ الصّهباءْ...

••••

أخطو..

لا أدري..

أهبطُ أمْ أعلو

فالكلُّ سواءْ...

ضاعتْ من عينيَّ الألوانُ

وغنتْ في صدري الأحزانُ

وماتت في قلبي الأضواءْ

يملأني خوفٌ أبديّ

وعويلٌ يملأني وخواءْ...

••••

ها أقفُ اليومَ على نشزٍ

وأنادي الأحياءَ الأمواتَ

وأدعو الأمواتَ الأحياءْ..

أخذتني الريحُ وألقتني

في فكيْ أمواجٍ هوجاءْ..

يا صوتي الصّارخَ في البرِّيةِ

حزنًا..ودموعًا.. ودماءْ..

ظمأٌ صَهّدني..

ضيَّعني..

فامتزجتْ صُوَرٌ شائِهةٌ

واختلطتْ في ذهني الأسماءْ

صَدَأٌ يجتاحُ شراييني..

والجَدْبُ أصابَ ميادينيِ..

والشعرُ هزيلاً يتلوّى..

يتمرّغُ في وحْلِ الأهواءْ،

يستجدي المالَ

ويلحسُ أعتابَ الأمَراءْ..

••••

لو تدري ذاتي

عن ذاتي

كم تحملُ أعباءً وشقاءْ

لانشقّ البحرُ،

وغابت أشرعتي الحَيْرى،

وانخرستْ ألسنةُ الشعراءْ..

••••

يا مُرَّ الشَّهْدِ !!

وشهدَ المُرِّ !!

غريبٌ يبحثُ عن عنوانٍ

مكتوبٍ بالماءْ...

••••

حَطمْ أقلامَكَ، ألقِ بها

في نارِ العِشقِ الذاوي

خلفَ مصاريعِ الصّحراءْ...

واهتفْ..!!

من جَوْفِ السّغبِ العاصفِ ملحًا

في أقداسِ الوحْي

وفي الإيحاءْ :

لم يبقَ أمامي يا دنيا !!

غيرُ الأمواتِ من الأحياءِ عزاءْ..

••••

ينشطرُ الحرفُ إلى أصداءْ...

وأبعثِرُ أيامي مِزَقًا

أحلاماً..

أوهاماً..

وهباءْ..

آهٍ لو عاينَ آدمُ هولَ مُعاناتي

ما أخصَبَ جدّتنا حوّاءْ...

جريدة " الصنارة " النصراوية

١٠-٦-١٩٩٤

جريدة " أخبار الأدب " المصرية

٣-٧-١٩٩٤

من مجموعة: آه.. يا أسوار عكا!!

مطبعة الحكيم- الناصرة- ١٩٩٤

قراءة في قصيدة "تراكمات"

يقدمها الدكتور فاروق مواسي

اعتاد قارئ قصائد شفيق حبيب أن يتوقعَ في شعره ذلك الإيقاعَ الصّاخبَ، وتلك المباشَرَةَ والخطابيّةَ الممهورةَ كلها بصدق الموقف وأصالةِ الانتماء والالتزام.

ولكنا هنا إزاءَ قصيدةٍ من نوع آخر تشفُّ شاعريةً خاصّة، وليست هذه متأتية - قصرًا- بسبب التمزق والمعاناة والضَّياع، بل بسبب هذا البوح التلقائيّ أو "الفيضان" الذي ذكره وورد زوورث في كتابه (السيرة الأدبية) ضمن وجودٍ رومانسيٍ صافٍ، لكنّ الفيضان في قصيدة "تراكمات"، وأصطلحُ عليه "فيضان التراكم" كان كبركان يندلقُ من ذاتٍ محرورة، ويتجمّعُ فوقَ بعضهِ البعض، فتخيَّل كيف تتراكمُ أجزاءُ الرّاوي الشاعر أو "أبعاضُه" أو "أطلاله!" وتأملْ كيف تنعكسُ المفاهيم، فيُضحي كفرُهُ دعاءً، وها هو يتلاشى كشعاع الضوء، والمشبَّه به هنا ليس ذلك الشعاعَ الباسمَ المنير، بل هو "الباكي في ثغرة الظلمة" إنه يذوب تدريجيًا كقطعة الثلج، ولا يستطيع تحديد المقاييس والأبعاد، فالكلُّ سواء وهباء، وبات الكون بلا لون... معنى ذلك أن هناك نمطيةً شكليةً مقيتةً ومُمِلة، والأضواءُ في

قلبه ماتت... معنى ذلك أن هناك ظلمةً أبديةً تستدعي بالتالي خوفًا أبديًا وعويلاً وخواء.

ثم ينتقلُ الشاعر إلى موقف آخر، حيث يقف خطيبًا "على نشز" شأن خطباءِ العرب القدامى، وينادي الأحياءَ الأمواتَ، ويدعو الأمواتَ الأحياء، معنى ذلك أن يعتبرَ الأحياءَ أمواتًا، وهذا نابعٌ من عمق إحساسهِ بالعدميةِ واللا شيئية، فالأمواتُ هم الأحياءُ الحقيقيون، هكذا بلغت المفارقةُ وحالُ التصور، وبينما كان ينادي الأموات والأحياء - ولا يهمّ تحديد المقصود في كلٍ- تسوقه الريحُ الهوجاءُ إلى فكَّيْ - لاحظ "فكَّيْ" - أمواج هوجاء. فماذا سيفعل إزاءَ ذلك ؟

إنه يصرخ في البرِّية ولا من صدى، صوته يخرج حزنًا ودموعًا ودماء، فالظمأ أحرقه بحرارته وضَّيَعَهُ، فاختلطت عليه الأسماءُ والصور، واجتاحه الصدأ، وأصاب الجدْبُ ميادينه. وهذا التنويعُ المأساويُّ هنا هو أقلّ حدة مما كان عليه الحال في القسم الأول من القصيدة وما جسّمه فيه. وها هو في الفقرة الثانية يلجأ إلى المبالغة - فلو عرفت ذاته عن مدى الآلام الحقيقية لهذه الذات نفسها لانشقّ البحرُ وغابت أشرعة حيرى، وهو بالتالي غريب يرى الشهدَ مُرًّا، والمرارةَ شهدًا، ويبحثُ عن لا شيء.

إذن ماذا سيفعل الراوي الشاعر؟ إنه يطالب ذاته أن يحطمَ أقلامَه، يُلقي بها في نار العشق الذاوي خلفَ أبواب الصحارى.

إنه يطلب أن يهتفَ من جوف هذا الظمأ والملح : لم يبقَ عزاءٌ إلا الأموات.

وأخيرًا ها هو مشهد التكسّر والتشظي يتواصل، فينشطر حرفه إلى أصداء، وتتبعثرُ أيامُه مزقًا وأحلامًا وأوهامًا وهباءً. ويعود للمغالاة مرة أخرى ليؤكد أن آدم لو كان يعلمُ الغيب، ولو كان يعرفُ ما سيعانيه الرّاوي لما وجد ضرورةً للنسل والتكاثر.

وإذا كان العملُ الإبداعيُّ - كما يرى علماءُ النفس - تجسيدًا لرفض المبدع لواقع ما، حيث يصطدمُ الوعيُ بدمامة هذا الواقع المُحدِق، فإن تجسيدَ النشاط الجواني الفائر ينبثقُ وينطبقُ في مادة مُجسّدة هي العمل الفني.

ومن هنا أصل هذا السؤال : ماذا دهى شاعرَنا حتى طلعَ علينا بملامحَ أخرى تنضحُ يأسًا، بوجهٍ مُتشظٍّ تسيل منه ألفاظُ المعاناة، بصورةٍ يتراكم عليها الموت، وما ينوءُ به من معجم ألفاظٍ مهول ؟؟

قراءةٌ أخرى للقصيدة توجِّهُني إلى أن الشاعر كتب قصيدته في لحظة يأس - أو دمامة الواقع - وذلك بعد أن لمسَ توجهًا سلبيًّا ما نحو شعره، وقد عزَّ عليه ذلك وهو يعرفُ مدى صِدْقِ موقفِهِ الوطنيّ الذي دفع لقاءَهُ ثمنًا حقيقيًا من اعتقالٍ ومصادرةٍ وإرهابٍ وإزعاجٍ وتهديد، فإذا بهذا الثمن - في حساب البعض -

لا اعتبارَ له، وإذا الشعر "الآخر"- ولا يهمُّ مَن - من هذا النوع "اللاحس".

والشعرُ هزيلاً يتلوّى

يتمرّغُ في وحْلِ الأهواءْ

يستجدي المالَ

ويلحَسُ أعتابَ الأمَراءْ

وإذا قلبنا الصورة، وعُدنا إلى شعره فكأني به يقولُ عن شعره (أو أقول أنا على لسانه) :

والشعرُ عنيفًا يتصدّى

يستنكفُ عن وحل الأهواءْ

يستغني بالنفس

ولا يستخذي للأمَراءْ

ثم يعودُ الشاعر في الفقرة التالية ومن خلال حديثه عن مدى ما يعاني، فيقول :

لو تدري ذاتي عن ذاتي

كم أحملُ أعباءً وشقاءْ

لانشقَّ البحرُ

وغابتْ أشرعتي الحَيْرى

وانخرستْ ألسِنةُ الشعراءْ

ويمكننا أن نفهمَ عند المبالغة معنى "وغابت أشرعتي الحيرى" وذلك في إطار حديثه عن شخصه، وخوضه في لجة الشقاء، ولكن ما أحوجَهُ إلى القول :
"وانخرست ألسنةُ الشعراء" ولماذا "انخرست" بالذات ؟؟؟

لا أظن أن الشاعر يريد فقط أن يؤكد لنا أن ألسنة الشعراء ستكلّ أو ستعجز عن الوصف الحقيقي، وإنما يريد من وراء ذلك أن يتهم الشعر "الآخر" والشعراء الذين ليست حالهم كحاله، وهؤلاء كأنهم في بحبوحة، فالأجدر بهم أن يبكوا، أو بلهجة عاميّة معبرة حادة "ينخرسوا"، يدفعُنا إلى هذا التصوُّر ما قاله في الفقرة السابقة بعد أن اجتاح شرايينه الصدأ، وأصاب ميادينه الجدْبُ، حيث يصف حالَ الشعر عامة:

والشعْرُ هزيلاً يتلوّى

فالشعر الهزيل الضامر لا يمكنه أن يكون سببًا للإفصاح عن الموقف، أو على الأقل ليس مطلوبًا منه أن يصف العمقَ الحقيقيَّ للمأساة. ولعلّ الموقعَ الثالث الذي يشي بهذا الشعور الذي ألمحتُ إليه ما توجَّهَ به إلى نفسه :

حَطمْ أقلامَكَ ألقِ بها
في نارِ العِشقِ الذاوي
خلفَ مصاريعِ الصّحراءْ
واهتِفْ...

لاحظْ أن (الهتاف) سيكون في رؤيا قاتمة في أقداس الوحي وفي الإيحاء.

ولا شك أن هذه التعابيرَ ملازمةٌ للشعر ولقاموسِه (الثيمي) بشكلٍ أو بآخر.

وها هو يتابع الشعورَ عينه في قوله:

ينشطِرُ الحرفُ إلى أصداءْ

ومن خلال هذا التصور أستطيع أن أتفهّم لفظة (وغنَّت) في السطر:

وغنَّتْ في صدري الأحزانُ

وكنتُ قد تعجبت - في قراءتي الأولى- بسبب موقعها غير المتماثل أو غير المتساوق في المبنى العويلي الهائل والمضطرب، ألم يكن بوسع الشاعر أن يستعمل مكانها: "جاشت" و "بكت" "رنّت" و "اشتعلت" الخ... وقد وجدت في استعماله "غنت" مفتاحًا لهذا التصوُّر الذي طرحته في هذه القصيدة. إنه هنا ومن خلال هذه السوداويّة يتطلع إلى التناغم، إلى تصحيح للواقع، والقصيدة وإن كانت إبداعًا فرديًا إلا أنها تهجسُ في قلقٍ جماعيٍّ جليٍّ أو مخفيّ.

••••

وفيما أنا أدرسُ هذه القصيدة نشر الشاعر قصيدة جديدة- "ضياعٌ في بحر الذات" (الاتحاد: ٢-١٢-١٩٩٤)، وها هو يحلقُ في نفس الجو، وينسجُ على نفس النول، فيرى هنا أن أوتار َصوتهِ أصبحتْ شجرًا خريفيًا، وهو يحنُّ إلى التراب:

"وأحلامي ذرتها الرّيحُ في صحراءِ تاريخي"....

وختامًا يناشد نفسَهُ أن تلهَمَ بالصبر، ذلك لأن:

الموت شهدُ العاشقينَ القابضينَ

على القصيدةِ

والعقيدةِ

والكتابْ

فالقبض على القصيدة - القصيدة أوّلاً والكتاب آخرًا - جزاؤه الموتُ العذب، والشاعرُ الذي لا يجد لكلمته ولعقيدته صدى يجد نفسَهُ غريبًا، فلا يملك إلا مناجاة نفسه :

"ما للغريبِ سوى نعيقِكَ يا غرابْ !! "

وبالطبع فإن صورة الغريب التي نجدُها في هذه القصيدة الجديدة تتلاقى وقوله في قصيدتنا التي نتناولها:

غريبٌ يبحثُ عن عنوانٍ مكتوبٍ بالماءْ

••••

ولعلَّ ما يميزُ هذه القصيدةَ التي بين أيدينا - بالإضافة إلى صِدقِها وعفويتها وإنسانيتها - أنها كتبت بمَوْسَقةِ عبارة، وذلك من خلال تكرارٍ إيقاعيٍّ أسيان... (اقرأ مثلا الأبيات الثلاثة الأولى) ومن خلال المطابقات (الأحياء الأموات.. مُرّ الشهد وشهد المُرّ..الخ) ومن خلال حِيَلٍ وأساليبَ بلاغيةٍ متباينةٍ نحو:

(لو تدري ذاتي عن ذاتي.. وصلاتي صوتٌ من حالي..) الخ،

ومن خلال التناصّ الوارد هنا وهناك.

يقول روبرت شولز في مقالته " سيمياءُ النصِّ الشعريّ " إن النصوصَ تنبثقُ من نصوص متداخلة : (Intertexts) أخرى، أو من قوالب (..) يقدِّمُها الموروثُ المتواتر... وقد لاحظت أن قول شفيق :

يا صوتي الصارخَ في البرِّية

معتمدٌ على الإنجيل والتوراة معًا، فنرى في إنجيل لوقا :

(صوتُ صارخٍ في البرية أعِدّوا طريقَ الرَّب) لوقا٣، ٦

ويمضي الإنجيل في وصف تقلب الأحوال:

(كلُّ وادٍ يمتلئ، وكلُّ جبلٍ وأكمةٍ تنخفض، وتصيرُ المعوجّاتُ مستقيمة، والشعابُ طرقًا سهلة).

والشاعر يفيد من هذا التغاير، وبدلا من أن تكون الصورة إيجابية - كما في الإنجيل - يوردُها الشاعر بصورة سلبية :

فامتزجت صورٌ شائهةٌ

واختلطتْ في ذهني الأسماءْ

صدأ يجتاحُ شراييني

والجدْبُ أصابَ ميادينى

إذن فصوته صارخٌ في البرِّيَّة كصوت النبي أشعيا (الإصحاح٤٠,٣) ويقترن هذا الصوت العبثيّ بقول الشاعر العربي القديم الذي كاد ييأس:

" ولكن لا حياةَ لمن تنادي "

وها هو الشاعر كذلك ينادي الأحياءَ الأمواتَ ويدعو الأمواتَ الأحياء (سيّان) ولا حياةَ لمن تنادي.

ومن الوسائل الفنية التي اعتمدها الشاعر بالإضافة إلى ما سبق، هذه القافية الهمزيّة المقيدة، وكأنها نواحٌ يعكس المعاناة.

وبقدر ما رأيت في القصيدة تماسكًا فإن هناك من اعتبره عبئًا على القصيدة، فما ضرورة لفظة (وشقاء) في قوله :

كمْ يحملُ أعباءً وشقاءْ

أو هذا التشبيه:

أنا لستُ سوى قطعةِ ثلجٍ

فشتانٌ بين هذه الصورة وبين صورة تلاشي شعاع الضوء الباكي في ثغر الظلماء...

ولو تبنّيتُ أنا القصيدة لقلت:

أتلاشى مثلَ شعاعِ الضوءِ الباكي في عينِ الظلماءْ

أو (من عين)، وبالطبع فهذا ما أحسّه لا ما يحسّه شاعرنا، وليس لي عليه ضربة لازب.

وأخيرًا:

فهذه اللغةُ التي عمدَ إليها الشاعر مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا برؤياه وبحسِّيته، فقد حلق عبرها في مستوى مجنح انفعالي، وكذلك في إطار المستوى الإخباري عن واقع حال، يعبِّر عن معاناته الشخصية عبر دفاع عن شاعريته وإنسان يتيهِ في إطار المعادلة :

شفيق = الشاعر.. .. الشاعر = شفيق.

وتظلُّ هذه القصيدةُ المعادلةُ حتى في سياقِها التدميريّ استعارةً مُمتدَّةً وحكايةً رمزيةً للبحثِ عن الذات.......

عن كتاب : " قصيدة وشاعر "

جريدة " الصنارة" النصراوية

١٦-١٢-١٩٩٤

مواجهات صحفية

لقاءٌ صحفي

الشاعرُ الفلسطينيّ شفيق حبيب: صودر ديواني "العَودة إلى الآتي" لأن الرّقابةَ اعتبرتهُ تحريضًا ضدّ جيش الاحتلال الإسرائيليّ....

- حاوره : حسن أشرف

في هذا الحوار، يحكي الشاعرُ الفلسطينيُّ الكبير شفيق حبيب عن تجربته الإبداعية في ظلّ الاحتلال الصهيونيّ، وعن معنى الانتماءِ إلى أرض فلسطين حياتيًّا وإبداعيًّا، كما لم تفتهُ الإشارةُ في هذا الحوار إلى قضايا أخرى هامّة.

- من هو الشاعرُ الفلسطينيُّ شفيق حبيب عدا كونِكَ شاعرًا فلسطينيًّا؟

- على المستوى الإنساني، أنا بعيدٌ عن كل تعصّبٍ عرقيٍّ أو دينيٍّ أو سياسيٍّ أو إقليميّ.. أؤمن بوحدة مصير الإنسانية، شريطةَ إلاّ يأكلَ القويُّ الضعيف، عندها سأنحاز بكليّتي إلى جانب الضعيف لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، كما هو حالي مع شعبي الفلسطينيّ.

على المستوى العائلي: متزوج، لي أربعُ بنات وثلاثةُ أبناء، جميعهم جامعيون بعيدون عن الوظائف الحكومية بسبب المقاطعة المفروضة عليّ منذ مطلع الستينيّات من القرن الماضي بسبب مواقفي. أبلغ الرابعة والستين من العمر، وما زلتُ أعمل موظفًا في شركة خاصّة بمدينة الناصرة العربية، ومكتبي هناك ملتقى بعضِ الشعراء والأدباء.

• ماذا أضافت لك هُويَّتك وجنسيتك الفلسطينيّة..؟

- لقد أضافت لي هُويتي الفلسطينية القلقَ الدائمَ والترقبَ الحذر مما يخبِّئه لي الغد، خاصةً وأن السفينة الفلسطينية ما زالت تبحث لها عن مرفأ آمن، علمًا أنني من عرب ١٩٤٨؛ ولكننا كلنا في الهمّ شرقُ، فالجرحُ الفلسطينيّ واحد وآلامُ وآمالُ هذا الشعب لا تتشعّب ولا تتجزأ. أما بالنسبة للجنسية، فإنني أعيش منشطرًا بين الموروث والواقع..
الدَّمُ فلسطينيّ وجوازُ السفر إسرائيليّ...

• بعضُ النقاد يقولون بأن قصائدَك تشهدُ بصدق انتمائِك، كيف يكون الرَّبطُ بين المكان والإبداع؟.

- المكانُ الفلسطينيُّ مكانٌ ثرٌّ إبداعيًّا بسبب التداعيات والإسقاطات على الساحة الفلسطينية، فعندما يسقط ستةُ شهداءَ

في يوم الأرض، فكيف لا يكون المكانُ مُلهما إبداعيًا من قلب الألم؟.. شأنُ ذلك شأنُ شهداءِ الانتفاضة بآلافهم المؤلفة في الضفة والقطاع، فكيف لا يكون المكانُ هناك أيضًا مَبعثا للإبداع؟، وقسْ على ذلك النزيفَ اليوميّ... وعندما يُحرق المسجدُ الأقصى وتسرق الكنائس وتدنّس الأمكنة المقدسة فكيف لا يكون لهذه الأمكنة صرخاتٌ مُدوِّيةٌ في شعري؟؟. وعلى مستوى المكان العربيّ العام، ربما كنتُ أكثر شاعر محلي كتب عن العراق ومحنة ومآسي العراق، وما زلت أذكر كيف أجهشت النساءُ في إحدى قاعات يافا عندما أخذت ألقي قصيدتي: " ليلى العامريّة في بغداد "، عقب مجزرة الأطفال التي ارتكبتها القوات الأمريكية الغازية في ملجأ العامريّة... لم أترك حدثًا فلسطينيًّا إلا وطرقت أبوابه، كذلك تناولت بعض الأحداث العربية العامّة الطّامّة.

- تقيمُ في فلسطين رغمَ الظروف الاجتماعيَّة والسياسيَّة الصعبة، هل تقيِّدُكَ هذه الظروف إبداعيًّا أم أنها تؤثرُ عليك؟.

ـ الظروف التي نحياها نحن عرب ١٩٤٨ اليوم هي غيرُ الظروف التي كابدها جيلنا في الخمسينيّات والستينيّات من القرن الماضي، إذ كانت حريّةُ التنقل ممنوعة بدون تصريح من قِبَل الحاكم العسكري، وكان الانتماءُ السياسيُّ محارَبًا من قِبَل

السُّلطة، وكانت كتاباتنا مراقبةً ومحاسَبةً من قِبَل أذرع السلطة المخابراتية، حيث كانت هناك وحدة لمراقبة المطبوعات تعمل بلؤم عنصري بغيض، وأظن أنها ما زالت بأساليب مخفيّة.. تعمل في الخفاء، تمدّ مخالبَها بين الحين والآخر كما حدث لي عام ١٩٩٠عندما صودر ديواني " العَودة إلى الآتي " حيث اعتبرته الرقابة تشجيعًا وتحريضًا ضد جيش الاحتلال. إن العيشَ على حد السيف عاملٌ مُحَفز أدبيًّا وإبداعيًّا، فعليك أن تنام وعيناك تحدِّقان في المجهول وقلبُك ينبض ألفَ نبضةٍ في الدقيقة..

• - ديوانك الأخير : "أنا الجاني"، إذا أردنا تلخيصَه، ماذا تريد القولَ من خلالِه؟.

- الديوان الأخير هو مواصلة ما انتهجته فيما سبق، فأنا برغم ما عانيتُ وأُعاني لم أنحرف عن خطي الوطني لحظة واحدة أو قيدَ أُنملة برغم كل الضغوطات.. لقد حمل هذا الديوانُ الهمَّ الفلسطينيَّ خاصةً والهمَّ العربيَّ بشكل عام، فجاء في أربعة أبواب: ١- مَن ضيَّعني..؟ ٢- رحلوا.. كِبارًا.

٣- كلماتٌ دافئة. ٤- من جُعبتي.

حمل البابُ الأول قصائدَ تقرأ من عناوينها، مثل: "أنا الجاني" وَ "مَن ضَيَّعَني" وَ "أبكي عراقًا" وَ "مُعلقة على جدار العولمة"

وغيرها. الباب الثاني حمل رثائيات، مثل " دمعة على فيصل الحسيني " وَ " أَلسنة الأزمان " بمناسبة رحيل شاعرنا الكبير شكيب جهشان.. الباب الثالث حمل كلماتٍ دافئةً للسيدة فيروز. أما الباب الرابع: من جُعبتي؛ فحمل مقطوعاتٍ وجدانية..

- اعتقلتك القواتُ الإسرائيليَّة وحاكمتكَ ثلاثَ سنوات وتمَّ حرقُ كتبك بعد مصادرتها.. بماذا يذكّرك هذا الإحراقُ لدواوينِك وماذا ترك في نفسِك؟.

ـ تذكرُني هذه الجريمة النكراء بما قام به هولاكو التتري حين أحرق مكتبات بغداد الرشيد.

لم تترك حادثة محاكمتي على مدى ثلاث سنوات سوى التحدّي والتصدّي ومواصلةِ المسيرة، فقد أصدرتُ بعد تلك الحادثة المأساوية ستَّ مجموعاتٍ شعريةٍ وكتابًا نثريًا واحدا هو: "في قفص الاتهام"؛ بعد محاكمتي قال عنه باسم المرعبي في مجلة الناقد: (مثل هذا الكتاب يصلحُ لأنْ يكونَ وثيقةً تسعفنا في التعرُّف إلى حرية التعبير وحدودِها فيما تسمى بِواحة الديمقراطية، هذه الواحة التي تتطلب أن يحملَ الشاعرُ فيها رخصة شعر، كما جاء في واحدة من جلسات المحكمة ليحقَّ له الكتابةُ والتنقل) .

• كيف تقيّم ظروفَ النشر في العالم العربيّ؟

- زرتُ مصرَ عدة مرات، وأعرف الكثيرين من المبدعين هناك، كلهم يتذمر من ظروف النشر وعزوفِ العربيّ عن القراءة. تصوّروا أن جريدة " يديعوت أحرونوت " العبرية المسائية توزع يوميًا أكثر مما توزعه "الأهرام القاهرية" للعالم العربي من المحيط الهادرِ حتى الخليج العاثرِ بعشرة أضعاف.

• - هل حالةُ الشعر العربيّ بخير وعافية بنظرك؟

- أقرأ كثيرًا لما ينشر من الشعر في العالم العربيّ فأتساءل: هل هذا الانفلاتُ الشعريُّ حالةٌ صحيةٌ أم كارثةٌ أدبيّة؟ لم أبَلوِرْ رأيًّا بعد..

• هاجمتَ العولمة في قصيدتك الجميلة الأخيرة "أبو ذر الغفاري والعوْلمة.." هل العولمة بالنسبة لك ليست سوى كارثةٍ في نهاية المطاف؟

- العولمة في رأيي عمليةُ تعليبٍ للإنسانية بهدف السيطرة عليها من أجل مصالحَ جشعةٍ اقتصاديًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا، تصبُّ كلها في مصلحة السيد الأبيض في البيت الأبيض في الزمن الأسود...

• - ما رأيُك بهذه الأسماء؟.

١- محمود درويش : نراهُ فينا ويرانا فيه... منا وإلينا...

٢- سميح القاسم : محاربٌ أضاعَ سيفه على مفترَقِ الطرُق...

٣- أحمد دحبور : يا شُعلةَ نورْ.. يعشقكَ الكرملُ في وطنٍ أعطاكَ النورْ...

٤- فدوى طوقان : روحٌ تاهت من عندِ الله وعادت إليه (رثيتها بدمع القلب).

٥- فاروق مواسي : مثقفٌ حتى النخاع...

٦- سعاد جبر : صوتٌ رصينٌ خافتٌ في زمنٍ هادر..

٧- ناجي العلي : سيفُ الكاريكاتير المسلول... أذكرُه صباحَ مساءَ في ذهابي وإيابي إلى عملي بالناصرة، مرورًا بمحاذاة مسقطِ رأسِهِ قرية السَّجرة الجليلية.

موقع إيلاف

٧-١٠-٢٠٠٥

موقع التجديد

١٧-١-٢٠٠٦

" الموسيقى الداخليَّة " في الشعر المنثور.. لا أسمعُها !!

- لقاء أجرته : رنده زريق صبَّاغ

"بعد ١٥ كتابًا، ونشاطٍ شعريٍّ متواصل خلال خمسين عامًا، يعتبر شفيق حبيب واحدًا من أبرز الشعراء عندنا،..."

"عن تجربته الشعرية والوطنية في هذا الحديث: (إنّ من يقرأ مجموعتي الأخيرة "أنا الجاني" ؛ لا بُدَّ له أن يستشفَّ الكثيرَ من تهشيم القوالب، فالمجموعةَ الشعريّةَ اللاحقة هي استمرارٌ للمجموعات السابقة مع تغيُّر الحدثِ واللحظةِ والزمانِ والمكان، ليس هناك ثابتٌ بل كلُّ ما فينا وحولنا متحوِّل...)

هذا ما قاله الشاعر شفيق حبيب في مستهلّ هذا الحديث.

• بدايةُ مشواركَ مع الشِّعر ؟

ـ لقد بدأتُ مشواري مع الشعر في مرحلة الدراسة الابتدائية، إذ كان يستهويني درسُ المحفوظات بصورة خاصّة، فأحاول تقليدَ تلك القصائد دون أن أدري بأن الشعرَ فنٌّ له قوانينه الصارمة وعالمُه السحريّ.

واستمرّت محاولاتي أثناءَ الدراسة الثانوية بالناصرة، في النصف الثاني من خمسينيات ومطلع الستينيات من القرن الماضي، فتحسّن أدائي كتابةً ومضمونًا، وأصبحتُ أقدِّم درسَ الإنشاء شعرًا مما حدا بأستاذ العربية آنذاك المرحوم حبيب حزان أن كتب لي ملاحظة في ذيل إحدى القصائد: "سيكونُ لك مستقبلٌ في دنيا الشعر يا شفيق!!" وما زلت أحتفظ بهذه القصائد والملاحظات منذ أكثر من خمسين عامًا.

• أولى القصائد ـ أوّل الدواوين- أذكر عددها وأهمّها.!!

- قصائدي التي كتبتها كمحاولاتٍ كثيرةٌ جدًا، ولكن أول قصيدة نُشرت لي كاملة بدون أي حذف أو تصحيح كانت قصيدة "قصة حب" نشرَتها صحيفة "اليوم" في ٣ آذار ١٩٦١ في ملحقها الأدبي.. أما ديواني الأول فجاء تحت عنوان "قناديل.. وغربان" صدر عن دار "الشرق" وطبع على مطابع "دار الأيتام الإسلامية بالقدس" عام ١٩٧٢.

أصدرتُ حتى اليوم أربعةَ عشرَ ديوانًا شعريًا وكتابًا نثريًّا واحدًا تحت عنوان: "في قفص الاتهام" وهو وقائعُ قضائيةٌ في معركة حرية التعبير، تناولتُ فيه القوانين التي اعتقلتني السلطة الإسرائيلية بموجبها، ومحاكمتي على مدى أكثر من ثلاث سنوات بتهمة التحريض ضد الجيش الإسرائيلي ومؤازرة

وتأييد الانتفاضة والحثِّ على مؤازرتها، فصودرت مؤلفاتي من بيتي ومن المطبعة والمكتبات وأحرقت بأمر من المحكمة.
لقد تناولتُ بهذا الكتاب: أمر مكافحة الإرهاب رقم ٢٢ لعام ١٩٤٨ وقانون العقوبات لعام ١٩٧٧.

• بأي شاعر أو أديب تأثرتَ جدًا؟

- في مطلع حيلتي تأثرتُ جدًا بالأدباء المهجريين وعلى رأسهم جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة بشكل خاص "والرابطة القلمية " بشكل عام، فعشقتُ كتاباتهم النثرية والشعرية، لأنني لمستُ بها طعمًا مغايرًا لطعم أدبنا الشرقيّ وذلك بالرغم من صغر سني الأدبية آنذاك.

بعد ذلك بلورتُ لنفسي شخصية أدبية لها ميزاتها الخاصة وأصبحتْ قصائدي تعرف حتى بغياب اسمي عنها وذلك بشهادة قراء الشعر وناقديه لدينا.

• حادثة هامَّة أيام الطفولة كان لها أثرٌ على مجرى حياتك كإنسان وكشاعر..

- هناك حادثة ما زالت ماثلة أمام عينيّ وقعت عام ١٩٤٨ وكنت يومها في السابعة من عمري، فعندما احتلت القوات الإسرائيلية قريتي الجليلية دير حنا، أخذوا الرجال وجمعوهم في

ساحة القرية الواسعة، وعندما تأخر الرجال عن العودة إلى بيوتهم أعطتني والدتي صُرّة وفيها طعام قائلة لي: اذهب وأعطها لوالدك ومن معه، ولكن حاذر أن يراك العسكر، عليك التسلل بجانب جدران البيوت وأنا سأرعاك عن بعد، وهكذا كان، وعندما نجحتْ العملية، أرسلتْ بقيةُ النسوة معي الطعام أكثر من مره، ولكن مش كل مرّه بتسلم الجرّه... فقد قبضَ عليّ أحد الجنود وكان برفقة جندية أخرى، فركلني وأخذ مني "الزواويد" المرسلة إلى رفاق أبي، وعدتُ باكيًا إلى البيت حيث وجدتُ جدّي لأبي، وقد عاد مذعورًا مهينًا مهيض الجناح - وهو المختار السابق- بسبب الضرب الذي تعرض له أمام مسجد القرية أثناء تسليمه الجيش الإسرائيلي الذي احتل القرية ثلاثَ قطع سلاح كان يملكها، واحدة لوالدي والأخريان يهبهما لأي اثنين يتجندان للدفاع.. وعندما فحص الجندي الإسرائيلي قطع السلاح الثلاث وجد إحداها ما زالت مشحونة بالذخيرة فانهالوا على جدّي رحمه الله بالضرب والتعذيب والإهانات، وكان يومها قد تجاوز الستين من عمره.

- كيف تقيِّم الشعر الفلسطيني وكيف ترى النقاد العرب والأجانب لهذا الشعر وهل أخذ حقه عالميًّا برأيك ؟

- الشعر الفلسطينيّ، إذا جاز لنا تسميته هكذا، خارجٌ عن السرب العربيّ، فرضَ نفسَه كشعر قضية مرَّ عليها أكثرُ من

نصف قرن وما زالت تراوح مكانها برأيي، بالرغم من هذا الغبار الذي يثيره المُطبِّعون، لقد أدى الشعر الفلسطينيّ وما زال دورَه بمواكبة الحدث بآلامه وآماله.. فأجاد وجلى...

يقف العرب من هذا الشعر مواقفَ عِدّة، فبعضهم يعتبر أن شعر الرفض المناهض سينتهي بإقامة الدولة الفلسطينية ويكون قد أدى دوره، متناسين أن القضية الفلسطينية ليست غزة والضفة الغربية فحسب؛ بل تصل جذورها إلى شواطئ عكا وحيفا ويافا وطبريا وصفد وعسقلان وجميع القرى المهَجرة، ممتدةً في عمق تاريخ الوطن، أما البعض الآخر فيربط مسيرة الشعر الفلسطيني بمسيرة الشعر العربي عامّة، بالرغم من خصوصياته وهذه نظرة شمولية أخرى.

فيما يتعلق بالعالمية، إذا استثنينا محمود درويش وبعضًا أقلَّ من أصابع اليد الواحدة فإن الأدباء العالميين لا يعرفون عنا سوى أدب البندقية.

هناك ظاهرة لا أعرف مدى إيجابياتها على المستوى المحلي وهي قيام بعض الشعراء بانتداب مترجمين إلى الإنكليزية لكي يتعرف الأدباء الغربيون على نتاجهم، وهناك من يحاول أن يُظهر نفسَه ويُسَوِّق شاعريته على الإنترنت، فعلى بركة الله في زمن العولمة والمغنمة !!

• الشعر العربي بشكل عام في حالة انحطاط هل تؤيد هذا القول ولماذا؟

ـ أنا لا أؤيد رأيًا كهذا. وكأحد المطلعين على نتاجنا العربيّ العامّ من الشعر، هناك شعراءُ يشار إليهم بالبنان..لهم إشراقاتهم الشعريّة.. ولكن هؤلاء أيضًا مثلي لا يجيدون مهنة التسويق والإعلام.

• الشعر العمودي وشعر النثر.. أيهما تفضّل؟ وهل ساهم شعر النثر بالتقليل من قيمة الشعر العربيّ عامّةً؟

ـ هناك الشعر العمودي السائر حسب مواصفات الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهناك شعر التفعيلة أو ما يسمى بشعر نازك الملائكة وهناك شعر مجلة "شعر" والنثر الشعري أو الشعر النثري والكلام الذي لا يسمن ولا يُغني عن جوع.. فالسّاحة تتسع لمن هبَّ ودبَّ، ولكن الزمن كفيل بغربلة هذا الشعر، إذن ليست هناك صلة بين التقليل من قيمة الشعر العربيّ عامّة وفيضانات شعر النثر.. فمهما كثرت المعادن الرديئة فالماس هو الماس والذهب هو الذهب.. وأما الزبد فيذهب جفاءً.

أنا شخصيًا أحبّ الموسيقى الشعرية.. لذلك أفضل الشعر العمودي وشعر التفعيلة.. أما الموسيقى الداخلية لأنواع الشعر الأخرى فليس عندي آذان وأنتينات تلتقطها.

• نلاحظ أن الشعر الوطني في حالة ركود... لماذا؟؟

- هذا طرحٌ صحيح، فبعد أوسلو ظن بعض الشعراء أن القضية الفلسطينية حُلت وفتحت أبواب السماء، فصمتوا صمتَ أهل الكهف واختلط الحابل بالنابل... فبعد أوسلو عرفت السلطة الإسرائيلية من أين تؤكل الكتف،.. فافتتحت مراكز لها ومكاتب ومؤسسات تعنى بالعرب واشترت بعض أصحاب الأقلام من الشعراء والأدباء ورجال الصحافة الصفراء فصمتوا صمت أهل الكهف عن سياسات القتل والكبت وهدم البيوت ومصادرة الأراضي وعدم المساواة في دولة الديمقراطية الزائفة... فصمتَ الصّوتُ الشعريُّ المناهض بسبب امتلاء الجيوب وتورُّم الحناجر المسبِّحة بنعمة السلطان....

• ألقيَ القبضُ عليك وسُجنتَ أكثرَ من مرَّة.. ما الأسباب وما النتائج الذاتية لمثل هذا النهج الحكومي؟

- تضمّن ديواني "مأساةُ القرنِ الضليل" الصادر عام ١٩٧٦ قصيدة تحت عنوان: "الحرفُ والمأساة" أهديتها إلى الشاعر شهيد الكلمة والموقف: "الحسين بن منصور الحلاج في كلّ زمانٍ ومكان" قلتُ فيها ملخصًا نمطي الشعري ودوري الحياتي وعقيدتي الراسخة:

لن أكتبَ بعدَ اليوم قصيدَه...

إن لم أغمسْ بدمي قلمي..

فمخاضُ الكلمةِ بالألم

يهَبُ المولودَ خلودَه...

فالحرفُ عقيدة..

إن لم أحفظها بضلوعي،

إن لم أغسلها بدموعي،

أضحتْ مَوْؤودَه

فالحرفُ عقيدة...

إنْ لم يُخصِبْ أصبحَ نعلاً

ملفوفًا في طياتِ جريدَه

نعم!! لقد ألقت السلطة الإسرائيلية القبضَ عليّ عدّة مرات بسبب نشاطي السّياسي التنويري للجماهير العربية ضد ممارسات هذه السلطة؛ وطردتُ من عملي كمعلم وكموظف بنك ومُنعتُ من السفر للعمل ولكني لم أنكسر... وواصلت.

• كتبتَ شعرَ الغزل والشعرَ الوطنيّ والسياسي.. فأين ترى نفسك؟؟

- الشاعر كأي إنسان آخر، له عواطفهُ وأحاسيسُهُ ويتفاعلُ مع بيئتهِ وشعبهِ وأمّتهِ، لذلك؛ فهو لا يستطيع الانسلاخَ عن هذا العالم الكبير وإن كان له عالمهُ الخاصّ به.
إنني ما زلتُ أكتب شعرَ الغزل والشعرَ الوطنيّ والسياسيّ، ولكني مُقِلّ غزلاً ومُكثِرٌ وطنيًا وسياسيًّا، لأنّ قضيتنا الفلسطينية ما زالت بين فكيْ أمواج المدَّ والجَزْر، وتمزُّقنا العربيّ ما زال يُثيرُ بي التقزُّزَ ونحن على أدنى درجات سُلمِ الحضارة.

• أنت ابن لإحدى قرى يوم الأرض، كيف أثرت هذه الحقيقة على نوعيّةِ أشعارك؟

- لقد كنتُ في طليعةِ المدافعين عن الأرض، وشاركتُ في عشرات المهرجانات الخطابيّة والتظاهرات طولَ البلاد وعرضها ولم أترك منبرًا للدفاع عن قضيتي إلا واعتليتهُ مع توفيق زيّاد وإميل حبيبي وتوفيق طوبي وحنا أبو حنا وحنا إبراهيم وسالم جبران وفاروق مواسي وجمال قعوار وعطالله جبر وإدمون شحاده وحسين مهنا ومصطفى مراد ومفلح طبعوني ونشطاء شعبيين وسياسيين وشعراءَ آخرين من الصف الوطني، مما حدا بالشرطة الإسرائيليّة بأن تستدعيني عقبَ كلّ

اجتماع جماهيري أو مظاهرة احتجاجية، إلى مركزَي الشرطة في مسغاف- سخنين وعكا للتحقيق والتوقيف عدّة ساعات مع أخذ بصمات أصابعي العشرة كمجرم ضالع في جريمته، لكن، لم يحدُث أن اعتقِلت أو حوكمت حتى كانت قضيتي زمن الانتفاضة الأولى بتهمة مساندة منظمة إرهابية، فسُجنتُ وغرِّمتُ وحوكمت منذ عام ١٩٩٠ حتى عام ١٩٩٣ ابتداءً من محكمة الصُّلح بعكا ومرورًا بالمحكمة المركزيَّةِ بحيفا حتى محكمة العدل العليا بالقدس.

لقد كنتُ أكثر الشعراء الفلسطينيين الذين تناولوا المعارك الشعبية ضد المصادرات ودواويني الشعرية، هي تاريخ لنضالات شعبي، تضمُّ دفاتها عشرات القصائد عن يوم الأرض الخالد وشهدائه الأبرار والتصدّي والتحدّي الشعبيَّيْن للمصادرات وهدم البيوت، فقد نذرتُ قلمي مدى عمري لقضيتي الفلسطينية الشاملة، حتى جاءت الانتفاضة فأخذتُ أعتلي المنابر وأشارك أبناء شعبي بشحنهم بالكلمة الرافضة النابضة الغاضبة، بعدها، قمتُ بجمع هذه القصائد والمواد الأخرى وأصدرتها ضمن ديوان يحمل عنوان "العَوْدةُ إلى الآتي" عام ١٩٩٠.

لقد عثرتْ الشرطة على نسخ من هذا الديوان الذي لم يُقدَّم للمراقبة مُسْبَقًا عند أحد الحواجز في الضفة الغربيّة على أبواب رام الله، فأصدرتْ محكمة عكا فورًا أمرها للشرطة بمصادرة

الديوان؛ فداهمت بيتي ومطبعة الحكيم بالناصرة والمكتبات، حيث صادرت كميّات كبيرة من دواويني السابقة واللاحقة، وأُحرقت وأُبيدت بعد ذلك بأمر صادر عن المحكمة.

سُجنتُ عام ١٩٩٠ في سجن الجلمة (كيشون) السيئ الصّيت مع تجار المُخدّرات وفرضت عليّ الإقامة الجبرية في بيتي وصودرَ جواز سفري، حيث مُنعتُ من مُغادرة البلاد.

إنَّ قصة سَجني ووقائع المحاكمات وثقتها في كتاب يحملُ عنوان: "في قفص الاتهام" صدر عام ١٩٩٣ وأهديته للمحامي اللامع والأديب المعروف أفيغدور فلدمان الذي وقف إلى جانبي واستمات في الدفاع عن شعري ومواقفي وقضيتي طوال أكثر من ثلاثة أعوام.

عندما انتهت محاكماتي لم تفتَّ الممارساتُ السلطوية في عضدي بل ازددتُ صلابة وعنادًا.. وواصلتُ نهجي الوطني الصادق حيث أصدرتُ بعد عملية القمع هذه ستة دواوين شعريّة هي: "ليكونَ لكم فيَّ سلام"، "آهِ يا أسوارَ عكا!!"، "تعاويذُ من خزف"، "لماذا"، "صارخٌ في البرِّية"، وَ"أنا الجاني".

- ما هي أهمّ مميزات شعر شفيق حبيب وما هي إضافاتك للشعر الفلسطينيّ؟؟

لسان المرء قصير بحق نفسه... إنَّ أهم مميزات شعري وإضافاتي للشعر الفلسطيني وردت في نقد بعض أعمالي

للدكتور يحيى زكريا الآغا والدكتور نادي ساري الديك والدكتور فاروق مواسي والدكتور بطرس دله والدكتور منير توما والنقاد الأساتذة: طلعت سقيرق، نور عامر، وداليه بشارة، ونبيل عودة، ومحمد علوش، وشاكر فريد حسن، وغيرهم ممن أستميحهم العذر لعدم ذكر أسمائهم...

وفي النهاية، نقتبسُ مما ذكره الدكتور يحيى زكريا الآغا بأن شاعرَنا:

(صاحبُ قلمٍ خاص، ومنهجيّةٍ متميزةٍ مع تنوُّعٍ في الموضوعات وفي الأفكار، يرصدُ من خلالِ شعرهِ كلَّ الصُّوَرِ التي حدثت وتحدثُ للشعب الفلسطينيّ مبتعِدًا عن الغلوِّ.. وما زال يبدعُ من معين الأرضِ والوطن من أجل تحقيق الحرية المنشودة والعدل المفقود في زمن الاعتقال الفكري والأمل الضائع...ويبقى الشاعر شفيق حبيب علامةً مُضيئةً في دنيا الشعر وأحدَ رموز التحدّي والمُواجهة..)

جريدة " العين " النصراوية

٢٤-٤-٢٠٠١

لقاءٌ معِ الشَّاعرِ الفلسطينيِّ الكَبيرِ شَفِيق حَبيب

- حاتم جوعيه

مقدمةٌ وتعريفٌ

البطاقةُ الشخصيَّة:

الشاعرُ الكبيرُ والمُخضرمُ الأستاذ "شفيق حبيب" من سكانِ قرية "دير- حنا الجليليّة"، عمره ٧٠ سنة (مواليد عام ١٩٤١) أنهى دراسَتهُ الابتدائيَّة في قريتهِ "دير حنا" والثانوية في "المدرسة الثانوية البلدية" بالناصرة... دَرَسَ بعد ذلك موضوعَ المحاسبة مدة ثلاث سنوات في كلية "بيت هبكيد" بحيفا- حصل أيضًا على دبلوم الصحافةِ والعلاقاتِ العامَّةِ وتحرير الأخبار من "المعاهد البريطانية" في القدس،عملَ في سلكِ التعليم لفترةٍ قصيرةٍ وأعفيَ أو بالأحرى فُصِلَ من وظيفةِ التدريسِ من قِبلِ الحاكمِ العسكري سنة ١٩٦١ بسببِ مواقِفهِ السياسيَّةِ المُلتزمةِ وقصائدهِ الوطنيَّةِ الحماسيَّةِ وعدم تأليف قصيدة ابتهاجا بيوم الاستقلال، وعملَ بعد ذلك موظفًا في البنكِ العربي الإسرائيلي لفترةٍ قصيرةٍ أيضًا- في مدينةِ شفا عمرو- ولاقى هناك نفسَ المصيرِ حيث فصِلَ من وظيفتِهِ بطلبٍ من الحاكمِ العسكري نفسه

الذي كان مكتبهُ في شفا عمرو وعملَ بعد ذلك في مكتبِ حساباتٍ خاص بحيفا واشتغلَ في عدَّةِ مكاتبِ محاسَبةٍ مستقلةٍ (غير حكومية)- حتى استقرَّ به المقامُ في "شركةِ الناصرةِ للسياحةِ المحدودة- "العفيفي" منذ عام ١٩٦٤... وما زالَ حتى الآن يعملُ في نفس الشركة.

ويُعتبرُ الشاعرُ القديرُ "شفيق حبيب" من أوائل الشعراءِ الوطنيين الملتزمين والمبدعين محلياً ووصَلتْ شهرتهُ خارجَ البلادِ ولحّنوا وغنوْا لهُ العديدَ من القصائد في الدول العربية...

وكان لنا مَعهُ في بيته هذا اللقاء الخاص والممتع:-

- الأستاذُ الشاعرُ "شفيق حبيب" اسمٌ كبيرٌ ومعروفٌ.. أشهرُ من نارٍ على علم ... كيفَ تقدِّمُ نفسَكَ لجمهورِ القرّاء؟؟

- أنا شاعرٌ خرجَ من صفوفِ الشعبِ حيث التزمتُ بقضايا شعبنا الجماهيريَّة والسياسية والاجتماعية، واعتليتُ من أجلِ ذلك عشرات المنابر من جنوب البلاد حتى شمالها مدافعًا عن حقوقِ الفلسطينيّ في هذه البلاد... تناوَلتُ في قصائِدي تاريخَ الشعبِ الفلسطيني - محليًّا وخارجيًّا - في جميعِ دواويني فكنتُ أتناولُ جميع الأحداث في قصائدي ولو عُدنا إلى دواويني الخمسة عشر (١٥) لتجلى لنا تاريخُ بطولات ومعاناةِ هذا الشعب: كمقارعة الحكم العسكري الجائر ويوم الأرض وأحداث بيروت

الداميةِ في الثمانينيات - وأحداث الانتفاضة وهدم البيوت ومصادرات الأراضي وأزمة السكن- وقد صُودِرَ ديواني "العودة إلى الآتي" وحُوكِمتُ وسُجنتُ جرَّاءَ كتاباتِي.

- حَدِّثنا عن مسيرتِكَ الشعريَّةِ منذ البدايةِ إلى الآن... وأهمّ المحطاتِ في هذه المسيرةِ؟؟

- بدأ حُبِّي للشعرِ منذ مراحل الدراسةِ الابتدائية في قريتي "دير حنا" الجليلية- حيث كنتُ أكتبُ كلامًا نثريًّا أظنهُ شعرًا... ولم أكن أعرفْ أنَّ للشعرِ بحورًا وقوانين تضبطهُ...ازدادتْ محبتي للشعرِ وشغفي وهيامي بهِ أثناءَ دراستي الثانوية بالناصرةِ حيث كنتُ أقدِّمُ موضوعَ الإنشاءِ أحيانًا شعرًا، فكان يكتبُ لي أستاذُ اللغةِ العربيةِ– المرحوم "حبيب حزان":

(سيكونُ لكَ مستقبلٌ في دنيا الشعر يا شفيق!).

وفي المراحل الأخيرةِ من دراستي الثانويةِ بدأتُ أنشرُ قصائدي الغزليَّةَ في جريدةِ "اليوم" حيث لم تكنْ جريدةُ "الاتحاد" الشيوعية تنشرُ شعرَ المبتدئين واللاحزبيين، وقد أخذَ بيدِنا نحن الشباب في ذلك الوقت المحرِّرُ الأدبي في جريدةِ "اليوم" والذي لم أنسَهُ، الأستاذ "المرحوم مئير حداد" (يهودي عراقي)- ولهذا المُحَرِّرِ أفضال على معظمِ شعرائِنا المحليين - "لا يذكره أحد اليوم"- حيث كان يكتبُ لنا ملاحظاته على القصائد غير القابلةِ للنشر... ممَّا كان يدفعُنا إلى مراجعةِ نتاجنا الغضّ والتقدمِ في دنيا الشعرِ.

أوّلُ ديوانٍ أصدرتهُ "قناديل وغربان" عام ١٩٧٢ وقد أصدرَتهُ (على حسابي) بواسطة "مجلة الشرق" للدكتور الزميل "محمود عباسي"... إنَّ مؤلفاتي الستة عشر نشرتها على حسابي الخاص- بالإضافةِ إلى ديواني المذكور- دونَ مساعدةِ أيِّ دارِ نشرٍ، وكانَ مديرُ دائرةِ الثقافةِ العربيةِ الأستاذ "موفق خوري" هو الذي يشتري من بعض ما أصْدِرُهُ حوالي مئة نسخة (١٠٠) إذ كان يُوزِّعُهَا على المكتباتِ العامَّةِ في الوسطِ العربي وعندما أصبَحَ "غالب مجادله" وزيرًا للعلومِ والرياضةِ أقفرَت السوقُ الأدبية على مدى تسَلمِهِ منصبَه هذا (حوالي أربع سنوات) فلمْ نرَ كتابًا واحدا صدرَ من قبلِ هذه الدائرة، فالمكتباتُ العموميَّةُ العربيَّةُ التابعة للمجالس المحليَّةِ تدينُ بالكثيرِ لمديرِ دائرةِ الثقافةِ العربيةِ الأستاذ "موفق خوري"... هذا بالإضافةِ إلى الكثيرِ من الكتابِ والشعراءِ المبدعين المحليين الذين خرجت كتاباتهُم ومؤلفاتهُم للنور وتعَدُّ بالمئات بفضلِ دائرةِ الثقافةِ العربية وبفضلِ رئيسِهَا موفق خوري... وشعريًّا ما زلتُ أعطي ومُستَمِرًّا في الكتابةِ ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا..

• المواضيعُ والقضايا والأمورُ التي تعالجُهَا في كتاباتِكَ؟؟

- في بدايةِ حياتي الأدبيَّةِ، ككلِّ الشعراءِ، كتبتُ الشعرَ الغزليّ والوصف والمناسبات الشخصيّة....وبعد ذلك اتجهتُ إلى الشعرِ السياسي الذي ما زلتُ أكتبهُ حتى اليوم متفاعلاً مع الحدث،

كذلك فإنني أعالجُ مناسبات أخرى كرثاءِ الزملاءِ الأدباء مثل: إميل حبيبي ومحمود درويش وحبيب زيدان شويري وشكيب جهشان وميشيل حداد وفوزي جريس عبد الله وأحمد طاهر يونس وغيرهم... وأكتب أحيانًا متناولاً القضايا العائلية كمناسبات الأفراحِ للأبناء والبنات... الخ.. كذلك رُبَّما أكونُ أكثرَ شاعرٍ محليٍّ تناولَ القضايا الدرزيَّة.. فأنا تناولتُ بشعري المرحومَ عطوفة سلطان باشا الأطرش قائد الثورة السورية العربية الكبرى.ورثيتُ المرحومة "غالية فرحات"، شهيدة الجولان المحتل... وذكرتُ كتابَ الحكمةِ للدروز في النشيدِ المدرسيِّ الذي ألفتهُ للمدرسةِ الزراعيَّةِ في قريةِ الرامة. كتبتُ كذلك للصديق سعادة القاضي الدرزي المتقاعد فارس فلاح، فقلتُ له:

قــاضٍ لــه في الحــقِّ صَــولةُ فــارسٍ   لا يبتغـــي نهجًــا سِــوى الإصــلاحِ
ســاءَلتُ عــن قصــرِ العدالــةِ ســامقًا   قـــالوا بَنـــاهُ فــارسُ بـــنُ فــلاحِ

البيتان أعلاه تصدَّرا كتاب سعادة القاضي: "دواليب الحياة – مذكرات" الصادر عام ٢٠٠٥.

• أنتَ تكتبُ شعرَ التفعيلةِ الموزون والشعرَ التقليدي الكلاسيكي- الموزون والمُقفى- في أيٍّ منهما تجدُ نفسَكَ أكثر وتستطيعُ التعبيرَ عن نفسِكَ ومشاعِرِكَ ولواعِجِكَ الذاتيَّةِ بشكلٍ أوسع وبحُرِّيَّةٍ وانسيابٍ؟؟

- إنَّ من يُجيدُ الكتابةَ على بحورِ الخليل بن أحمد الفراهيدي لا تكونُ كتابةُ شعرِ التفعيلةِ عائقًا أمامَ انطلاقتهِ الشعريَّةِ... أنا شخصيًّا قبلَ كتابةِ القصيدةِ لا أقرِّرُ على أيَّةِ طريقةٍ أكتبُهَا... بل هي "القصيدة" تفرضُ نفسَها حيث يكونُ الشاعرُ منشغلا في إيحاءاتِ القصيدة ومراميها غيرَ عابئٍ بأيِّ نوعٍ وقالبٍ يكتبُهَا.. فالقصيدةُ لا تأخُذُ رونقهَا من شكلِها... وإنما من الدهشةِ التي تصعقُ المُتلقي... وأحيانا كثيرة يرتقي بعضُ النثر إلى مستوى ومصافِّ الشعر وقد دعاهُ البعضُ بالشعرِ المنثور... ومن ذلك كتابات جبران خليل جبران والرابطة القلمية في المهجر وبعض الكتابات الحديثة حيث لا تتخذُ الكلمةُ في هذا النوع من الكتابةِ معناها القاموسي، بل تحلقُ في سماواتٍ أخرى.

• ما رأيُكَ في مستوى الشعرِ والأدبِ المحلي؟؟

- حاليًّا الشعرُ المحلي على أدنى سُلمِ الأدب... فالجيلُ اللاحق لا يصلُ إلى خاصرةِ السابقِ... وعندما أقرأ ما يُنشرُ أسبوعيًّا على صفحاتِ الصحف المحلية لا أجدُ ما يشدُّني ويبهرني ويُحَلق بي

إلى عوالم أخرى كما كنا في سنوات الستينيات والسبعينيات فكانت القصيدةُ آنذاك محطَ أنظارِ وانتظارَ الجميع... وهذا الأمرُ غيرُ موجودٍ حاليًّا بسببِ هذا الإسهالِ الكلامي الذي تسمحُ بهِ الصحفُ ووسائلُ الإعلام دون رقيبٍ ودونَ ضوابط أو حدودٍ... فكلَّ مَنْ يخطّ بعضَ الكلماتِ أصبح شاعرًا أو قاصًّا في حين أنه لا يجيدُ اللغةَ العربية - صرفها ونحوها- ولا يُمَيّزُ بين التاءِ المربوطةِ والتاءِ المفتوحةِ والألف الممدودة وأختها المقصورة. فالأدبُ المحلي مصَابٌ "بالضمور". فأينَ زمنُ "محمود درويش وراشد حسين وسميح القاسم وتوفيق زياد وحنا أبو حنا وفوزي عبد الله وشكيب جهشان وشفيق حبيب وحنا إبراهيم الياس ومنيب مخول وجمال قعوار وعطا الله جبر وإدمون شحاده وعصام العباسي وفاروق مواسي وحسين مهنا ومحمود الدسوقي ومصطفى مراد واحمد طاهر يونس وسميح صباغ وسالم جبران وسلمان دغش وسليمان دغش والدكتور سليم مخولي ونزيه خير ومؤيد إبراهيم.... إلخ.

لقد أقِيمَ في الماضي "اتحادُ الكتابِ العرب" وَ "رابطة الكتاب الفلسطينيين" ولم يكنْ هنالك أيُّ تقييداتٍ وحساباتٍ بالنسبةِ لِسِنِّ الأديبِ أو الشاعر... بينما الأمرُ الممجوجُ حاليًا "تحديد السن"، وهو أمرٌ غيرُ مقبولٍ عليَّ، وهذا ما يشترطه ما يسَمَّى باتحادِ كُتابٍ ظهَر جديدًا على الشاشةِ يُطلقُ عليهِ اسم "اتحاد

الكتاب العرب"، فهناك تقييداتِ على الشخصِ الذي يَودُّ الانضمامَ إلى هذا الاتحاد.. "من حيث الأعمار لا من حيث الإبداع والقيمة الأدبيَّة"!!!... أي على الشخصِ المنتسبِ أن يكون عمرُهُ أقلَّ من ٤٥ سنة!!!! وربما ممارسة الكراتيه أو سباق الدراجات وركوب الخيول والحناطير مستقبلاً.

- رأيُكَ في الحركةِ النقديَّةِ المحلية وهلْ عندنا نقدٌ محليٌّ موضوعيٌّ على مستوى أكاديمي كما هو النقد في الدول العربية؟؟

- النقدُ المحلي لدينا هو نقدٌ ذوقيٌّ أكثر من كونهِ نقدًا أكاديميًّا وعلميًا، عندنا نقادٌ أكاديميون ذوو كفاءة، أقرأ لهم وأستمعُ إليهم كما كان في كليَّةِ القاسمي بباقه الغربية قبل أشهر... ولكن ليس لهذا النقدِ أي تقييمٍ محلي سوى بين النقادِ أنفسهم -النقد الأكاديمي-... أما النقدُ الذوقي ففرسانهُ كثيرون عندنا وبعضُهم يُجلي أحيانًا والبعض الآخر يسقطُ على قارعةِ دروبِ النقد.

- أنتَ قبلَ أكثر من ربعِ قرنٍ "٢٥ سنة تقريبًا" تعرَّضتَ لنقدٍ بل لهجوٍ عنيفٍ مبيَّت له من قبلِ أحدِ النقاد المحليِّين وقد نشرَ مقالتهُ آنذاك في مجلةِ "البيادر" المقدسيّة... ما هو تعقيبُكَ على هذا النقدِ... ولماذا هُوجمتَ بهذا الشكلِ العنيف!!؟؟

- لقد رَدَدْتُ في حينهِ ردًّا حازمًا حاسمًا على هذا النقدِ الفظ المشبوه وَفندْتُ إدعاءات هذا الناقد في حينِهِ... وهذه محطةٌ مُعْتِمَةٌ في مسيرةِ هذا الناقدِ (دون ذكر أسماء)... سامحهُ اللهُ...

- ما رأيكَ في الصحافةِ المحليَّةِ جميعها على مختلفِ أنواعها "صحف، مجلات ومواقع إنترنت.. الخ"... وهل هي نزيهة وتقومُ بواجبهَا الإعلامي وبتغطيةِ جميعِ النشاطاتِ والفعاليَّاتِ الأدبيَّةِ والثقافيّةِ بنزاهةٍ وأمانةٍ... أم ماذا؟؟... وما حظكَ أنتَ من الصحافةِ والإعلام المحلي وتغطيةِ أخباركَ ونشاطاتِكَ الأدبية والثقافية؟؟

- الصحافةُ المحليةُ معظمها صحفٌ تجاريَّة تعتمدُ في تمويلهَا على الواردات الإعلانية... وبدون ذلك لا يُمكِنُ لها أن تعيشَ وتستمرَّ، فالمحرر يحذف قصيدة ما قبل الطبع لصالح إعلان أحذية أو ملحمة من أجل المردود المادّي، ونستثني من ذلك صحيفة "الاتحاد" الحيفاوية التي تنتمي للحزب الشيوعي الإسرائيلي فهي صحيفة تنتمي لحزب ذي إمكانيات وميزانيات وتوجيهات مبدئية أخرى أما باقي المواقع الإلكترونية فهي تقومُ بواجبها من حيث تغطية الحَدث المحلي السياسي والأدبي والاجتماعي والفني. إن جميعَ الصحف والمواقع الالكترونية المحلية مشكورة.. وأنا مدينٌ لها بتغطية أخباري الثقافيةِ منها والأدبية أو إصدارات الكتب.... الخ.

• أنتَ شاعرٌ مُخضرم حققتَ شهرةً كبيرةً وواسعةً محليًّا وخارجَ البلاد... كيف وصلتَ إلى كلِّ هذه الشهرة!!؟؟

- إن مواصلتي نشاطيَ والتزاميَ الأدبيّ هي التي أوصلتني إلى الجماهيريةِ والشهرةِ التي عليها أنا الآن محليًّا وخارجيًّا... والتزامي بخطٍّ سياسيٍّ ثابتٍ دونَ مواربةٍ باعتمادِ الكلمة الصحيحةِ الثاقبة التي تختزلُ المسافات بيني وبين المتلقي... فكلما أصدرتُ كتابًا يتناولهُ بعضُ نقادِنا المحليين وكذلك بعضُ النقادِ في الخارجِ.... وبهذا يتمُّ التعرُّفُ عليَّ وعلى نتاجي الكتابي، وكذلك مشاركاتي في بعضِ النشاطاتِ الأدبية هنا (محليًا) وفي الضفةِ الغربية.... وقبل سنوات في مصر، كانت سببًا في تعرُّفِ الجماهير هنا وهناك على نتاجي الأدبي من خلال اشتراكي في ندوات محلية أو الاشتراك في شهر الكتاب بالقاهرة.

• النقادُ الذين كتبوا عنكَ: محليًّا وخارج البلاد؟؟

- النقادُ المحليُّون الذين تناولوُا شعري هم كثرٌ أذكرُ منهم: الدكتور "بطرس دله" وأنتَ: "حاتم جوعيه" والدكتور "منير توما" والدكتور "فاروق مواسي" والدكتور نادي ساري الديك والناقد "نور عامر" "والناقد شاكر فريد حسن" "والناقد الصحفي نبيل عودة" "والناقدة دالية بشارة" "والناقد محمد

علوش" والشاعر العروضي محمود مرعي... وفي الخارج كانت هنالك دراساتٌ مكثفةٌ ومُطولةٌ لدواويني الشعريَّةِ قامَ بها "الدكتور يحيى زكريا الآغا"- الملحق الثقافي سابقًا في سفارةِ فلسطين بقطر وكتبَ عني أيضًا الناقدُ السوري/الفلسطيني الأستاذ "طلعت سقيرق".... وغيرهم..

• لقد لحَّنوُا لكَ العديدَ من قصائِدكَ وغنوها خارج البلاد.. < في الدول العربية>، وخاصَّةً قصيدتكَ الشهيرة "بيروت والدّمُ والصمود" حيث غنتها "فرقة العاشقين" الفلسطينية.. كيف وَصلتْ قصيدتك إليهم واختاروها للتلحين؟؟

-يبدو أنَّ هذه القصيدة قد وَصلتْ إلى الخارج عبر وسائل الإعلام وأعجبُوا بها فقاموا بتلحينها وغنائها... من قبلِ فرقةِ العاشقين المشهورة عربيًا وعالميًا < لم أستمع إليها > وأذكر أن أحد المطربين الذي شاركَ في مسابقةِ برنامج "نيو ستار" وكان من الفائزين الأوائل فيهِ قد غنَّى قصيدةً لي بعنوان: "أغفو على اسمك يا بلادي" وهي قصيدة في الدفاع عن الأرض.. حيث شاهدتهُ يغنيها على موقع : "يو تيوب" "u.tube" وهنالك موقع لكاظم الساهر اختاروا وانتقوا عدَّةَ قصائد لي ووضعُوها على هذا الموقع الجميل..

• أنتَ سابقًا كنتَ تشاركُ كثيرًا في المهرجانات والندواتِ المحليةِ... ولكن في الفترةِ الأخيرة خفَّ وتقلصتْ مشاركتكَ في الندواتِ والمهرجاناتِ الأدبية... لماذا؟؟

- ما زلتُ أُدعى كثيرًا للمهرجاناتِ والندوات الأدبية والشعريةِ في البلاد... ولكن لا أشاركُ إلا في القليلِ منها بسببِ ضيقِ الوقتِ لأنني ما زلتُ أعملُ يوميًّا بالناصرة ومشاغل الحياة لا تتسع لها الحياة.

• طموحاتكَ ومشاريعُكَ للمستقبلِ؟؟

- أطمحُ إلى إصدارِ كتابي الناجز- تحت عنوان:
"شفيق حبيب شاعرًا في مرايا النقد"...
وأطمحُ بعد ذلك إلى إصدارِ مذكراتي الشخصيَّةِ، وعندي الكثيرُ ممَّا أقولُ: أدبيًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا....

• كلمةٌ أخيرة تحبُّ أن تقولهَا في نهايةِ اللقاء؟؟

- أرجُو أن يطولَ بيَ العمرُ لأستطيعَ أن أقدِّمَ المزيدَ من الإبداعات الأدبيةِ التي نذرتُ عمري ومبادئي لأجلِهَا وأن يتحقق السلام العادل وعودة حقوق شعبنا إلى أصحابها....

وأخيرًا: أشكرُكم على هذا اللقاءِ وأتمنى لكم دوامَ التقدم والنجاح...

موقع : ديوان العرب

موقع : البيان

مِسْكُ الخِتام

شفيق حبيب في سطور

- رأى النور في الثامن من كانون الأول عام ١٩٤١ م – الموافق للعشرين من ذي القعدة عام ١٣٦٠ هـ في قرية دير حنا في الجليل شماليَّ فلسطين وفيها أتمَّ دراسته الإبتدائيّة.
- أتمَّ دراستهُ الثانوية عام ١٩٦١ في "المدرسة الثانويّة البلديّة" بالناصرة.
- يحمل دبلوم محاسبة من "دار الموظف بحيفا ".
- حاصل على دبلوم صحافة وعلاقات عامّة وتحرير أخبار من "المعاهد البريطانيّة في القدس ".
- أصدر خمسةَ عشرَ ديوانًا شعريًا وكتابًا نثريًّا تحت عنوان "في قفص الاتهام" وهو وقائع قضائيّة في معركة حرّية التعبير.
- عام ١٩٩٠ صودرت مجموعته الشعريّة "العودةُ إلى الآتي" واعتقلَ الشاعر وحوكم بتهمة مساندة منظمة إرهابيّة ومساندة الانتفاضة والتحريض على جيش الدفاع الإسرائيلي حيث أُحرقت جميعُ مؤلفاتِهِ التي استولت عليها الشرطة في بيته ومن المطبعة والمكتبات واستمرّت محاكمته حتى عام ١٩٩٣ حتى وصلت محكمة العدل العليا في القدس.

- شغل شفيق حبيب منصب "الناطق باسم رابطة الكُتاب الفلسطينيين في إسرائيل" ورئيسًا للجنة النشر فيها، حيث حرّر كتابين - بمساهمة زملاء - هما : "وهجُ الفجر" من أدبيّات الانتفاضة وَ"نداء الجذور - قصائدُ في الانتفاضة" وكان عضوًا إداريًّا في "نقابة الأُدباء العامّة في إسرائيل"
- عضو في "تجمُّع الكُتاب والأُدباء الفلسطينيين الدّولي – بن".
- شارك بتحرير مجلة "مشاوير" مع الشاعر د. فاروق مواسي والشاعر الراحل جورج نجيب خليل.
- حاز على جائزة التفرُّغ لعام ١٩٩٦ من قبل "وزارة العلوم والفنون" زمن الوزيرة اليساريّة شولاميت ألوني.
- كتب ثلاث زوايا هي :
  - "من كلِّ وادٍ عصا" في صحيفة "الأنباء" المحتجبة.
  - " عُيوب... وثقوب" في صحيفة "كلّ العرب" النصراوية.
  - "اسْمَعوا... وَعُوا..." في جريدة "الإتحاد" الحيفاويّة.
- أعدَّ وقدّمَ برنامجين أدبيَّين في راديو ٢٠٠٠ المحتجبة هما :
  - المجلّة الثقافيّة.
  - كلام مَوْزون.

- البريد الإلكتروني : habib_shafiq@yahoo.com

- **إصدارات شفيق حبيب**

١-	قناديل... وغربان... ديوان شعر	١٩٧٢
٢-	مأساة القرن الضّلّيل... ديوان شعر	١٩٧٦
٣-	دروب ملتهبة... ديوان شعر	١٩٨٠
٤-	وطن وعبير... ديوان شعر	١٩٨١
٥-	أنادي أيها المنفى !!... ديوان شعر	١٩٨٤
٦-	أحزان المراكب الهائمة... ديوان شعر	١٩٨٧
٧-	الدم والميلاد... ديوان شعر	١٩٨٨
٨-	العودة إلى الآتي... ديوان شعر	١٩٩٠
٩-	ليكونَ لكم فيَّ سلام... ديوان شعر	١٩٩٢
١٠-	في قفص الاتهام : (وقائع قضائية في معركة حرية التعبير)	١٩٩٣
١١-	آه يا أسورَ عكا !!... ديوان شعر	١٩٩٤
١٢-	تعاويذُ من خزف... ديوان شعر	١٩٩٦
١٣-	لماذا ؟؟؟... ديوان شعر	١٩٩٨
١٤-	صارخٌ في البَرِّيَّة !!... ديوان شعر	٢٠٠١
١٥-	أنا الجاني... ديوان شعر	٢٠٠٥
١٦-	شأبيب... ديوان شعر	٢٠١١
١٧-	شفيق حبيب – في مرايا النقد	٢٠١٣

فهرس الكتاب

١. شفيق حبيب – منارة للشعر :
الباحث/ د. يحيى زكريا الآغا "قطر" ٥

٢. طائر الفينيق المنبعث بركانًا من رماد :
الباحث/ د. يحيى زكريا الآغا ٩

٣. قراءة فنية في ديوان "صارخ في البرِّيَّة" :
الباحث/ د. يحيى زكريا الآغا ٩٧

٤. شفيق حبيب في "أنا الجاني" :
الباحث/ د. يحيى زكريا الآغا ١٠٧

٥. مسيرة عطاء وشاهد على العصر :
الباحث الناقد د. نادي ساري الديك ١١٣

٦. رسالة :
الشاعر الراحل طلعت سقيرق "سوريا" ١٤١

٧. "النفخ في البوق" :
الناقد الراحل طلعت سقيرق "سوريا" ١٤٣

٨. دراسات.... "آهِ يا أسوارَ عكا !!" :
الناقدة دالية بشارة ١٥٥

٩. ديوان " تعاويذ من خزف " :
الناقد نور عامر ١٦٧

١٠. الفن والالتزام في شعر شفيق حبيب :
الناقد نور عامر ١٧٧

١١. الشعر الذي لا يعرف الهزيمة :
الشاعر الناقد محمد علوش ١٨١

١٢. العفوية الجميلة في شعر شفيق حبيب :
د. بطرس دله ١٩١

١٣. ألمٌ يختزله قلم - قراءة في " أنا الجاني" :
د.منير توما ٢٠٧

١٤. وقفة مع ديوان "أنا الجاني" :
الناقد شاكر فريد حسن ٢١٩

١٥. "صارخ في البرية" :
الناقد نبيل عودة ٢٢٥

١٦. حول ديوان "شآبيب" :
الناقد نبيل عودة ٢٣٣

١٧. "تعاويذ من خزف" :
الشاعر الناقد محمود مرعي ٢٣٩

١٨. نظرات في ديوان " شآبيب " :
الشاعر الناقد محمود مرعي ٢٥١

١٩. دراسة في ديوان " لماذا ؟؟" :
الشاعر حاتم جوعيه ٢٧٧

▪ قصائد تحت المجهر النقدي

١. على شاطئ السبعين : قصيدة
(شفيق حبيب) ٢٩١

٢. قصيدة للتشريح...
الناقد/ نور عامر ٢٩٥

٣. تصحيح ما جاء في التشريح...
(شفيق حبيب) ٣٠١

٤. لقاء .. وأمل : قصيدة .. (شفيق حبيب)
تحليل : الشاعر والناقد د. فاروق مواسي ٣٠٥

٥. تراكمات : قصيدة .. (شفيق حبيب)
تحليل : الشاعر والناقد د. فاروق مواسي ٣١١

▪ مواجهات صحفية

١. حسن أشرف :
صحيفة وموقع "إيلاف" وموقع "التجديد" ٣٣١

٢. رنده زريق صباغ :
صحيفة العين وموقع "ديوان العرب" ٣٣٩

٣. حاتم جوعيه :
موقع "ديوان العرب" ٣٥١

- مِسكُ الخِتام

١. شفيق حبيب في سطور ٣٦٧

٢. إصدارات شفيق حبيب ٣٦٩

٣. فهرس الكتاب ٣٧١

شمس
للنشر والإعلام

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net